الاوراق السرية لحرب الخليج

تأليف: رولان جاكار

ترجمة: د. محمد مخلوف

بمثابة تقديم

يعبر هذا الكتاب عن وجهة نظر سياسية حول حرب الخليج. وجهة نظر غربية منحازة؛ لكنها منسجمة مع نفسها بمعنى انها ترى الأمور كلها على ضوء مصلحتها الخاصة، او على الأقل ما تعتقد انه مصلحتها. وهي منحازة ايضاً باعتبار انها صادرة عن طرف في ازمة ثم في حرب. مهما يكن من امر هي كوجهة نظر، لا تلزم غير صاحبها.

اهمية هذا الكتاب بالنسبة للقارىء العربي قد لا تأتي من احكام قيمة نتعاطف معها او نعارضها، نقبلها او نرفضها. لكن من ذلك الكم الكبير من المعلومات والتفاصيل المثيرة و«السرّية» حول احداث جرت وعشناها كلنا، مهما اختلفت مشاربنا ومواقعنا ومشارقنا ومغاربنا، بكل دقائقها. العالم كله عاش تلك الاحداث.

بعض المرّات يخال للقارىء انه حيال رواية بوليسية، ابطالها ضباط وعلماء وساسة وتجار وسماسرة نعرفهم او نسمع عنهم. كلٌ يبحث عن هدفه. الكل يخادع الكل. فالغاية تبرر الوسيلة.

بالمقابل يقدم الكتاب توصيفاً مدهشاً لدرجة التطور التي وصلت اليها - في الماضي القريب - البنية التكنولوجية والعلمية في العراق ويعيد رسم الآليات التي انتجتها والعقل المنظّم والمنظِّم الذي كان وراءها. الأمر الذي شبهه المؤلف بعلبة «البازل» التي تتطلب توليف قطع صغيرة مبعثرة للوحة ما من أجل الحصول على تلك اللوحة كاملة. شركات المانية وفرنسية وانكليزية واميركية وبلجيكية وسويسرية وبرازيلية وارجنتينية وغيرها... ساهمت كلها في تقديم القطع المطلوبة لـ«لوحة» التكنولوجيا العراقية.. وقبضت ثمن ذلك نفطاً وذهباً ودولارات.

لكن بقدر ما يكبر الاعجاب يكبر السؤال والحسرة ايضاً. الاعجاب بقدرة العقل،

الاوراق السرية
لحرب الخليج

* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الفرنسي:
Roland Jacquard: Les Cartes Secrètes de la Guerre du Golfe.

* الطبعة العربية الأولى، ١٩٩١.

* الناشر:
* شركة الأرض للنشر المحدودة

56, Griva Dighenis
Anna Tower - First Floor
P.O.Box 3074
Limassol - Cyprus
Telex No. 6251 A.Z.
Fax No. 05 - 369928
Tel No. 05 - 366494 - 366018

* دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث

133 Makarios Avenue,
Classic House Building - Office No. 4
Tel - (357 - 5) 387463
Fax - (357 - 5) 387464
Limassol - Cyprus

حتى العربي، على الفهم والعمل والتخطيط والتنفيذ. والحسرة على تدمير ما بناه ذلك العقل. امّا السؤال عما آلت اليه الأمور فيبقى قائماً... وتزيده قراءة هذا الكتاب عمقاً وابهاماً.

المترجم.

الفصل الأول:
عشرون ألف دولار ثمناً لأمير

في الثاني من شهر اغسطس ـ آب ١٩٩٠ تسللت مجموعة كوماندوس تابعة لجهاز الاستخبارات العراقية الى مدينة الكويت، بنفس الوقت الذي اجتاحت فيه القوات الخاصة لصدام حسين الإمارة. كانت مهمة عملاء بغداد واضحة وتقضي بـ«القاء القبض على الأمير جابر، أو قتله. وهذا أفضل». كان يُفترض تمويه عملية «القتل» تلك بواسطة رواية تقليدية معروفة تتلخص بحمل الناس على الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بتصفية حسابات داخل الأسرة الحاكمة في الكويت. وبغية ضمان نجاح تلك العملية المشؤومة، جرى في بغداد اختيار اثني عشر رجلاً؛ أربعة سياسيين وثمانية منفّذين، يدعمهم بعض المتطوعين الفلسطينيين المتطرفين. كما أعطي الوعد بمكافأة قيمتها ٢٠٠٠٠ دولار لأحد الكويتيين «المجندين» من قبل العراق. لكن مجموعة الكوماندوس وصلت متأخرة بنصف ساعة عمّا كان مرسوماً في الخطة الأوليّة. وهكذا اخطأت هدفها.

في الساعة الواحدة صباحاً، قام قائد مركز «العبدلي» الحدودي بإيقاظ الشيخ سعد رئيس الوزراء الكويتي. واستطاع المدير العام لأمن الدولة العقيد فهد أحمد الأحمد، بفضل هذه المكالمة الهاتفية التي أتت في اللحظة المناسبة، اخطار أمير البلاد. توجه الشيخ سعد رئيس الوزراء، برفقة وزير الخارجية ورئيس الأركان إلى غرفة العمليات العسكرية في وزارة الدفاع من أجل متابعة تقدم المدرعات العراقية. لكن المسألة كانت غاية في الدقة والصعوبة لأن معظم ضباط الجيش كانوا في اجازة خارج البلاد، بينما ترك أغلبية الذين ظلّوا في الكويت لباسهم العسكري في ثكناتهم. طلاّب الضباط هم الذين نظموا حماية القصر بقصد اعاقة تقدم مدرعات الحرس الجمهوري العراقي. بنفس الوقت قامت سبع طائرات عمودية عراقية، أعيد

طلاؤها باللون الكويتي، بقصف قصر الأمير لحمل الناس على الاعتقاد بوجود حركة تمرد داخل الجيش الكويتي.

لقد تمّ اسقاط أربع طائرات منها من قبل سلاح الطيران الكويتي. كما قُتل عدد من جنود الإمارة اثناء دفاعهم الذي يشهد عليه حطام المدرعات العراقية. ان طائرات «سكاي هوك» الكويتية استخدمت جزءاً من طريق السيارات كمهبط، من أجل تجنب المدرّج الذي زرعته طائرات ميغ - ٢٣ بالحفر. وقام عدد من طياري الامارة بهجوم مضاد بالطائرات العمودية (هيلوكبتر) من طراز «غزال» على القصر كي يستطيع الامير النجاة. مع ذلك، سرعان ما اضطر الطيارون الكويتيون إلى اللجوء إلى المملكة العربية السعودية بعد تهديم المطار العسكري الكويتي اثناء ذلك حاول جميع الوزراء، المتواجدين في وزارة الدفاع، اخطار عائلاتهم واخطار كبار الموظفين.

في الساعة الثالثة صباحاً تمّ ايقاظ سليمان مطاوع وزير التخطيط، وعبدالله بشارة الأمين العام لمجلس تعاون الخليج. وفي الساعة الثالثة والنصف نجح الأمير وولي العهد في مغادرة قصر دسمان على متن سيارتي مرسيدس مصفّحتين ولجآ إلى العربية السعودية. بعد عشرين دقيقة حطت الطائرات العمودية العراقية داخل حرم القصر ذاته. وبدأ سبعة من مجموعة «الكوماندوس» البحث عن الأمير جابر. لكنهم لم يظفروا سوى بالشيخ فهد، أخ الأمير، فقتلوه، وسلاحه بيده، عندما كان يحاول الهرب على متن طائرة عمودية تابعة للجيش الكويتي؛ وكان هذا «التعويض» هشاً بالنسبة للعراقيين. كان الشيخ فهد رئيساً للجنة الأولمبية الكويتية وقد أصبح مشهوراً بعد أن اوقف مباراة لكرة القدم بين الكويت وفرنسا أثناء مباريات كأس العالم في اسبانيا عام ١٩٨٢. أما وزير الصحة فلقد وصل إلى السعودية وراء مقود سيارة اسعاف. ولم يتعرّف عليه الجنود العراقيون عندما اوقفوه على أحد حواجزهم.

ان رؤساء الأجهزة الخاصة العراقية ارسلوا الى بغداد علماً بانتصارهم بعد مقتل أخ الأمير، بعد أن فشلوا بقتل الأمير نفسه، مما أثار غضباً شديداً لدى صدّام حسين. وقد تمّ بعد يومين فقط إعدام عدد من أعضاء مجموعة الكوماندوس من قبل ضباط الحرس الجمهوري تنفيذاً لأوامر بغداد. أمّا المسؤولون السياسيون البعثيون الذي رافقوا المنفذين لمراقبتهم فقد جرت ترقيتهم إلى مصاف: «وزراء في الحكومة المؤقتة للكويت الحرّة»؛ هؤلاء الوزراء تمّ تعيينهم من قبل سيد بغداد. من بين هؤلاء

المنتخبين السعداء نذكر النقيب وليد سعود محمد عبدالله والمقدّم فؤاد حسين أحمد، والمقدم سعد الحدب، والمقدم ناصر منصور المنديل، والمقدم يعقوب محمود. هكذا وجد مجموعة من المجهولين جاؤوا للقبض على أمير أو لقتله أنفسهم وزراء في حكومة ـ العوبة! فرئيسهم، رئيس الوزراء العابر، العقيد علاء حسين علي (الذي اختفى بطريقة مبهمة منذ نهاية شهراغسطس ـ آب) سرعان ما كشفت اجهزة الاستخبارات الفرنسية هويته. لقد تمّ تقديمه على انه ضابط كويتي عالي المرتبة، لكنه في الواقع، امضى كل خدمته في قيادة الاركان العراقية. فبعد اقامته لفترة في ليبيا وفي دمشق، التحق عام ١٩٧٤ بدورة تعليمية في المدرسة العسكرية في باريس.ومنذ عام ١٩٨٦، عمل في «ارشيف» وزارة الدفاع في بغداد قبل أن يتم تكليفه بمهمات خاصة من قبل وزير التصنيع والصناعات الحربية حسين كامل، صهر صدّام حسين.

في السابع من شهر اغسطس ـ آب استقبله الرئيس العراقي في بغداد وأعاب عليه فشله في ابادة أسرة آل الصبّاح الذين يرتبط اسمهم بمصائر الكويت منذ أكثر من مائتي سنة. وكان الأمير قد نجا في ٢٥ مايو ـ أيار عام ١٩٨٥، من محاولة اغتيال دبرّتها جماعة الجهاد الاسلامي. في ذلك اليوم انقضت سيارة مليئة بالمتفجرات على سيارته «الليموزين». وخرج سليماً من العملية باعجوبة. لقد كان الشيخ جابر في ذلك الوقت أحد مصادر تمويل العراق في حربه الغريبة ضد ايران.. بعد خمس سنوات، اصبحت بلاده، «الكويت الخالد الذي تهب عليه الريح الرملية منذ آلاف السنين»، محطّ اطماع صدام حسين، حليف الأمس.

ان غزو الكويت يجد مبرراته، بالنسبة لسيد بغداد، في الخلاف الحدودي الذي بدأ في سني العشرينات، أي بعد قليل من تأسيس العراق.

في عام ١٩١٣، كانت بريطانيا العظمى قلقة من علاقات الصداقة التي تربط بين الامبراطورية العثمانية المنحدرة والمانيا. فما كان من انكلترا إلا أن بدأت بالتفاوض للوصول إلى اتفاق مع تركيا من أجل رسم الحدود التركية على الخليج العربي. هذا الاتفاق عيّن حدود الكويت الحديثة. لكن الحرب العالمية الأولى اندلعت قبل التصديق على اتفاقية ١٩١٣، ووجد البريطانيون والاتراك انفسهم في معسكرين متنافسين.

عند نهاية الحرب، جرى اقتسام الامبراطورية العثمانية حسب معاهدة ڤرساي. وجرى جمع المقاطعات العثمانية المتمثلة في بغداد والموصل والبصرة تحت الحماية

البريطانية وشكّلت المملكة الجديدة للعراق.

وفي شهر ابريل - نيسان ١٩٢١، قرر ونستون تشرشل، أثناء مؤتمر القاهرة، أن الأمير الهاشمي فيصل سيحكم العراق الذي سيكون نظام الحكم فيه ملكياً دستورياً، وجرى تتويج فيصل ملكاً بالاستفتاء في ٢٣ اغسطس - آب ١٩٢١.

لقد انتهى الانتداب البريطاني عام ١٩٢٢ وحلّ مكانه معاهدة صداقة.

بعد شهر، بدأت المفاوضات من أجل رسم الحدود الرسمية للعراق. وكان من بين المفاوضين صبيح باي وزير المواصلات العراقي وملك السعودية ابن سعود والسيد «بيرسي كوكس» ممثلاً للكويت.

كانت المناقشات مريرة. وعرض «كوكس» أن يتخلى لكلٍ من العراق والسعودية عن جزء من الكويت، بغية الحفاظ على السلام.

لكن هذا الاتفاق لم يتم اقراره أبداً لحسن حظ الكويتيين. ففي الواقع جاء رسم الحدود الكويتية، بواسطة الاتفاق الرسمي الذي تمّ توقيعه بعد عشر سنوات، مطابقاً تماماً لما جاء في الاتفاق بين بريطانيا العظمى وتركيا.

مع ذلك، يؤكد القادة العراقيون، منذ سني الثلاثينات، أنه ينبغي ضم شمال الكويت للعراق باعتباره دولة مركزية في الاتحاد العربي. ان العراق الذي لا يمتلك أي منفذ على البحر، كان يأمل أن يضع يده على جزيرة «وربه» وكذلك على جزء من شاطىء جزيرة «بوبيان»؛ الجزيرتين الكويتيتين. بالمقابل قدّم العراقيون «الوعود بتأمين المياه الصالحة للشرب» والتي تحتاجها الكويت حاجة ماسة.

في عام ١٩٦١، أي في العام الذي منحت فيه بريطانيا الاستقلال للكويت، أعلن العراق أنه سيضم مجمل الكويت. لكنه لم ينجح في ذلك.

وفي عام ١٩٦٩، تحول العراق نحو الكويت من جديد. واجتاحت قواته الأراضي الكويتية كي تحميها، رسمياً، من هجوم ايراني محتمل، ثم رفضت مغادرتها.

في عام ١٩٧٣، وبعد تبادل الطلقات النارية، أعلنت الكويت حالة الطوارىء. وكانت الامارة الصغيرة مدعومة آنذاك من دول الخليج، ومن الجامعة العربية وكذلك من بعض الدول العربية الأخرى ومن الاسطول السوفييتي، وهذا ما سمح لها بارغام العراق على التراجع. مع ذلك، لم يجر الانسحاب الكامل للقوات العراقية إلا في شهر يوليو - تموز من عام ١٩٧٧.

في نهاية سني السبعينات شهدت الثورة الايرانية نهاية الاستقرار في المنطقة.

وكانت الكويت تعارض الشاه الذي كان يريد أن يجعل من نفسه حارس المصالح الأجنبية في الخليج، لكنها كانت تقبل بسلطته باعتبار كونه الوحيد القادر على تحييد جيرانها الأكثر قوة وعلى لعب دور الوسيط.

بالمقابل، عندما وصل آية الله الخميني إلى السلطة اتهم الكويت وبقية بلدان الخليج بانها تمثل «الإسلام الأميركي».

لقد تغيرت سياسة الكويت حيال ايران بينما ازداد في الداخل التحرك الشيعي بتأثير الثورة الإيرانية.

لم تكن الكويت بالتأكيد قادرة على مجابهة جار كبير كايران. ولذلك قررت تحييد علاقاتها مع النظام الايراني الجديد اعتباراً من شهر يوليو ـ تموز ١٩٧٩.

ومع اعلان الحرب بين العراق وايران شهدت العلاقات الكويتية ـ الايرانية انعطافاً جديداً. فمع وجود جبهة قتال تبعد بأقل من ٢٥٠ كيلومتر عن مدينة الكويت ووجود ايران على بعد أقل من ١٥ كيلومتر من الحدود بعد احتلالها لشبه جزيرة الفاو، قررت الكويت دعم العراق.

لقد قدمت الكويت، وكذلك العربية السعودية، للعراق مجمل الدخل الناتج من الحقول النفطية الواقعة في منطقة شرق الكويت والتي تنتج (٣٠٠,٠٠٠) برميل في اليوم (أي ما يعادل ١٥ مليار دولار).

كذلك سمحت الكويت بمرور الأعتدة الموجهة للعراق عبر مرافئها، مما يجعلها بمنجاة من الحصار الإيراني. وسمحت الكويت أيضاً للعراق باستخدام مجالها الجوي.

في تلك الأثناء أطلق صدام حسين على الكويتيين تسمية: «اخوتنا المتميزون» اعترافاً بمساعدتهم في الحرب بين العراق وايران.

وعلى سبيل الشكر خصّ صدام حسين بالمرسوم الرئاسي رقم ٤٧٢ بتاريخ ٢٣ سبتمبر ـ أيلول ١٩٨٩ سمو الأمير الشيخ جابر الصباح، أمير الكويت، بأفضل الأوسمة. وقد جاء في نص المرسوم ما مفاده:

«لكم كان تأثرنا كبيراً، ومن صميم أنفسنا، بدعم اخينا جابر الصباح وشعبه الشقيق ايضاً، والذي كان من بين فضائله تشجيع حل للنزاع يصب في اتجاه مصلحة الأمة وانتصارها.

ان الكويت، المخلصة لآمالنا الكبرى، مشت قدماً على طريق الاحترام الحازم للمبادىء والسياسات التي يؤدي عدم تطبيقها إلى قرع ناقوس الخطر بالنسبة للأمة

العربية كلها. واعترافاً منا وإقراراً بالجميل حيال الموقف المشرِّف للكويت، واعتماداً على الفقرة ١ من البند ٥ للقانون ٩٥ حول الأوسمة والميداليات والصادر عام ١٩٨٢، فقد تقرر ما يلي: يمنح صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت الوسام المدني الأعلى لـ« الرافدين »، من الدرجة الأولى ».

لكن هذه الكلمات المليئة بالاعتزاز كانت تخفي وراءها طموحاً اقليمياً لا حد له ومعززاً بواقع مرّ. ويرى أحد المؤرخين العراقيين أن صدام حسين أعاب دائماً على السلالات الحاكمة في الخليج عدم اشراكه في مجلس تعاون الخليج في الوقت الذي قدَّم فيه، من ناحيته: « تضحيات لوقف تقدم السلفية الايرانية » ـ ويقول أحد اقربائه أنه أقسم منذ نهاية الحرب مع ايران على « تقييد الشيوخ غير المحبوبين من شعوبهم والفاسقين وجلبهم إلى بغداد ». وقد كرر صدام حسين لأحد زائريه من الفرنسيين عام ١٩٨٩ قوله: « بدوني ربما كان جميع الأمراء الكبار سجناء في طهران ». ويتذكر رئيس الوزراء الكويتي محادثة له مع الرئيس العراقي بعد وقف اطلاق النار بين ايران والعراق؛ إذ عندما جاء الشيخ سعد لتهنئة العراقيين اقترح تقديم عون مالي جديد لبغداد، قال صدّام حسين بلهجة متغطرسة: « أين أمير الكويت إذن؟ انني لا أرى سوى ظله. ولا بد أنه سيأتي اليوم الذي يتحدث فيه معي حول مسائل الحدود بين بلدينا. قل للأمير أن الحدود الحقيقية للكويت توجد في بغداد وان حدود العراق توجد في أقصى مناطق الكويت ».

لم ينسَ رئيس وزراء الكويت هذه « التهديدات » الحاذقة. وذكّر بها الأمير جابر في ١٧ يوليو ـ تموز ١٩٩٠. لقد أرسل صدّام حسين للكويتيين رسالة شديدة الوضوح يطالب فيها باعادة ٢,٥ مليار دولار كتعويض عن النفط المسروق من حقل الرميلة على الحدود بين البلدين؛ وتقديم دفعة مالية بقيمة ١٠ مليار دولار على الأقل والمطالبة بجزيرة بوبيان.

في ١٨ يوليو ـ تموز انعقد في مدينة الكويت اجتماع هام لمجلس الوزراء ليبحث في جدول أعماله: « التهديدات الضمنية للعراق » والمتضمنة في مذكرة تطالب بتعويضات عن النفط « المسروق » من قبل الكويت. وفي الواقع كان وزير الخارجية العراقي طارق عزيز قد سلّم مذكرة للأمين العام للجامعة العربية بتاريخ ١٦ يوليو ـ تموز ١٩٩٠. وبعد المطالبة بتعويضات مالية متنوعة وبإلغاء الديون المترتبة على العراق، وبعد عرض خطة عربية حقيقية لتمويل العراق على غرار مشروع مارشال

من أجل تعويض قسم من الخسائر التي تكبدها العراق أثناء الحرب مع ايران، عرض وزير خارجية صدام حسين هذه الحقائق المرَّة على: «ضمير كل عربي مخلص وبالدرجة الأولى على الشعب الكويتي الشقيق كي يستطيع تقدير ما عانيناه من آلام وما تعرضنا له من ظلم».

كذلك أشار البيان إلى «مؤامرة صهيونية» امبريالية انطلاقاً من الكويت وضد الأمة العربية.

في تونس، كان جميع الدبلوماسيين العاملين في الجامعة العربية قلقين، لا سيما وأن طارق عزيز أخبرهم بأمرٍ يفكر به صدام حسين مفاده: «لدينا نحن، العراقيين، الدليل على أن عدداً من الدول تريد التآمر ضدنا لكن عليكم أن تدركوا أن العراق لن يركع أبداً ضد أحد، وان نساءنا لن يصبحن يوماً عاهرات وأن أطفالنا لن يُحرموا من غذائهم وارثهم».

اثناء اجتماع مجلس الوزراء الكويتي، تحدث جميع أعضاء الحكومة الواحد بعد الآخر. لقد شرح وزير المالية أن العراق يريد أن يبرر موقفه بالقاء سياسته المالية على الدول أعضاء مجلس تعاون الخليج. وقال: «ان العراق سوف يتابع تصعيد حملته الكلامية، حتى بعد اجتماع الاوبيك المرتقب في جنيف. وعلينا أن نبحث عن حل مع حلفائنا في مجلس التعاون». أمّا وزير العلاقات مع البرلمان فقد حذّر زملاءه قائلاً: «يريد صدام حسين أن يأخذ المال منّا، هذه ليست سوى البداية، ونحن في الموقع المحزن للذئب والحمل». كما عبّر وزير الخارجية عن مخاوفه بالقول: «هناك احتمال كبير بحدوث اعتداء من قبل العراق الذي يمكن أن يقوم بعملية عسكرية».

كاجراء احترازي، وُضعت القوات المسلّحة الكويتية سراً في حالة تأهب، خاصة الكتيبة ٣٥ المدرّعة. وهناك الكثير من المعلومات اشارت إلى نقص في «الاستخبار» أو في تحليل المعلومات الخاصة بغزو الكويت في ٢ اغسطس - آب. في الواقع، قدّمت تقارير المخابرات المركزية الأميركية والأجهزة السرية لوزارة الدفاع في واشنطن تفاصيل دقيقة جداً عن التعبئة العراقية؛ وذلك منذ ٢٤ يوليو - تموز. وكانت المذكرات اليومية الموجهة لمجلس الأمن القومي تمحّص كل المعلومات الضرورية في زمن حقيقي حول حركات القوات ونشاط الطيران والاتصالات الاذاعية - الكهربائية. وفي مذكرة بتاريخ ١٦ يوليو - تموز أشير بشكل دقيق إلى أن القوات العراقية تحضّر هجوماً كبيراً على الكويت.

إن جهاز الاستخبارات الاسرائيلية «الموساد»، والأجهزة السعودية، «انتبهوا» للأمر باخطار من مصادرهم الخاصة. كما ان الاجهزة السرية الكويتية كانت قد أنذرت منذ شهر أبريل - نيسان بخطة غزو عراقي، بفضل أحد ضباطها. وكان هذا الأخير، العقيد سعيد مطر يعمل تحت غطاء مصلحة جوازات السفر في القنصلية الكويتية في البصرة. وقد اخبر رؤساءه بشكل دقيق جداً عن سير التعبئة العراقية. بل إنه وجّه بتاريخ ٢٥ يوليو - تموز رسالة بالشيفرة إلى رئاسة الأركان الكويتية يشير فيها إلى التاريخ الدقيق للغزو، أي ٢ أغسطس - آب ١٩٩٠. لقد كان للعقيد مصادره حتى على مستوى الحرس الجمهوري العراقي ذاته. وكان يعمل في جنوب العراق منذ شهر يونيو - تموز ١٩٨٩؛ وجرى اعتقاله من قبل الأجهزة العراقية في الثالث من اغسطس - آب في البصرة وأفرج عنه في ١٥ من نفس الشهر وسُمح له بالعودة إلى الكويت المحتلة.

لقد اكتشف العراقيون دوره بدقة عندما درسوا أرشيف أجهزة الاستخبارات الكويتية بعد الاستيلاء عليه، فالقوا القبض على العقيد مرّة ثانية بتاريخ ٢٥ اكتوبر - تشرين أول ١٩٩٠ وارسلوه إلى بغداد في ٢٧ من نفس الشهر للتحقيق. وتمّ سجنه في البصرة منذ شهر ديسمبر - كانون أول بعد الحكم عليه بالموت وتعذيبه، وربما استطاع الهرب أثناء حدوث الاضطرابات التي نظّمها الشيعة بعد هزيمة صدام حسين في ٧ مارس - آذار. وقد يكون الآن سليماً معافى في الكويت.

في ٢٣ فبراير - شباط ١٩٩٠ كان صدام حسين في عمّان مع عدة رؤساء دول عرب، وقد هدد آنذاك السعودية والكويت قائلاً: «اذا لم يلغوا الديون العراقية سريعاً، فإنني سأتخذ اجراءات عسكرية». وكان قد وصل الى اجتماع قمة مجلس التعاون العربي هذا بعد أن أهدى لمضيفيه الأردنيين ٤٠ سيارة، كما قدّم للملك حسين سيارة «رولز رايس» فاخرة.

في فرنسا، قام الأمين العام للدفاع الوطني، في نهاية عام ١٩٨٩، باجراء دراسة مكرّسة لعودة «هيمنة عراقية ممكنة للعراق على المنطقة». وفي خاتمة هذه «الدراسة توقع أحد خبراء الحكومة أن امارة الكويت سيكون من الصعب عليها مقاومة المطالب الحدودية إذا أبدى صدام حسين رغبة في ذلك. كما إن الادارة العامة للمخابرات الخارجية الفرنسية ووزارة الخارجية قدّما تحليلات متشائمة في نفس الاتجاه. بل إن «كلود زلبرزاهن»، مسؤول الاستخبارات الفرنسي، شكّل منذ ١٦ يوليو - تموز خليّة

للأزمة، وفي ٢ اكتوبر - تشرين أول ١٩٩٠، وجّه أحد أعضاء لجنة الدفاع الوطني سؤالاً حول نشاط أجهزة الاستخبارات الفرنسية قبل حدوث الاعتداء العراقي على الكويت. فأجاب جان بيير شوفنمان، وزير الدفاع الفرنسي آنذاك على هذا السؤال الموجّه له بالقول: «لقد كنا نعرف، وقد ارسلت الجنرال سولينيه، الرئيس السابق لهيئة أركان الجيوش، في مهمة إلى الكويت سلّم بموجبها تقريراً لم يُؤخذ به».

لم يكن من دانييل كوان، نائب منطقة الڤار الفرنسية وعضو لجنة الدفاع الوطني، إلا أن وجّه رسالة لوزير الدفاع يطلب فيها الاستماع إلى شهادة الجنرال سولينيه. هذا الأخير كان رئيساً سابقاً لهيئة الأركان الخاصة برئيس الجمهورية ثم رئيساً لهيئة أركان الجيوش (وهو اليوم مستشار في محكمة الحسابات)؛ كما كان مكلّفاً بمهمة لدى وزير الدفاع السابق. وقد تلقى النائب من جان بيير شوفنمان رداً أشار فيه قائلاً على أن «المهمة التي أوكلت للجنرال سولنييه كانت، في الواقع، بناءً على طلب السلطات الكويتية».

هل خُدع جهاز «الموساد» أيضاً؟. كان صدّام حسين اقترح قبل عام لقاءً مع وزيرالدفاع الاسرائيلي اسحق رابين. وافق هذا الأخير على اللقاء، لكن العراقيين تخلّوا عن الفكرة في النهاية اثر الرفض الاسرائيلي لمشاركة الفلسطينيين في الاجتماعات. كان العراق، في تلك الفترة، يأمل الحصول على تأكيدات بأن الجيش الاسرائيلي لن يهاجم مصانع أسلحته الكيماوية؛ وقد اعتبرت السلطات العراقية عندئذ أن القائد العمّالي اسحق رابين، وهو اليوم في المعارضة، الرجل القوي في الحكومة الاسرائيلية الذي يتوجب بل يمكن التفاوض معه. لقد تمّ الاتفاق على موعدين بواسطة تاجر نفط أميركي من أصل عربي، لكن الاتصالات توقفت اثر تهديدات صدام حسين في شهر ابريل - نيسان ١٩٩٠ بأنه «يريد تدمير نصف اسرائيل». في الواقع، كان حاكم العراق يعرف ما يقوم بعمله. لقد موّه غزوه القادم للكويت بعملية تضليل اعلامي موجهة (تحت غطاء التحدي القاتل حيال اسرائيل) لصرف الأنظار من أجل تعبئة الرأي العام العربي الذي سيتم استخدامه كتبرير لسياسة التسلح. ولم يتوقف الرئيس العراقي عن تحدي اسرائيل في مواجهة العالم العربي، وقد قال: «انني أقسم بالله أن أجعل النار تحرق نصف اسرائيل اذا حاولت هذه أن تقوم بأي عمل ضد العراق». هذا الأمر سمح له بأن يبلور حوله مقدّماً الرأي العام العربي إذ بدا كقائد لا منازع له على الصعيد السياسي كما على الصعيد

العسكري. في نهاية شهر مايو ـ أيار حصل رئيس الدولة العراقية على انعقاد قمة عربية في بغداد حضرته عدة قوى اقليمية، مثل السعودية، وهي تحاذر منه. وبعد شهرين بدأ غزو الكويت.

ان صدام حسين اخفى نواياه أيضاً عبر رجوعه عن الكلام الذي كان قد قاله لعدة رؤساء عرب مثل الرئيس المصري حسني مبارك. كان هذا الأخير قد أرسل رئيس مكتبه اسامه الباز إلى بغداد. والباز هو خريج جامعة هارفارد وصديق الملك فهد ورجل المهمات الدقيقة. ان صدام حسين، اثناء حديثه عن مفاوضات ممكنة، اطلع موفد الرئيس المصري على بعض الصور وقال: «بناءً على تعليماتي ذهب ولدي عدي في منتصف شهر يوليو ـ تموز إلى منطقة الحدود بين العراق وايران كي يلتقط هذه الصور». وتابع يقول: «في عام ١٩٦١، بعد الاحداث الأولى التي وقعت بين الكويت والعراق، رسمت الجامعة العربية بين بلدينا خطاً للمراقبة واقامت منطقة محايدة على عمق اثني عشر كيلومتراً على جانبي ذلك الخط بغية تجنب المشاكل الحدودية. انظر جيداً هذه الصور، وقل ذلك للرئيس المصري: على الجانب العراقي لا يوجد شيء، وعلى الجانب الكويتي هناك منشآت نفطية ووحدات عسكرية. ففي الوقت الذي كنا نخوض فيه الحرب من أجل كل العرب، احتل الكويتيون جزءاً من أرضنا». ثم هدأ الزعيم العراقي وقال لموفد الرئيس المصري: «المجال مفتوح».

لقد أخذ الرئيس مبارك على عاتقه المرحلة اللاحقة وتحادث مباشرة مع صدام حسين الذي طمأنه بالقول: «طالما أنه هناك مفاوضات بين العراق والكويت، سوف لن استخدم القوة العسكرية، ولن أتدخل إلا عندما ينضب كل أمل في المفاوضات، لكن لا تقل ذلك، يا اخي مبارك، للكويتيين، لا تعطيهم أملاً غير نافع، ان هذا سيجعلهم متغطرسين». الرئيس المصري نقل هذا الكلام لأمير الكويت: «تأكّد انني سمعت من فم صدام حسين أنه لن يرسل قواته وأنه لا يفكر بالهجوم على الكويت». مع ذلك نسي أن يدقق قوله باضافة «طالما انه هناك مفاوضات».

اليوم ينتاب الرئيس المصري الشعور بأن فخاً قد نُصب له وأنه كان اداة بيد العراقيين من أجل تهدئة المخاوف الكويتية والدولية، مما سمح لبغداد القيام بغزو مفاجيء. بل ذهب به الحد إلى القول أمام مقربين منه: «ان صدام حسين استسلم لحب الذهب الكامن وراء كل الكوارث».

من جهته، أكّد صدّام حسين فيما بعد أنه لم يكن يبحث في الواقع عن خداع

الرئيس المصري. وفي مقال كتبه بنفسه ونشر باسم آخر يوم السبت ١١ اغسطس - آب ١٩٩٠ في الجريدة الناطقة بلسان حزب البعث العراقي، أجاب ناطق رسمي مزعوم على الاتهامات بالغدر التي يوجهها الرئيس مبارك من القاهرة. صرّح الناطق: «ان الرئيس صدام حسين كان محدّداً دائماً ومخلصاً في عرضه للموقف، وقد تعرّض مع نظيره المصري لوضع الأمة مركزاً على الثروات العربية المهدورة وعلى الجوع في مصر وفي العالم العربي وكذلك على الوسائل التي يجب الأخذ بها من أجل اعادة الأمور إلى نصابها الصحيح». كل هذه الأفكار تعني، حسب المذكرة، حالة الألم والذعر اللذين يستدعيهما سلوك قارون الكويت (هكذا كان صدام يسمّي الأمير جابر) ودوره المخرِّب. لقد تعرَّض الرئيس صدام حسين للموضوع مرتين، مرّة اثناء جلسة خاصة في الطابق العلوي من مقر نسر القادسية، ومرّة أخرى بحضور وفدي البلدين. وقد سردت المذكرة التي كتبها الرئيس صدام حسين الحوار كالتالي: «قل لي، يا أخي، فقارون وحلفاؤه مذعورون من القوات الكثيرة على الحدود»؛ بدون شك كان يريد - أي الرئيس المصري - معرفة إذا كان الأمر يتعلق بمشروع عمل عسكري. وقد اجاب الرئيس صدام حسين حرفياً بما يلي: «يا أخي، بالرغم من عدد الاسلحة وطبيعتها وتسميتها، فإنني اعدك كأخ بأن لا استخدم القوة قبل الاجتماع المرتقب في السعودية بين عزت ابراهيم، رئيس مجلس قيادة الثورة، ورئيس مجلس وزراء قارون، سعد العبدالله».

وتابعت المذكرة (المقال): «نلاحظ أنه لم يتم استخدام القوة إلا بعد انعقاد الاجتماع، ولم يكن هناك أي التزام بعدم استخدام القوة بشكل مطلق».

من الواضح أن صدّام حسين أشار على الرئيس المصري بعدم تهدئة خواطر الكويتيين كي يبحثوا عن حلول حقيقية من جهة، والحّ، من جهة أخرى، لدى حسني مبارك بأن الالتزام بعدم استخدام القوة لا يخص الفترة اللاحقة لاجتماع جدّة.

وتابعت المذكرة: «هذه هي الحقيقة. فالقريب والبعيد يعرفون أن الرئيس صدام حسين ليس من النوع الذي يلقي كلامه في الهواء، أو الذي ينقص أقواله الدقة أو الذي ينكث بوعوده. ولدينا هنا الدليل على الصرامة. اننا وضحنا الأمور كما تتطلب منا خدمة الحقيقة واحترام الرأي العام».

ان الرئيس المصري ادهشته «وقاحة» صدام حسين عند قراءته لذلك المقال المنشور في الجريدة «الرسمية» العراقية، وقال متعجباً: «اعرف أنه لم يكن هناك

متسع لاعتقاد عكس ما يقول؛ لكن أن تصل الأمور إلى هذا الحد ،فإن ذلك يقارب الهذيان! ».

في ٢٥ يوليو - تموز، أي قبل اسبوع من غزو الكويت، توجهت السيدة ابريل غلاسبي، السفيرة الأميركية في بغداد، إلى قصر الرئاسة لاجراء مقابلة طويلة مع صدام حسين. وقالت له السفيرة: «نعرف انكم نشرتم قواتكم بأعداد كبيرة في جنوب البلاد. بالطبع هذا أمر لا يعنينا، لكن بما أن عملية الانتشار هذه جاءت بعد خطابكم بمناسبة العيد الوطني العراقي، فإن لدينا الأسباب الداعية للقلق». ان السفيرة الأميركية، كي لا تصدم مباشرة الرئيس العراقي، طمأنته على وجود الارادة لدى البيت الأبيض للمحافظة على العلاقات الطيبة مع العراق وشرحت له بأنها تلقت التعليمات من أجل معرفة النوايا العراقية بروح الصداقة وليس بروح المواجهة. فانطلق صدام حسين عندئذ بسرد جملٍ طويلة كي يحاول أن يبين لها بأن السياسة الكويتية في مجال أسعار النفط تشكل بنظره اعتداءً عسكرياً حقيقياً ضد العراق. والحّ مع ذلك على اللقاء المرتقب بين ممثلي البلدين في ٣١ يوليو - تموز في السعودية. وقال: «طالما أننا نلتقي، ونرى بعضنا البعض، هناك أمل، ولن يحدث شيء» ثم أضاف: «إذا كنّا غير قادرين على ايجاد حل، فلا تنتظروا أن يقبل العراق بالموت».

وتابع ايضاً: «اذا استخدتم الضغط، فسوف نستخدم القوة. اننا لا نستطيع الذهاب من ناحيتنا حتى الولايات المتحدة، لكن العرب سوف يجدون الوسائل للوصول لكم».

امام هذه التهديدات، لم تجب السيدة غلاسبي «انها لم ترد اثارته»، بل على العكس شرحت للرئيس العراقي أن «واشنطن ترغب في المحافظة على العلاقات مع العراق». ثم اضافت السيدة غلاسبي قولها: «ليس لدينا رأي حول النزاعات بين العرب كما في النزاع الذي تتواجهون فيه مع الكويت بخصوص الحدود».

هل فسّر الرئيس العراقي في تلك اللحظة بشكل خاطىء الأفكار التي طرحتها سفيرة الولايات المتحدة الأميركية، معتقداً بأن بلداً ديمقراطياً لن يجرؤ أبداً على الشروع بحرب بعد فترة انفراج العلاقات بين الشرق والغرب؟ هناك امرٌ مؤكد، هو ان السيدة غلاسبي قد تأكدت عند نهاية اللقاء من النوايا الحقيقية للعراق، بالرغم من انها لم تسجل سوى بعض الملاحظات. أما الرئيس العراقي الذي قام بتسجيل المحادثة كاملة، بدون علم سفيرة الولايات المتحدة، فقد حضّر منها نسخة بالعربية

وبالانكليزية ووزّعها فيما بعد بشكل كبير بواسطة اصدقائه بغية التشكيك بمصداقية السياسة الدبلوماسية للولايات المتحدة الأميركية.

بنفس الوقت تحدث صدام حسين بكل هدوء مع الملك السعودي فهد والملك حسين والرئيس اليمني علي عبدالله صالح. وقد نصح هذا الأخير بأن «يأخذ طائرة عمودية - هيلوكبتر - ويتأكد بنفسه أنه لا يحشد القوات على الحدود العراقية - الكويتية».

في ٢٨ يوليو - تموز قدمَ رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات إلى بغداد. فكلّفه الرئيس العراقي بمهمة شديدة الأهمية وهي الذهاب إلى الكويت ومقابلة الأميركي يطلب منه تسوية مسائل الحدود. وقال له: «فليعطني العشرة مليار دولار التي اطالب بها مقابل استخدام آبار نفط الرميلة وسوف أقلّص بالتدريج وجود قواتي على الحدود».

ان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وبالرغم من تعوده على المواقف الصعبة بقي صامتاً و«لم ينبس ببت شفة». لكن بدأ النقاش مع ذلك. وتواجد الكويتيون والعراقيون في جدة بتاريخ ٣١ يوليو - تموز لاجتماع الفرصة الأخيرة. كان رئيس الوزراء الكويتي، الشيخ سعد برفقة وزيري الخارجية والعدل. وكان الموفدون الرسميون لبغداد هم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت ابراهيم، وسعدون حمادي، نائب رئيس الوزراء، وعلي حسن المجيد، ابن عم صدام حسين، والمكلّف في الواقع بمراقبة محادثات الوفد العراقي. وسوف نجد علي حسن المجيد فيما بعد حاكماً للكويت، ثم سيعينه صدام حسين عند نهاية حرب الخليج، وزيراً للداخلية من أجل اعادة النظام لبلاد وقعت فريسة للانقسامات والخزلان.

هذا الاجتماع سبقه تبادل الرسائل بين ملك السعودية فهد والشيخ جابر أمير الكويت.

عشية الاجتماع أوفد الرئيس الايراني رفسنجاني أحد الدبلوماسيين سراً إلى السعودية من أجل أن يطالب الكويتيين «بأكبر قدر من الحزم، خاصة فيما يتعلق بالمطلب العراقي حول جزيرتي وربه وبوبيان اللتين تشكلان المنفذ الذي تطالب به العراق على البحر».

بعد ساعة وخمسين دقيقة من افتتاح الاجتماع، كان الطريق مسدوداً بشكل كامل. وحاول الملك فهد أن يرطب الأجواء خلال حفل عشاء تجنب فيه بعناية كبيرة

ان يشير إلى الخلافات بين العراق والكويت وتحدث لضيوفه عن مشاكل انجاب الخيول العربية الأصيلة!

عند نهاية المأدبة وجّه عزت ابراهيم، الذي كان يعاني من ألم القرحة في معدته، التهديد مباشرة لرئيس الوزراء الكويتي، إذ قال:

- اننا نعرف كيف نحصل منكم ومن اصدقائكم السعوديين على المال المستحق لنا والذي نحن بحاجة إليه.

فأجاب الشيخ سعد:

- لا تهددوننا، فللكويت أصدقاء أقوياء جداً.

- لنا نحن أيضاً حلفاء، وسوف تكونون مرغمين على دفع كل المال الذي لنا بذمتكم.

في الأول من شهر اغسطس - آب غادر الوفدان السعودية، بينما قام ريشارد كير، نائب مدير الاستخبارات المركزية الأميركية، بإخطار البيت الأبيض ووزارة الخارجية، في الساعة العاشرة صباحاً في واشنطن، بأن «الهجوم العراقي أصبح وشيك الوقوع». ورأى بأنه سيتم خلال الساعات التالية.

لقد اقترح صدام حسين من ملجأه المحصّن ان يتم التدخل المسلّح «بأقصر أجل ممكن»، وكان يحيط به مسؤولو مجلس الثورة العراقي والقادة العسكريون. ودعمه في اقتراحه بشكل خاص وبدان ابراهيم رئيس الأمن العسكري، والأكثر تشدداً من صدام.

كان طارق عزيز، وزير الخارجية، وحسين كامل صهر صدام حسين ووزير التصنيع الحربي، الشخصيتين الأكثر تحفظاً. لقد طلبا فترة تأمل «من أجل ارغام الكويتيين على الاستجابة للمطالب العراقية».

ان الاجهزة السرية العراقية، كي تبرر فيما بعد غزو الكويت، بثّت اشاعة مفادها أنه في ٣١ يوليو - تموز جرى لقاء بين وزير الدفاع الكويتي والجنرال نورمان شوارزكوف. وقد اعطى هذا الأخير لوزير الدفاع الكويتي معلومات منذرة بالخطر عن تمركز القوات العراقية في الكويت واقترح عليه أن يرسل خلال فترة قصيرة جداً قوة جوية أميركية للكويت. وربما احتفظ الكويتيون باجابتهم حول الموضوع خشية أن يقدموا لصدام حسين حجة اضافية.

ان سيد بغداد الذي تمّ ابلاغه بهذه المحادثات الكويتية - الأميركية، والذي اقتنع

بأنه سيتم في وقت سريع جداً تجسيد ما جاء في تلك المفاوضات، قرر الاستعجال بالغزو العسكري للامارة!

لقد اشاع نفر من اصحاب النفوذ الموالين لبغداد الخبر التالي: «اذا كان صدام حسين قد قرر ارسال حملته التأديبية للكويت، فهذا لأنه كان على اطلاع بأنهم يريدون قتله».

كما روّجت الاجهزة السرية العراقية لتداول وثيقة صادرة عن جهاز المخابرات المركزية الأميركية (سي. آي. إيه) حول مؤامرة ترمي إلى قتل سيد بغداد مقابل مبلغ يقارب الخمسة ملايين دولار! ووثيقة أخرى حول التوصيات التي وجهتها المخابرات المركزية نفسها لمدير الأمن الكويتي بقصد حث العراق على الشروع بعملية عسكرية.

وحسب أقوال أحد المقربين من صدام حسين والذي كان يروّج تلك المعلومات الزائفة فإنه «تمّ كشف تلك المؤامرة قبل عدة أسابيع من نشوب الأزمة».

ومنذ أسابيع أيضاً، كان الرئيس العراقي مقتنعاً بأن «مؤامرة دولية تحاك ضده أكثر مما هي ضد العراق». وهذا ما علّق عليه اليوم أحد خصومه بالقول بأن هذا يبين الاحساس بالاضطهاد لديه. لقد كان صدّام حسين مُحاصراً أيضاً بفكرة الشهيد. انه لم ينس «ان العراق تضم كربلاء التي سال فيها دم الإمام الحسين بن علي منذ حوالي ألف وثلاثمائة وخمسة عشر سنة». هذا المكان المقدّس هو رمز الشهادة في الإسلام.

ان صدّام حسين، عند استقباله في شهر سبتمبر ـ ايلول لوفد يضم عدة مسؤولين من الحركة الإسلامية، قال لهم: «انا مستعد للشهادة، فهل أنتم مستعدون أيضاً؟».

في الأول من شهر اغسطس ـ آب، كان جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركية يشارك نظيره السوفييتي ادوار شيفرنادزه رحلة هادئة لصيد السمك في سيبيريا. وعندما وصله التقرير النهائي للبنتاغون حول مشكلة الكويت توجه نحو نظيره السوفييتي وقال له:

ـ أتأمل بأنكم ستمنعون حصول هذا الأمر.

فأجاب وزير الخارجية السوفييتي مازحاً:

ـ اننا نعرف صدام حسين جيداً. فهو أحد زبائننا ولا أعتقد أن الأمر سيصل به إلى الاقدام على هذه الخطوة الخطيرة.

بنفس اللحظة تحدث جورج بوش هاتفياً مع الملك السعودي فهد وأرسل إليه على جناح السرعة وزير دفاعه ديك شيني. بعد غزو الكويت في ٢ اغسطس - آب كانت أوامر مهمة القوات للتوجه إلى السعودية جاهزة. بدأ التنفيذ يوم الاثنين ٦ اغسطس - آب وأعلن جورج بوش عن عملية «درع الصحراء» في الثامن من نفس الشهر بعد أن كان قد أعلم مسبقاً الرئيس السوڤييتي.

في السادس من اغسطس - آب تمّ في بغداد استدعاء جوزيف ويلسون، القائم بالأعمال الأميركي - الذي كان ينوب عن السيدة السفيرة ابريل غلاسبي التي كانت قد أستدعيت إلى واشنطن -، إلى قصر صدام حسين. كانت المحادثة طويلة وهادئة في أغلب الاحيان وقد تم نشرها كاملة في كتاب بيير سالنجر بعنوان: «حرب الخليج». في خاتمة الحديث قال صدام حسين للدبلوماسي الأميركي: «انقل للرئيس بوش أفضل تمنياتي، وقل له أن يعتبر الأمير جابر وأسرته، اللاجئين في السعودية ،وكذلك أولئك الذين يرافقونه، بأنهم قد اصبحوا جزءاً من التاريخ. ان اسرة الصباح تعني الماضي. من الطبيعي أن يهتم كل شخص بمصالحه الخاصة. لذلك نريد أن نعرف بدقة ما هي المصالح المشروعة للأميركيين كي نستطيع تأمينها .انني أقول ذلك، ليس لأغراض تكتيكية وليس لأنكم تفرضون علينا المقاطعة، كما انني لا أبحث أبداً عن سبل الغاء هذه المقاطعة. بل وحتى انني لا أبحث عن رضا الولايات المتحدة. لكنني أريد أن أفهم ما هي المصالح المشروعة لأميركا كي انصحها أن لا تذهب أبعد مما يجب دون أن تحتفظ بامكانيات التراجع مفتوحة».

على الرغم من كل ما حصل، حاولت مجموعة من القادة العرب مثل الرئيس المصري حسني مبارك وملك الأردن حسين، العمل على عقد قمة كبيرة في القاهرة بتاريخ ١٠ اغسطس - آب.

كذلك جاء إلى بغداد القائدان الفلسطينيان لمنظمة التحرير الفلسطينية، أبو عمار وأبو اياد وقابلا صدام حسين. لقد رفض هذا الأخير حضور القمة العربية لأنه لا يريد أن يجتمع مع أمير الكويت. «ذلك الأمير الشبح» كما قال لأبي اياد. كما اسرّ لمحدثيه الفلسطينيين بأن ملكيات الخليج ستهتز بقوة بواسطة أعمال ارهابية وانه يوجد في السعودية منذ عدة أشهر مخابىء للسلاح الذي تم ادخاله عبر جزيرة سوقطرة في اليمن.

لقد تأثر ابو اياد باللهجة الحاسمة والمسيطرة والمتشنجة والعنيفة للرئيس

العراقي.

اثناء قمة القاهرة الشهيرة كان طارق عزيز ايضاً شديد العنف، إذ قال موجهاً حديثه إلى الوفد الكويتي: «ان الكويت حرّة منذ ان هربتم من قصوركم».

بل ان نائب رئيس الوزراء العراقي طه ياسين رمضان، قائد الجيش الوطني الشعبي واحد المتشددين في النظام، القى الأواني على وجه رئيس الوزراء الكويتي قبل أن يهدده وهو يدل بأصبعه على مسدس سوفييتي يخبئه تحت قميصه.

بينما كانت الشتائم تنهال كالمطر والقوات العراقية تتابع غزوها للكويت، حاولت الأجهزة السرية العراقية ان تخطف في مدينة «كان» الفرنسية أحد الكويتيين، هو خالد ابو السود، المستشار المالي لأمير الكويت؛ والذي يدير منذ أكثر من ثلاثين سنة الثروة المالية للامارة. وكان عبر هذا المنصب يستطيع توقيع عدة حسابات شخصية للأمير، وأيضاً بعض حسابات حكومة الكويت.

لقد تلقى أحد عملاء العراق العاملين في فرنسا تحت غطاء دبلوماسي أمر مهمة تحديد مكان تواجده وخطفه وابتزاز أرقام حسابات في لندن وسويسره منه. في نفس الوقت حاولت الاجهزة السرية العراقية استخدام أوراق الهوية والسجلات المدنية الكويتية من أجل سحب كميات كبيرة من المال من سويسره بعد عدة أيام من غزو مدينة الكويت. هكذا حاول مواطنون كويتيون مزيّفون في ٧ اغسطس - آب سحب كل الأموال الموجودة في حسابات في زوريخ وجنيف ولدى فروع البنوك السويسرية في العالم، وكانوا مزودين بأوراق من وزارة المالية أستولي عليها أثناء غزو ٢ اغسطس - آب. لكن طلبهم جاء متأخراً! إن عشرين بلداً أخذت اجراءات سريعة لتجميد الأموال الكويتية البالغة قيمتها ١٠٠ مليار دولار كي تحميها من خطر المصادرة العراقية. ذلك القرار دشّن سياسة دولية لفرض المقاطعة ضد العراق.

عمّان، الأردن، سبتمبر - أيلول ١٩٩٠

أمام بناية جديدة في وسط المدينة، وقفت سيارة عادية وترجّل منها ثلاثة ضباط عراقيين من بينهم احد معاوني حسين كامل وزير التصنيع والصناعات الحربية في بغداد. لقد جاؤوا سراً كي ينشئوا عدة مكاتب للدراسات والمشتريات في الأردن بقصد تفادي آثار المقاطعة التي فرضتها الأمم المتحدة ضد العراق. كان هدفهم هو

ايجاد بنىً تسمح باستقبال رجال أعمال وتجار ووسطاء من العالم أجمع يقبلون التعاون مع النظام العراقي. لقد انشأ هذا التنظيم العراقي شخص أردني من أصل فلسطيني هو مهدي ابوهادي راضي. ان مكتب المشتريات قام بعد صدور قرارات الأمم المتحدة، بتزويد الجيش العراقي بالقنابل ومدافع الهاون وذخائر الاسلحة الاوتوماتيكية. وقد اكتشف جنود الفرقة ١١١ المحمولة جواً في أحد الملاجىء المحصنة المتروكة من قبل العراقيين بعد الهجوم الأرضي نماذج من تلك الذخائر وصناديق مكتوب عليها «صنع الأردن». كما تبادلت اجهزة استخبارات التحالف المعادي للعراق المعلومات حول اشكال الالتفاف على المقاطعة ونقاط ضعفها. ان النتائج تلاقت لدى الاجهزة البريطانية والفرنسية والأميركية ودلّت على ان العراق يستطيع أن يتحمّل بسهولة العقوبات الاقتصادية حتى آخر عام ١٩٩١ على الأقل. وفي مطلع شهر ديسمبر - كانون أول وضع «وليام ويبستر»، رئيس الاستخبارات المركزية الأميركية، تقريراً أمام البيت الابيض قال فيه: «ان أثر العقوبات الدولية على الاقتصاد العراقي لن تكون كافية كي ترغم صدام حسين على الانسحاب من الكويت». تلك كانت هي النتيجة الجافة لمحللي واشنطن. كذلك قام فريق آخر من الخبراء برئاسة «مارتن انديك» مدير معهد واشنطن لسياسة الشرق الادنى بكتابة وثيقة تذهب في نفس الاتجاه. لقد رأى الجميع أن العراق يستطيع أن يقاوم المقاطعة حتى نهاية عام ١٩٩١ وذلك عبر التوليف الماهر بين تقنين ما هو خاص وتخفيف الطوق الكبير الذي تشد به الدولة على الزراعة. كانت التقارير دقيقة جدة، وقد دلّت على أن العراقيين قد يبيعون كل شيء بما في ذلك الذهب الذي يمتلكون كميات كبيرة منه كي يشتروا سلعاً غذائية. قبل الغزو كان العراق يستورد ٧٠٪ من الاستهلاك اليومي من الحريرات لكل من سكانه. ومنذ شهر اكتوبر - تشرين أول، يُفترض، نظرياً، أن تكون الحصة اليومية قد انخفضت الى ١٧٦٠ حريرة لكل شخص، أي أقل مما هو الأمر في بنغلاديش. لكن تلك الحصة اليومية كانت، في الواقع، أكبر من ذلك بكثير، خاصة بفضل المخزونات التي تمت سرقتها من الكويت. هكذا نجد أن «احتمال حدوث مجاعة في العراق كان معدوماً تقريباً» كما تدل الأرقام المقدّمة من عدة خبراء زراعيين غربيين. وكان يكفي لصدام حسين، كي يؤمن الغذاء بصورة طبيعية لمواطنيه، أن يستورد بدون دفع أية ضريبة (بالاحتيال) ما بين ٩٠٠ و١٠٠٠ طن من الحبوب يومياً. هذه الكمية الضئيلة على مستوى البلاد يمكن

نقلها بواسطة ٢٥ شاحنة كبيرة.

أما الصناعة العراقية فقد وُصفت بانها أكثر «قابلية للتأثر» في ثلاثة قطاعات أساسية هي: تكرير النفط الذي يتعطل النقل بدونه، ومحطات توليد الكهرباء الأثني عشرة ومحطات ضخ المياه وتنقيتها. هذه المجاميع الصناعية الثلاثة كانت على رأس قائمة أهداف القصف الاستراتيجي.

«ازرعوا أرضكم، ربّوا الدجاج من أجل البيض؛ ايتها الأمهات أرضعن أطفالكن فهذا أفضل للصحة». منذ السابع من اغسطس - آب كانت الاذاعة والتلفزة وصحف الدعاية العراقية تشجع يومياً السكان على تنظيم انفسهم من أجل الوصول إلى أفضل شكل لمقاومة الحظر.

ورفعت الحكومة على الفور القيود المفروضة على استخدام الأراضي تبعاً لمخططات الري، وذلك كي تشجع الزراعة. ان نقص مادة الأرز، التي تشكل عنصراً أساسياً في المطبخ العراقي، يمكن أن يطرح مشاكل كبيرة. لذلك دعت الحكومة إلى تغيير العادات الغذائية وطلبت الاعتماد أكثر على منتوجات مثل التمر الذي يُعتبر العراق أول منتج له أو على الخضار التي وصل محصولها لعام ١٩٨٩ أكثر من (٩٠٠,٠٠٠) طن.

ان عملية ترشيد استهلاك المنتوجات الاساسية التي بدأت منذ مطلع سبتمبر - أيلول تعززت أكثر منذ نهاية اكتوبر - تشرين أول، إذ أن تسع سلع أساسية مثل الأرز والنشويات والحبوب ومسحوق الغسيل والصابون قد جرى تقنينها تماماً. وتمّ تخفيض الحصص اليومية إلى الحد الأدنى.

في ١٣ نوفمبر - تشرين ثاني، أصدر وزير التجارة قراراً بترشيد أكثر للمواد الأساسية مثل الأرز والطحين. هكذا لم يعد لسكان بغداد الحق بأكثر من كيلو من الأرز شهرياً للشخص الواحد بدلاً من ١,٥ كيلوغرام الموزعة عادة.

في ١٤ نوفمبر - تشرين ثاني ترأس صدّام حسين شخصياً اجتماعاً لمجلس قيادة الثورة، بعد أن انتابه القلق من جراء توسع السوق السوداء ونشوب بعض المشاجرات في حوانيت صغيرة مع بعض الأسر (التي لا يكفي راتبها الشهري الضئيل لشراء السلع الأساسية). وقرر في ذلك الاجتماع ارغام المزارعين على بيع ارزهم لمؤسسات الدولة مع منع أي تعامل مع الشركات التجارية الخاصة. بالمقابل، لم يكن يتم في السوق «بيع» بعض السلع الفاخرة وانما «يعاد توزيعها» كما تقول الدعاية

العراقية. كان هذا القول المغلّف بالاحتشام ينطبق في الواقع على بيع المخزونات الكويتية المنهوبة مثل الساعات وآلات التصوير اليابانية واجهزة التلفزة وكاميرات الڤيديو، والمجمّدات وافران الميكرو - اوند، والنواظم الآلية، واجهزة الفاكس، القادمة جميعها من المقاطعة ١٩. وعلى موجات اذاعة بغداد كان المعلّقون الرسميون يدينون الحظر، خاصة رئيس المجلس الوطني سعدي مهدي صالح الذي قال: «لو استطاع الحلفاء أن يحرمونا من الهواء لفعلوا ذلك بغبطة كبيرة».

ان صدام حسين كان قد هيأ نفسه قبل غزو الكويت لحظر ممكن مما دعاه إلى تخزين المؤن. هكذا نجد أن الصادرات الهولندية من المواد الغذائية قد ازدادت نحو العراق في الفصل الأول من عام ١٩٩٠ بصورة ملحوظة بالنسبة لنفس الفترة من عام ١٩٨٩. لقد ازدادت صادرات السكر والعسل إلى العراق بنسبة ١١٠٠٪، وصادرات منتوجات الحليب بنسبة ٣١٢٪ وصادرات البقر الهولندي بنسبة ٦٣٠٪ وصادرات التبغ والمشروبات بنسبة ٨٤١٪ وصادرات السلع الغذائية الأخرى بنسبة ٨١٢٪. أما وسائل النقل فقد ازدادت، حسب وثيقة صادرة عن وزارة الاقتصاد الهولندية، بنسبة ٤٩٢٪.

مع ذلك، ظهرت بعض الثغرات منذ بداية قرار الحظر الصادر عن الأمم المتحدة. فقد التقطت أقمار الاستخبارات الأميركية صوراً لعدة قوافل من الشاحنات المحمّلة بأجهزة بتروكيميائية ايطالية، متجهة من الأردن إلى العراق. كما ان الحدود الطويلة المشتركة بين العراق وايران سهّلت أيضاً الالتفاف على ذلك الحظر.

ان عدة جمعيات حرفية تابعة للصناعة الزراعية - الغذائية الايرانية تلقت الأمر بتسليم مخزوناتها من الاغذية المحفوظة لكردستان العراقية تحت اسم «أدوية». وطُلبت كميات من المشتريات الايرانية من أرز «التاي» على أن يجري تسليمها باكياس مزدوجة من القنّب بغية نقلها. كما ازدادت طلبيات الارز «البسماتي» من الباكستان، بنسبة ٦٠٪ منذ شهر اكتوبر - تشرين أول.

في شهر اغسطس - آب، ارسلت ليبيا صراحة مواداً غذائية للعراق. كما مرّت بضائع أخرى موجهة للعراق عبر مرفأ عدن في اليمن، في الوقت الذي تصل فيه الطائرات العراقية لتأخذ حمولتها من المواد الغذائية. كذلك خرقت موريتانيا والسودان وكوريا الشمالية وكوبا اجراءات الحظر.

في ٢٣ اغسطس - آب قدّمت الولايات المتحدة وبريطانيا لمجلس الأمن وثائق

سرية مصوّرة تثبت المحاولات التي قام بها العراق من أجل الالتفاف على العقوبات المفروضة من قبل المجلس. وفي نهاية اجتماع مغلق استمر اكثر من ساعتين، اختتم «توماس بيكرنك» ممثل الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، الجلسة بالقول: «لقد اجتمعت كل عناصر البرهان على الخروق المستمرة من قبل العراق الذي يحاول دائماً تصدير نفطه واستيراد كميات من السلع من جميع انحاء العالم». ثم قال، هناك اسلحة تستورد من «السوق المفتوح، والسوق الاسود والسوق البنّي، والسوق الاخضر ومن أي سوق». وكي يعزز السيد «بيكرنك» ونظيره البريطاني السير «كريسبان تيكل» اقوالهما قدّما للجنة مراقبة تطبيق العقوبات براهين مصوّرة وشفهية ومخططات وخرائط مدموغة جميعها بختم «كوسميك»، أي التصنيف الأكثر سرية في اللغة الخاصة بحلف الأطلسي.

في ٦ سبتمبر - أيلول احتجزت جمارك مرفأ روتردام شاحنتين بلغاريتين كانتا محملتين بأعتدة متوجهة للعراق. لم تكن حمولتهما ذات طابع عسكري وانما تتضمن آلات رافعة مصنعة من قبل شركة في امستردام. لقد خرق العراق الحظر بألف طريقة وطريقة. واستخدم لذلك الرهائن الغربيين المحتجزين في بغداد. فإذا كان صدام حسين قد قبل باقامة الجسور الجوية بين بغداد وأوروبا من أجل جلاء النساء والأطفال، فإنه فعل ذلك جزئياً من اجل خرق الحظر. كان التكتيك بسيطاً: كانت الطائرات التابعة للخطوط الجوية العراقية تنقل الأسر الغربية إلى بلدانها ثم تعود فارغة وتهبط في طريق عودتها في بلدان خارقة للحظر مثل ليبيا واليمن والاردن. ان تكتيك الرئيس العراقي كان مجدياً بالنسبة له لأن الغربيين ومنظمة الأمم المتحدة لم يكونوا قد قرروا بعد الحظر الجوي من أجل تسهيل اجلاء الرهائن المحتجزين في العراق. كان ذلك بمثابة الدوران في حلقة مفرغة!.

منذ بداية الازمة في شهر اغسطس - آب قامت حوالي خمس عشرة طائرة مخصصة للشحن بتأمين جسر جوي بين اليمن وبغداد كل يوم. اخطر من ذلك، فقد لوحظ أن عدة شركات أوروبية تعمل في حقل التكنولوجيا المتقدمة تحتوي على رؤوس أموال عراقية مستثمرة فيها. وهذا ما سمح لبغداد بالاستفادة من تسهيلات داخل تلك الشركات بقصد الحصول على العتاد المتقدم. وكمثال على ذلك شركة المانية غربية تعمل في حقل الارشاد الالكتروني لبعض صواريخ الحلف الاطلسي! ومنذ بداية الازمة، تم انشاء أكثر من ٢٦٠ شركة (كستار للتمويه) في بلدان أوروبا

الغربية عملت، في الواقع، من أجل خرق الحظر، هذا دون أن نأخذ باعتبارنا الاتصالات التي تمت بين موفدي بغداد واصحاب السفن اليونانيين أو القبارصة مما سمح بوجود شركات تجارية متخصصة في «تبييض» أموال النفط العراقي.

كذلك نقلت ايران عبر اراضيها النفط العراقي وباعته للخارج على اعتبار انه نفط ايراني. وهناك في قبرص وفي لبنان حوالي خمسة آلاف شركة قامت بعمليات التهريب مع بغداد عن طريق البر والبحر. وفي سوريا ضُبطت شركة وهي تحاول أن تسلّم لبغداد قطعاً فولاذية مخصصة لصنع منشآت اغناء اليورانيوم ومنشآت الصواريخ. هذه الشركة سلّمت أيضاً للعراق قواعد (الاجزاء السفلى) لنوابذ الغاز. وهناك شركة نشيطة جداً تعود لفلسطيني، عضو سابق في منظمة التحرير الفلسطينية، ومحكوم عليه بالموت قديماً من قبل ياسر عرفات. كان ذلك الشخص المقيم بين موسكو ووارسو، بينما عنوانه في قبرص، يحمل جواز سفر سوڤييتي وكان يرسل طلبياته من موسكو ويسلمها في ليماسول.

ان العراق، الذي دعم مسيحيي لبنان، تلقى عتاداً حربياً ايضاً بواسطة القوات اللبنانية برئاسة سمير جعجع، انطلاقاً من مرفأ جونيه الذي اصبح احد مراكز التهريب الأساسية نحو العراق.

السوڤييت ايضاً حام حولهم الشك بخرق الحظر. فقد اوقفت البحرية الفرنسية في ٣ اكتوبر - تشرين أول عند مدخل خليج العقبة، حاملة الحاويات السوڤييتية «سكولتور - زالنكان» وفتشتها.

ان فرنسا لعبت طيلة فترة النزاع دوراً فعّالاً في النضال ضد خرق الحظر. منذ ١٥ سبتمبر - ايلول تحدث فرانسوا ميتران عن وجود شركات فرنسية لا تحترم الحظر المفروض على العراق. ان رئيس الدولة ابدى حزماً كبيراً حيال هذا الموضوع واشار إلى أن أي خرق للاجراءات المتخذة من قبل منظمة الامم المتحدة هو بمثابة اخلال بالوحدة الوطنية. بنفس الوقت رسمت خطة بهذا الخصوص اشتركت بها وزارات الصناعة والزراعة والدفاع والخارجية والداخلية والتجارة الخارجية. وكُلّفت الامانة العامة للدفاع الوطني بتأمين الارتباط بين الجميع من أجل تنفيذ تلك الخطة المتعلقة باحترام الحظر.

ان الامانة العامة للدفاع الوطني، المرتبطة برئيس الوزراء، تقوم أيضاً بامانة أعمال مجالس الدفاع التي يرأسها رئيس الدولة وكذلك امانة لجان الدفاع التي

يرأسها رئيس الوزراء. كما تقوم أيضاً منذ عدة أشهر بتنسيق الخطط الدائمة للاستخبارات التي انشأتها حكومة ميشيل روكار. وتشارك في تنشيط أعمال الادارة العلمية وتحويل التكنولوجيا الحساسة؛ أي الادارة التي تجمع كل العناصر المتعلقة بالاستخبارات وبمراقبة صادرات الاسلحة الحسّاسة والتكنولوجيا ذات الطبيعة الاستراتيجية؛ وذلك بالاتصال مع اللجنة الوزارية المشتركة لدراسة صادرات الاعتدة الحربية. لقد عملت رئاسة الوزراء بالاتصال مع الجمارك والمصالح المالية والاستخبارات العامة ومصلحة مراقبة التراب الوطني DST والأمن العسكري ومصلحة مكافحة التجسس. وهكذا تمّت فهرسة عدد من الشركات التي كانت تعمل عادة مع العراق وُوضعت سراً تحت المراقبة. كما حُذر الصناعيون من محاولات الالتفاف على الحظر بواسطة طرق تجارية ملتوية؛ وقد القيت عليهم محاضرات لتنبيههم لذلك الأمر بالاتصال مع النقابة الفرنسية لأرباب العمل. كما زوّدت المؤسسات بنظام للتصنيف وجهّزت الحكومة بالاشتراك مع الامن العسكري والاجهزة المختصة الأخرى لائحة اسمية بتجار الاسلحة المعروفين الذين يمكن أن يتصلوا بشركات السلاح الفرنسية بواسطة شركات تجارية وهمية. بالمقابل أُخضع عدد من تجار السلاح للمراقبة السرية في المراكز الحدودية البرية والبحرية والجوية. كما اهتمت مصلحتا مكافحة التجسس ومراقبة التراب الوطني بالشركات التي تشكلت بشكل يثير الفضول منذ بداية حرب الخليج. ورصدت مصلحة مكافحة التجسس شركات تكوّنت حديثاً في سويسره واللكسمبورغ وموناكو. وقد كان رجال المخابرات الفرنسية فعّالين جداً على أرض العمل في الخارج. ان رجال الجمارك ساهموا ايضاً بشكل كبير في خطة «الغربلة» تلك. إذ تمّ منذ ٢٦ سبتمبر - أيلول الماضي توجيه رسالة «تلكس» من الادارة العامة لمصلحة الجمارك إلى جميع مسؤوليها في مختلف المناطق، وطلب فيها «جان كلود سافاش»، المدير المساعد، الالتزام بالسرية الكاملة حول تطبيق اجراءات الحظر. وقد جاء في رسالة «التلكس» تلك والمصنّفة «سريّة خاصّة بالدفاع» ما يلي: «نرجو منكم الامتناع عن اعطاء أية معلومات لوسائل الاعلام حول اشكال المراقبة الممارسة ضمن اطار الحظر المفروض على العراق، إلا اذا كان هناك اذن صريح من الادارة العامة ومن الحكومة». ان مصلحة الجمارك عبأت كل طاقاتها من أجل مراقبة السفن التي تعبر المياه الاقليمية وحتى مسافة ٢٤ ميل من الشواطىء. وكان يُطلب من كل سفينة أن توضح هويتها وعلمها ووجهتها والسلعة

التي تحملها. أي شك حيال سفينة ما كان يستدعي اتخاذ قرار باجراء تحقيق. من جهة أخرى، تبادلت مصالح الجمارك الأوروبية المعلومات حول الحظر. وقد أكّد أحد مدراء الجمارك أنه يمكن دائماً الالتفاف على الحظر، لذلك أجريت عمليات مراقبة خاصة من قبل جمارك البلدان المجاورة للبلدين اللذين يطالهما الحظر، أي الكويت والعراق. وشرح ذلك قائلاً: «عندما يتنبه مراسلونا لوجود تدفقات غير عادية من السلع لشركات تجارية جديدة، نقوم عندئذ بتحقيق معمّق جداً».

ويقول مدير آخر للجمارك أن عدة شركات وهمية قد تشكلت وأن العديد من السماسرة حاولوا الاستفادة من أزمة الخليج من أجل رفع رصيدهم في بنوك الجنّات المالية. هذا ما دعا الجمارك ومصلحة مراقبة التراب الوطني، الى اخطار المصدّرين الفرنسيين خاصة في مجال المنتوجات الزراعية - الغذائية المطلوبة أكثر من قبل العراقيين.

على المستوى الجوي، تعززت أيضاً الرقابة على الشحن في المطارات وكان رجال الجمارك يخشون بشكل خاص وجود وثائق مزوّرة حول السلع أو حول وجهة تلك السلع لا تتوافق مع الواقع. هذه الرقابة لم تكن سهلة إذ كان يتوجب مقارنة كل المعلومات. أمّا فيما يتعلق الرقابة على تحركات رؤوس الأموال، فإن مصلحة الجمارك قامت، بالاتصال مع ادارة الخزينة، بالتدخل من أجل منع رعايا العراق والكويت من اخراج العملات الصعبة. وأخضعت المؤسسات البنكية لتعليمات الخزينة ولم تكن تستطيع اجراء التحويلات المالية للعراق وللكويت. من جهة أخرى، تحققت مصلحة الجمارك من صحة القيود المالية لبعض البنوك للتأكد من انه لا يوجد تحويلات نقدية غير شرعية.

ان مصالح الاستخبارات أولت اهتمامها أيضاً بعدد من شركات بيع الاسلحة التي تعرّضت لضغوطات من قبل «اللوبي» العراقي في فرنسا (بما في ذلك السفارة) ومن قبل وسطاء لبنانيين يقومون عادة بمهمات لحساب بغداد. لكن هناك تأكيدات بأن الحظرلم يُخرق من قبل أية شركة فرنسية. وعندما حذرفرانسوا ميتران من الاحتيال على الحظر، في ١٥ سبتمبر - ايلول ١٩٩٠، كشفت التحقيقات التي أجريت أن تلك «الانحرافات» قد جاءت من شركات صغيرة أكثر مما جاءت من الشركات الكبيرة. بالاجمال تمّت مراقبة مائتي شركة صغيرة كان لها علاقات مع العراق وكانت معرّضة في الواقع، لخطر خسارة أسواق هامة، مما جعلها عرضة للانزلاق.

كيف تابعت تلك الشركات المتاجرة مع العراق مع ان شركة الضمان الفرنسية الرسمية «كوفاس» لم تكن تؤمّن منذ عامين على أي عقد مع العراق (تنفيذاً لتعليمات وزير المالية الفرنسي بيير بيريغوفوا بسبب الدفوعات المالية المستحقة المتخلفة)؟ على هذا السؤال يُجاب في المركز الفرنسي للتجارة الخارجية بأن العراق لا يسدد للدولة الفرنسية لكنه يدفع لمزوديه الصغار، والمتمثلين غالباً بشركات صغيرة، من أجل المحافظة على الصلة بهم. فقد باعت، مثلاً، احدى هذه الشركات للعراق شبكات صيد، الأمر الذي يثير الدهشة، كما قال أحد رجال الجمارك، بالنسبة لبلد لا يتعدى طول شاطئه خمسين كيلومتراً. في الواقع، تدل معلومات أجهزة الاستخبارات الفرنسية اليوم على أنه تمّ استخدام تلك الشبكات في العراق كوسائل تمويه للأعتدة العسكرية أثناء المعارك الجوية الأخيرة. ان عدداً من تلك الشركات أخضعت للرقابة بشكل منتظم من قبل الجمارك واجهزة الأمن الفرنسي. ثلاثون شركة منها فقط تجاوزت اجراءات الحظر، خاصة شركات زراعية - غذائية وشركات مختصة بالاجهزة الطبية وشركات لصنع الاثاث. ان اجهزة الامن الفرنسي حذّرت بعض المنتجين الفرنسيين للعقاقير غير المعبأة لأن العراق ربما استطاع استخدامها في صناعة الاسلحة الجرثومية أو الكيميائية. لذلك تمّ تحضير نظام جديد يحدد لائحة مبتسرة للأدوية المسموح تصديرها، وذلك بالاتفاق مع مصالح الجمارك الاوروبية منذ شهر اغسطس - أب. كما فُرض، منذ ذلك التاريخ، تعليب الأدوية بعبوات افرادية مما يجعل من الصعب فيما بعد استخدامها لأغراض عسكرية.

ان عدداً من الشركات التي كانت تعمل مع العراق أمطرت بشكل يومي تقريباً بـ«وابل» من رسائل «التلكس» و«الفاكس» من مراسليها العراقيين المعهودين في بغداد. هكذا تلقت شركة مقرها «طولوز»، مختصة باجهزة التعقيم والأدوات الجراحية والمخبرية، رسائل «تلكس» كل يوم طيلة شهر اغسطس - آب من أجل احترام مواعيد تسليم اجهزة المستشفيات لبغداد بواسطة تركيا. هذه الشركة رفضت الردّ على تلك الرسائل بل انها اخطرت السلطات الفرنسية. في الواقع، هناك عدة شركات فرنسية أخرى وجدت نفسها بين المطرقة العراقية وسندان الحظرفي فرنسا. هكذا خسرت شركة مقرها «مولوس» حوالي ١٥ مليون فرنك فرنسي، بسبب ضياع السوق العراقي الهام. وكان يُفترض أن تزود العراق بالذخائر. كما ألغيت أيضاً عقود أخرى مثل عقود شركة تتفرع عن مجموعة اوسينور - ساسيلور

لصناعة الحديد ؛ وكانت تلك الشركة قد تلقت طلباً بـ ٥٦٠ كيلومتر من الانابيب للعراق من أجل خط الأنابيب الذي كان ينبغي أن يصل كركوك مع بغداد .

هذه المؤسسات الصغيرة من هذا الطراز هي التي مارس عليها عملاء العراق النافذون الضغوط من أجل خرق الحظر ؛ وكان هؤلاء قد بقوا في فرنسا الى ان طردت السلطات الفرنسية أغلبية اعضاء السفارة العراقية في باريس. لقد حاول العراق بصورة خفية «ابتزاز» عددٍ من الشركات الفرنسية التي احتجزت بغداد بعض موظفيها كرهائن وهددت بإرسالهم الى المواقع الاستراتيجية! لكن جميع هذه المؤسسات الفرنسية قد قاومت الضغوطات الممارسة عليها ، كما قاومت مساومة السلطات العراقية واظهرت قدراً كبيراً من الروح الوطنية، كما يقال في مقر رئاسة الحكومة الفرنسية.

الفصل الثاني
نهب مدينة الكويت

كيف يمكن فتح خزانة البنك المركزي؟ هذا هو السؤال الذي كان يشغل بال الجنود العراقيين بعد احتلالهم الكويت واعتبارها المقاطعة ١٩ من قبل صدام حسين. ففي داخل تلك الخزانة كان يوجد أكثر من مليار من الذهب المكدّس، وفقاً لمعلومات أحد عملائهم. كانت أوامر بغداد واضحة وتنص على نقل كل شيء إلى بغداد قبل تاريخ ٢٠ اغسطس ـ آب. كان صدّام حسين بحاجة لكنز الحرب هذا من أجل تمويل المنظمات الارهابية المتوافدة إلى بغداد، ومن أجل تنظيم كيفية تفادي آثار الحظر المقرَّر من قبل هيئة الامم المتحدة. وقد أرسل صدام لجلب غنيمته وحدات من قوات أمنه الخاصة، إذ كان يخامره الشك من الجنود العراقيين التابعين للجيش الشعبي الوطني المؤلف بصفة عامة من الاحتياطيين. عندما وصل «اللصوص الرئاسيون» إلى مكان مهمتهم اصطدموا بمشكلة تقنية تكمن في كون ان البنك المركزي قد صُمم بطريقة تسقط فيه خزانته بالبحر في حالة محاولة كسرها بواسطة المتفجرات. هذا النظام في الحماية جادت به مخيلة وزير المالية الكويتي الشيخ علي خليفة الصباح. بعد أن عثر الجنود العراقيون على موظفي البنك الكويتيين والفلسطينيين قاموا بتعذيبهم وهددوهم بقتل أطفالهم. أخيراً سلم بعض المسؤولين مفاتيح الخزانة واعطوا سر الآلية الخاصة لفتحها. عندما انفتحت الأبواب الضخمة عثر العراقيون على «غنيمة مناسبة». كانت الخزانة تحتوي على ١٠ مليون دولار وعملات صعبة أخرى ومخزون من الذهب بقيمة ٣٦٠ مليون دولار. لكن هذا المعدن الاصفر كان مدموغاً بالاختام مما جعل صدام حسين يأمر بتمييعه من أجل تصريفه. وقد صرَّف الوسطاء الاردنيون قسماً منه. كما سُمح لمجموعة فلسطينية متطرفة ـ مجموعة أبو العباس ـ بأخذ الذهب من الكويت حيث نظّم مسؤولها حسين العابد عملية النهب. هذا الموقف من مجموعة فلسطينية «اغاظ» ابو اياد الذي أمر باجراء تحقيق. وفي الوقت

الذي كان فيه الجنود العراقيون ينهبون أيضاً مخازن الصاغة، استفاد آخرون كي ينهبوا بعض كنوز المتحف الوطني الكويتي. ويقول مؤرّخ التاريخ الإسلامي في قاعة عرض «ارتور ساكلر» في واشنطن؛ أن ذلك المتحف كان يضم أحد أجمل التشكيلات في العالم؛ وقد جرى سرقة قسم كبير من تلك الأعمال. كان ذلك المبنى بمثابة متحف حقيقي للفن الإسلامي إذ كان يحتوي على ٧٠٨٠ اثر فني جرى جمعها من بلدان شديدة التنوع مثل اسبانيا والهند، وكان تاريخ بعضها يعود للقرن الثامن. ان اشاعة النهب التي راجت بين أوساط جامعي التحف العالميين تمّ تأكيدها من قبل السفارة الكويتية في واشنطن. والآن يجري البحث عن بعض المخطوطات من بينها احد اقدم نصوص القرآن. كما تمّت سرقة نقوش تعود للعصر الوسيط وانسجة أميرية وأحجار ثمينة. هذا ولقد قدّم احد الباحثين، كان قد نجح في اللجوء إلى لندن في شهر سبتمبر - ايلول، تقريراً عن عملية النهب. يقول التقرير: «بتاريخ ٢٦ اغسطس - آب علمت أن الجنود العراقيين دخلوا الى المتحف. فقررت حالاً الاستعلام أكثر مما حثني للذهاب إلى نفس المكان. ذهبت مع أحد الاصدقاء متنكرين، وعندما وصلنا قدّموا لنا شخصاً باعتباره المدير الجديد للمتحف، كان في الواقع ضابطاً في وزارة الاعلام العراقية. اثناء تجوالنا في الداخل، تصورنا للوهلة الأولى أنه لم يتم خطف أي شيء من موجوداته. لكن بعد أربعة أيام، أي بتاريخ ٤ سبتمبر - ايلول رأينا أربع شاحنات تابعة للجيش العراقي تقف أمام المتحف تحت حماية جنود الحرس الجمهوري. كان بعض الاشخاص الحاضرين بالثياب المدنية وبعضهم بالزي العسكري. فيما بعد، كشف اصدقاء كانوا يرون المشهد بأنهم لم يلاحظوا انه تم حمل صناديق من قبل أي شخص». الممثلون العراقيون في واشنطن كذّبوا عملية السرقة. وأكد أحد اعضاء السفارة العراقية بأنه لم يكن على اطلاع بأي شيء؛ وقال ان الحكومة العراقية لم تأخذ أبداً على نفسها التزاماً يخص: «حماية الآثار الفنية الكويتية وحفظها».

لقد تم انشاء المتحف الوطني الكويتي عام ١٩٨٣ بمبادرة من آل الصباح. ان هؤلاء الهواة مدفوعون برغبة خلق مخزون لذخيرة الفن الاسلامي في بلادهم، دفعوا الاموال من اجل البحث عن القطع المختفية. واليوم هناك بعض الآثار الفنية ذات القيمة الباهظة، والتي لم يكن بالامكان نقلها إلى اميركا بسبب هشاشتها، ربما انها قد اختفت، خاصة آنية تعود للقرن الرابع عشر. كان هناك أكواب زجاجية اسلامية

قديمة جداً. من بين القطع التي أمكن انقاذها عمود من الرخام مأخوذ من قصر اسباني بني في القرن العاشروحليً هندية تعود لنهاية القرنين السادس عشر والسابع عشر ،وسجّادات تركية من القرنين السادس عشر والسابع عشر واسطرلاب قديم.

لقد صمدت المقاومة الكويتية لعدة أسابيع. فقد اثبتت الوثائق والصور وافلام الهواة أن الضباط الكويتيين لم يفرّوا من بلادهم منذ بداية الغزو؛ بل على العكس، قاموا بلباسهم المدني بتنظيم حرب العصابات المدنية من حي إلى آخر. منذ دخول القوات العراقية إلى الكويت اعتقدت بغداد انها حصلت على دعم القادة الرئيسيين للمعارضة الكويتية. لكن احداً من هؤلاء لم يقبل بذلك. ان طائرتين كويتيتين من طراز ميراج قصفتا منذ المعارك الأولى احد مراكز قيادة الجيش العراقي في الجهرة. كما تشكّلت عدة منظمات سرية مثل منظمة تحرير الكويت وحركة ٢٥ فبراير - شباط تيمناً بتاريخ العيد الوطني للبلاد. وقد هددت هذه المنظمة في أحد بياناتها في مطلع شهر اغسطس - آب بالقول: «اننا سنهاجم اهدافاً حتى في قلب بغداد. واننا نلتزم أمام شعبنا بممارسة سياسة الارض المحروقة تحت قدمي صدام حسين الذي لن يستفيد من أي شبر في وطننا».

كما تم تداول مناشير أخرى عنوان احدها «المقاومة الشعبية». وقامت النساء الكويتيات بانشاء جريدتهن الخاصة. كل هذه الحركات نجحت في تمرير عدد من الرسائل على موجات الاذاعات السرية خاصة اذاعة الكويت الحرّة التي كانت تبث من خارج الاراضي المحتلة منذ الغزو العراقي. في الليل كان بعض النسوة الكويتيات يصعدن إلى سطوح المنازل ويرددن الشعارات المعادية مثل: «العار للغزاة». حاولت هذه المقاومة في المرحلة الأولى أن تنتظم على الصعيد العسكري. هكذا تشكّلت بتاريخ ٣٠ اغسطس - آب مجموعة مقاومة كويتية باسم، فهد الاحمد، احياءً لذكرى أخ الأمير الذي قتل في اليوم الأول للغزو. لقد تحدثت عن دبابات عراقية مدمّرة واسلحة مستولى عليها. بتاريخ ١٩ اغسطس - آب اشار بيان آخر على أن ممثل حزب الدعوة قد القى قنابل مولوتوف دمّرت عربات جيب وعربات أخرى في ضواحي الكويت. كما أكّد الشهود على أن جثث الجنود العراقيين بقيت دون أن يجمعها أحد مدة أربع وعشرين ساعة. وأن حركات تمرد جرت في الوحدات القريبة من المدينة. كان الجنود العراقيون يعتقدون أنهم جاؤوا لتحرير الكويت من غزو اسرائيلي. وقد بيّنت خطة نشرتها المقاومة الكويتية في ٢٠ اغسطس - آب بواسطة

صحفها السرّية سير عملية انتحارية بعربة ملغومة ضد مستشفى الهادي الذي جعلت منه القيادة العراقية مقراً لها لفترة من الزمن. وتوالت أعمال المقاومة يوماً بعد يوم من خطف لسيارات الأجرة العراقية وخطف الضباط وقتل الجنود والاستيلاء على الأسلحة. وقالت المقاومة الكويتية أن حمية الجنود العراقيين كانت تخف مع مرور الوقت. فقد كان هؤلاء من الشباب والاحتياطيين ينقصهم إلى حد كبير المستلزمات الأساسية للقيام بعملهم. وكانوا يضطرون غالباً لطلب الغذاء والماء من الكويتيين، بل اشترى البعض منهم «الدشداشات» تمهيداً للهرب من الخدمة. بعد أيام من الغزو تمّ ابدال هؤلاء الجنود الشباب بعناصر الحرس الجمهوري. ولم يكن الجنود العراقيون يخرجون إلا قليلاً في الليل طيلة شهر اغسطس - آب خشية ان يقتلهم الرماة الكويتيون. كانوا يبحثون دائماً عن اماكن الغذاء والماء بينما كانت المقاومة الكويتية تستطيع الصمود لأنها كانت تمتلك مخابىء لم يكن قد تمّ اكتشافها بعد. ان عدة دبابات عراقية لجأت إلى السعودية منذ شهر آب، كما بيّنت الصور والأفلام التي اعدّها سينمائيون هواة الجنود العراقيين وهم يبيعون اسلحتهم بمبلغ يتراوح بين ٢٠ و٥٠ دينار كويتي. بل ان اسرة كويتية اشترت دبابة عراقية. ويعرض فيلم استقدمه أحد الكويتيين إلى أوروبا جنود صدام حسين وهم يتدربون على الرمي بالرشاشات ضد أسماك القرش. منذ مطلع شهر أيلول كانت أوامر بغداد صريحة ونصّت على أن أي ضابط أو جندي عراقي يتعامل مع السكان الكويتيين سيتم اعدامه فوراً.

شيئاً فشيئاً، اخذت الآلة الادارية والقمعية العراقية تتوطد. واحاطت مراكز القيادة بالمدينة، إذ أقيم أحدها في فندق شيراتون وآخر في مقر السفارة العراقية. أمّا مركز القيادة الرئيسي، الذي كان يصدر الأوامر، خاصة ما يتعلق منها بالبحث عن آخر المقاومين الكويتيين، فقد حلّ في مبنى وزارة الماء والكهرباء. وبالرغم من أعمال القمع الجماعي والاعتداءات والسرقة والنهب، كأساليب يومية للمحتل العراقي من أجل تطبيع الوضع في مدينة الكويت، فإن أي مواطن كويتي لم يتعامل مع المحتل. وقد قال لنا رئيس الوزراء الكويتي، سعد العبدالله، عند مروره في فرنسا في ١٠ ايلول، أن ذلك يرفع المعنويات. واسرّ رئيس الوزراء بأنه لم يقبل أي عضو من المعارضين الكويتيين للأمير جابر أن يتعامل مع العراق. وقال ان ثلاثة من أفراد الأسرة الحاكمة ألقي القبض عليهم أثناء الغزو واقتيدوا إلى سجون بغداد وان اسرة

الأمير جابر مهددة. وقال المقربون من رئيس الوزراء، أن المساجد لعبت دوراً أساسياً في المقاومة عبر توزيع السلع الغذائية والدعوة للتضامن. وان القوات العراقية ترددت في الدخول اليها بالقوة. وكانت «الديوانيات» مراكز للمقاومة.

في نهاية شهر ايلول كان لا يزال هناك ضباط من الشرطة على رأس المقاومة. وكان من بين اعضائها بعض مناضلي حزب الدعوة الشيعي ممن كانوا تدرّبوا على المتفجرات قبل عام في مراكز ثورية ايرانية. لكن تلك المقاومة الكويتية وصلت إلى مرحلة صعبة مع مرور الزمن. فمنذ بداية ايلول تبدل الأمر، في الواقع، إلى درجة كبيرة. الحدود مع السعودية لم تعد تسمح بالتسلل مما أدى إلى مقتل عدد من الكويتيين أرادوا العودة إلى بلادهم للمشاركة في المقاومة. وأكّد اللاجئون الكويتيون القادمون إلى السعودية بأن المقاومة لن تستطيع الاستمرار أكثر من شهرين أو ثلاثة. أما السبب في ذلك فهو وجود مائة ألف جندي عراقي إلى جانب ميليشيات ومتطوعين داخل المخيمات الفلسطينية جاؤوا لدعم قوات الجيش الشعبي التي كانت قد تخلّت للمقاومة عن وسط مدينة الكويت مكتفية بالسيطرة على المداخل الرئيسية للأبنية الرسمية. من جهة أخرى عزز تعيين صدام حسين لعلي حسن المجيد كحاكم جديد للكويت موقع العراق. وبدا أن هذا الرجل الذي نشر الرعب في كردستان بواسطة الأسلحة الكيميائية قرر أن يستخدم نفس الأساليب في الكويت المحتل.

ان العراقيين المستشارين اظهروا في بداية الخريف حالة من الهيجان تبدّت عبر القرارات التي اتخذوها والقاضية باعدام أي كويتي يحمل سلاحاً نارياً وبتدمير أية بناية ينطلق منها عيار ناري على جنود صدام حسين. بل أصبح الالتحاء خطيراً إذ تمّ اعتباره بمثابة مؤشر على الحداد. وكان الجنود العراقيون يتوجهون بالسؤال للملتحين: «هل هذا حداداً على أميركم؟». اللحية هي أيضاً علامة لرجال الدين، وهؤلاء «فئة مشبوهة» في نظر نظام بغداد.

وربما إن الجنود العراقيين فكّوا زجاجات الاكسجين في فندق الصباح بغية سرقتها مما أدى إلى وفاة عدد من المرضى. كما قدّم العراقيون جائزة (١٠,٠٠٠) دينار كويتي لكل من يدلي بمعلومات تؤدي إلى القاء القبض على أحد الرعايا الغربيين في الكويت. لكن سحق المقاومة بقي الهدف الرئيسي لعلي حسن المجيد، حاكم الكويت. القادة الكويتيون كان لديهم القناعة الكاملة بأن عدداً من الشباب الذين

أعتقلوا في الكويت قد جرى اعدامهم ودفنهم في الصحراء بينما ألقي آخرون في السجون العراقية. ان شهادات عديدة عن اعدامات جرت في الاماكن العامة للعبرة تمّ تسجيلها؛ مثل شهادة طبيب كويتي روى ما رآه في مشرحة أحد المستشفيات: «كانت المشرحة مليئة بجثث شباب كويتيين قُتلوا برصاصة واحدة في رقبتهم ومنشورات المقاومة في جيوبهم. كان عمر اصغرهم ١٤ عاماً وأكبرهم ٣٠ عاماً». وعلى غرار الاساليب التي طُبقت في كردستان عام ١٩٨٧ نص قرار على أن أي شخص عمره بين ١٥ و٧٠ سنة يجري توقيفه في منطقة حساسة سيجري اعدامه بعد التحقيق معه. ويروي لاجئون وصلوا إلى لندن بأن امرأة شتمت صدام حسين أمام الجنود العراقيين قد أحرقت بطلقات البازوكا. كما أعدم طبيب واثنان من المتطوعين لأنهم لم ينجحوا في انقاذ حياة أحد ضباط الحرس الجمهوري. كان خوف الجنود العراقيين من القيام بأعمال بشعة يتضاءل، فقد كان لديهم مطلق الحرية في النهب والاغتصاب والقتل. لقد عمل المجيد، ابن عم صدام حسين، منذ عام ١٩٨٤ في وزارة الامن في بغداد حيث مارس طرقاً في التعذيب ازعجت وزير الداخلية آنذاك سعدون شاكر. وعمل في الكويت، بغية تطبيع الوضع هناك، مع علي عبد الغني السفير العراقي السابق في المانيا الاتحادية والذي اشرف على شراء المنتوجات الكيميائية عن طريق الرشوة والتي جرى تسليمها لمعامل الغاز الحربي. ان هذا الدبلوماسي المثير للفضول، والذي كان يرتدي غالباً زيّه العسكري، تخلّى عن منصبه في بون دون انذار وعاد إلى بغداد قبل شهر من الغزو. انه أحد مفاتيح جهاز الاحتلال إذ كان سفيراً للعراق في الكويت ويعرف كل البنى الاساسية للامارة. هذان الحاكمان حلاّ مكان العقيد علاء حسين الذي اختفى منذ ٧ اغسطس - آب بعد أن كان صدام حسين قد عينه رئيساً لوزراء حكومة الكويت الحرّة. وفي ٣٠ اغسطس - آب، اخطرت منظمة العفو الدولية، فرع فرنسا، في تقرير لها، المنظمات الدولية حول الوضع في الكويت، بعنوان: «العراق، القوات العراقية تقوم بعمليات قتل وتعذيب في الكويت». لقد اشارت الشهادات المجموعة من عدد من الضحايا إلى وجود عمليات اعتقال وتعذيب واعدام. وقال بعض الشهود أن القوات العراقية لم تحصر اعتقالاتها بالاشخاص المشبوهين بانتمائهم للمقاومة ولكن طالت الرجال والنساء والاطفال الذين وُجدت بحوذتهم كتابات أعتبرت بانها معادية، أو وُجد بحوذتهم علم الكويت أو صور الأمير جابر. الحيازة على هذه الاشياء استحقت عقوبة

الاعدام. كما تم اعتقال او قتل اشخاص قاموا بوضع صور الأمير مكان صور صدام حسين. بعض السجناء جرى احتجازهم في مراكز الشرطة أو المدارس بينما نُقل آخرون للبصرة حيث توجد أبنية تعذيب الحرس الجمهوري. لقد أكّد عدد من الذين اطلق سراحهم أن اجهزة الاستخبارات العراقية تمارس شتى أنواع التعذيب من ضرب على الأماكن الحساسة من الجسد ونتف للشعر ولاظافر اليدين والأرجل، مع التهديد بالاعتداءات الجنسية والقتل.

ان منظمة العفو الدولية لم تذهب أبعد في نشر تفاصيل التعذيب كي لا يتعرض أهالي الضحايا لعمليات الانتقام. لكن التقارير المكدّسة لدى لجنة حقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة تؤكد أنه جرى قتل مراهقين تبلغ أعمارهم خمسة عشر عاماً وألقيت جثثهم أمام منازلهم. الكثير من هذه الجثث أُحرقت كي لا يترك الجناة أثراً وراءهم. وكان الاطباء في المستشفيات يُرغمون على تسليم شهادة وفاة عادية تنص على موت المعنيين بعد دخولهم المستشفى، مع العلم ان الجنود العراقيين هم الذين جاؤوا بجثث أولئك الشباب بعد أن أنهت رصاصة في الرأس حياتهم. وشهد حرم جامعة الكويت شنق عدد من المشكوك بمعارضتهم لضم الكويت من قبل العراق. كانت التعليمات الصادرة للجنود العراقيين المكلفين بالاعدامات واضحة وتنص على وجوب الحصول على أوراق الضحايا قبل قتلهم او ترحيلهم. هكذا كانت القوات الخاصة للحرس الجمهوري تسعى لتحقيق هدفين أولهما الولوج الى داخل مبنى وزارة الداخلية الكويتية والاستيلاء على جوازات السفر الصالحة للاستعمال والاختام الادارية للادارة ومعلومات الاعلام الآلي. ان النظام العراقي فكر أنه يستطيع القيام بعمليات تسلل على المدى الطويل من خلال حصوله على الأوراق الرسمية والاختام الادارية للادارة الكويتية. لكن الحكومة الكويتية في المنفى، اعطت أولاً بأول للمصالح السرية العربية والغربية أرقام جوازات السفر المسروقة، بينما كان النظام العراقي يفكر، مثلاً، بارسال لاجئين كويتيين مزيفين إلى البلاد العربية المعتدلة، أو الى اوروبا. كما كان العراق يريد احلال مواطنين عراقيين، يجري استقدامهم من البصرة مكان الكويتيين الأصليين، وذلك تحسباً لاحتمال اجراء «اقتراع حول حق تقرير المصير بالنسبة للشعب الكويتي» باشراف صدام حسين. اعمال القمع الجماعية ترافقت أيضاً مع سياسة السلب والارض المحروقة التي شجبها محمد ابو الحسن ممثل الكويت لدى الامين العام للامم المتحدة. شهادات الدبلوماسيين الذين

ظلّوا في الكويت بعد احتلالها دعمت التقرير المقدّم. وكتب الدبلوماسي انه اشترك في عملية السيطرة بالقوة على الكويت جنود وتقنيون وعملاء أمن من العراق. وأشار ممثل الكويت لدى الأمم المتحدة إلى أنه «في العديد من الحالات قامت القوات العراقية بفك وخطف وتدمير منشآت وتجهيزات ذات أهمية حيوية بالنسبة للبلاد».

لم يكتف العراقيون بسلب البنوك والمؤسسات المالية بما تحتويه من أموال مودعة، لكنهم نقلوا الى بغداد عدة آلاف من السيارات وقطع الأثاث والاعتدة الالكترونية ومخزونات المواد الغذائية والادوات الطبية، ووضعوا كل هذه الاشياء برسم البيع في بغداد. لقد طالت عمليات النهب أيضاً العربات الخاصة والمحولات الكهربائية والمراكز الهاتفية والتجهيزات العلمية والمخابر واجهزة الطباعة وتجهيزات الاذاعة والتلفزيون وآلات المخابز الكهربائية الاوتوماتيكية. بل سرق العراقيون ايضاً حيوانات مزارع الدولة وحديقة الحيوانات. وأخليت منازل الاسرة الحاكمة وكبار الاغنياء من كل ما فيها من اثاث. وقُلب بيت ابو اياد رأساً على عقب. كما أخليت المستشفيات بغية مداواة أفراد الجيش العراقي، وارسلت ادوات التصوير الشعاعي والادوية والاجهزة الحديثة التابعة لوزارة الصحة ولشركة الصناعات الدوائية في الكويت إلى بغداد.

ان عدة آبار نفط خُربت منذ شهر ايلول. ولُغمت الشواطىء بالمتفجرات التي استقدمتها شاحنات الحرس الجمهوري.

لم ينجُ أي شيء من عملية السطو المنظّم تلك؛ فقد افرغ جنود بغداد خزانات منزل السفير الفرنسي من كل محتوياتها عندما دخلوا منزله عنوة بتاريخ ١٤ ايلول. انّ سيدة أميركية متزوجة من مواطن كويتي، هي ديبورا هادي، امام لجنة حقوق الانسان التابعة للكونغرس، وضمن اطار عدة شهادات أخرى بتاريخ ١٤ اكتور - تشرين أول، روت والدموع تملأ عينيها، ما فعله العراقيون بسيدة كويتية حامل كانت قد ارادت دخول المستشفى لولادة جنينها. لقد بقر الجنود العراقيون بطنها بحرابهم وهم يسندونها بها على الجدار.

ثمة شهادات اخرى لفرنسيين هما جان بيير غالتييه، القائم بالأعمال في سفارة فرنسا بالكويت، والعقيد ادوار كريسبان الملحق العسكري في السفارة. لقد أكّد «غالتييه» في تقرير قدّمه لوزارة الخارجية الفرنسية بأن العراقيين «خرقوا ابسط حقوق الانسان». ان هذا التقرير الذي اطلع عليه رولان دوما وزير الخارجية

وفرانسوا ميتران كان له اثر كبير في سياسة الحسم التي اختطها رئيس الجمهورية في معارضته لصدام حسين. امّا العقيد ادوار كريسبان فقد كتب في رسالة «تلكس» وجهها لجان بيير شوفنمان، وزير الدفاع الفرنسي السابق، ما مفاده: «ان اتصالات السفارة مع فرنسا ستنقطع بالتأكيد يوم ٢٤ آب. والملحق العسكري يأمل ان تصله قبل ذلك التاريخ التعليمات والتوجيهات التي تسمح له بالتصرف بشكل أفضل حيال مصالح فرنسا». في نهاية الرسالة كتب العقيد كريسبان الجملة التالية: «هناك ١٥٠ مواطن فرنسي لاجئين عند قاطن المنزل والقوات العراقية تبحث عنهم». وفي أحد تقارير حقوق الانسان جاء ما يلي: «ان القوات العراقية تركت عرضة للموت أكثر من ٣٠٠ طفل من الخدّج (المولودين قبل اوانهم) عندما سرقت الحاضنات الخاصة بهم من المستشفيات الرئيسية الثلاثة للعاصمة الكويتية». هذه المعومات تمّ تكذيبها فيماً بعد. لكن بالمقابل أكدّ عدد من الاطباء استجوبتهم منظمة العفو الدولية انهم شهدوا وفاة العديد من الاطفال وقال أحد الاطباء انه شارك في دفن ٧٢ منهم في مقبرة مجاورة. وقدمت المنظمة تقريرها لجميع أعضاء مجلس الأمن وكذلك للحكومة العراقية.

ان المنظمة التي لم تأخذ موقفاً سياسياً حيال مسألة الاحتلال دعت من جديد سلطات بغداد للسماح للجنة الدولية للصليب الأحمر بالذهاب إلى الكويت كي يستطيع اعضاؤها تقديم العون والحماية لكل شخص يحتاج اليهما.

كان التقرير يعتمد على معطيات طبية وعلى نقاشات معمّقة مع أكثر من ١٥٠ شخصاً من عدة عشرات من البلدان. لقد تقاطعت جميع المعلومات. ومنذ الغزو ذهب جميع محققو المنظمات الدولية الانسانية إلى السعودية ومصر والبحرين وتحادثوا مع الضحايا ومع الاطباء الذين عالجوهم وكذلك مع اقربائهم ومع شهود آخرين. كما سألوا مئات الاشخاص من عدة بلدان. ان منظمة العفو الدولية تلقت عدة شهادات قال اصحابها أن الضحية كانت تُساق الى امام منزلها، وبعد أن يتعرف عليها الأهل، تُؤخذ منها اوراقها وتُعدم بطلقة في الرقبة. الشخص المسؤول عن اشكال التعذيب والبشاعات تلك، اي علي حسن المجيد، اختفى فجأة. هل قتلته اجهزة الاستخبارات العراقية بغية تجنب أية شهادة؟ بكل الاحوال استدعي اليوم من قبل صدام حسين كوزير للداخلية كي يعيد استتباب النظام بعد الحرب.

في ٣ اكتوبر - تشرين أول، زار الرئيس العراقي صدام حسين «مقاطعته»

التاسعة عشرة للمرة الاولى. لقد نصح بـ« تنظيف » المدينة من كل الشهود الذين يستطيعون ادانة العراق لخرقها حقوق الانسان. كانت المدينة خاوية من أي حضور عند زيارته الاولى. واجتاز الرئيس والموكب المرافق له شوارع المدينة المقفرة من أجل تفقد بعض المواقع العسكرية على الشاطىء. وعقد صدام حسين اجتماعاً في مكان ما مع المسؤولين العسكريين. مع ذلك نعلم اليوم أنه قد زار قصر الأمير وجلس على اريكته.

ان القمع العراقي لم يستهدف المدنيين الكويتيين فحسب. إذ أن خمسة عشر جندياً من الحرس الجمهوري رددوا بصوت عالٍ شعارات للعراق بعد أن اقتحموا بالقوة حرم السفارة الفرنسية، واصطحبوا معهم خارجها الملحق العسكري الفرنسي ادوار كريسبان وثلاثة مواطنين فرنسيين غير دبلوماسيين. بعد فترة وجيزة اطلق سراح الملحق العسكري بينما تمّ تحويل المواطنين الفرنسيين الثلاثة إلى فندق ميليا منصور في بغداد. أمام رد الفعل الفرنسي العنيف ادعى صدام حسين أن الملحق العسكري كان موجوداً في منزل خاص تملكه امرأة من الاسرة المالكة الحاكمة، سابقاً، في الكويت. كان هذا بمثابة تضليل اعلامي جديد لبغداد، نوع من نصف الحقيقة ونصف الكذب، لأن مبنى السفارة الفرنسية كان مستأجراً بالفعل منذ عدة سنوات من اميرة كويتية. ومهما يكن غرض تلك العملية، أكانت خطأً مقصوداً أم امتحاناً للموقف الفرنسي الحاسم، فإن مجلس الأمن اصدر بسببها قراراً بالاجماع يدين انتهاك حرمة المباني الدبلوماسية لفرنسا وكندا وهولندا وبلجيكا. ان دبلوماسيي المجموعة الدولية بذلوا أقصى جهودهم للصمود يوماً بعد يوم حتى نضب ما لديهم من مياه وغذاء بل واعصاب بالنسبة للبعض منهم؛ هذا بالرغم من الحصار الذي كانت تضربه قوات صدام حسين ومدرعاته على دوائرهم الى جانب عناصر مدنية تمّ استقدامها من بغداد خصيصاً لتصعيد عمليات الضغط النفسي. الهولنديون اغلقوا مقرّهم، الذي كان يوجد في الطابق الثالث لبناية مكرّسة للمكاتب، بعد محاولات اضرام النار من قبل سجناء عراقيين. اما القائم بالاعمال الفرنسي فقد اشتكى من « مشاكل القذارة داخل السفارة » بسبب عدم امكانية الاغتسال منذ عدة أسابيع. إذ اصبح استخدام مياه الشرب يتم بتقتير كبير (بالقطّارة) بعد أن قطع العراقيون الماء والكهرباء عن مبنى السفارة. بل ان العراقيين هددوا بتسميم الماء بعناصر حيوية إذ انهم نجحوا بفتح انبوب تفريغ صهريج الماء العذب من الهواء. ان

حرب السفارات هذه غيّرت الصورة الشائعة عن الدبلوماسي الغربي. فهذا لم يعد يُقدم بلباسه الأنيق وهو في طريقه إلى حفل عشاء خاص، وانما كرجل بسيط يتنزه بلباس البحر في بهو مكان اقامته وحيث تبلغ درجة الحرارة ٤٥ درجة في الظل. رجلٌ يطرح على نفسه التساؤلات عن كيفية التوفير في المياه والكهرباء والاكتفاء بقدر قليل من لبن الزبادي لوجبة عشائه كل مساء.

بعد «حرب الازرار» جاءت «معركة الماء». بتاريخ ١٧ اكتوبر - تشرين أول نجح جان بيير غالتييه، القائم بالأعمال الفرنسي، مع بعض الاصدقاء والعاملين في السفارة بأن «يسرق من بين ايدي» العراقيين حوالي ١٠٠٠ ليتر من مستودع مياه المركز الثقافي الفرنسي. لقد مدّ السيد القائم بالأعمال بمساعدة حراس الأمن وموظف شيفرة السفارة انبوباً حتى المستودع تحت غطاء اوراق الاشجار. وتمّ تخزين الماء «المبارك» في حوض الحمام بل في ادراج المكاتب! موظف شيفرة السفارة بعث برموز الرسالة التالية إلى باريس: «اننا نصنف الماء تحت خانة سرّي خاص بالدفاع». في تلك الاثناء كان الابتزاز مستمراً في بغداد حول الرهائن الذين جرى استخدامهم بصورة ما كدروع بشرية ضد «درع الصحراء».

* * *

ستيوارت لوكوود عمره ٥ سنوات. وجه هذا الطفل البريطاني اصبح رمزاً لاحتجاز صدام حسين عشرة آلاف من الابرياء.

في ٢٩ اغسطس - آب وضع حاكم بغداد يده على كتف ذلك الغلام اثناء أول لقاء عام له أمام عدسات التصوير مع الرهائن الغربيين الذين كان يقدّمهم كضيوف.

الرأس المذعور لذلك الطفل غدا بسرعة بمثابة الصورة الحيَّة لابتزاز صدام حسين. لقد قال له الحاكم العراقي: «هل تعلم ان حظك بتناول قدر أهم من الكورنفلاكس هو أكبر بكثير من حظ الاطفال العراقيين الذين هم بنفس عمرك والذين يعيشون في العراق».

ان قضية الرهائن اعطت لصدام حسين فرصة محاولة زرع الشقاق في صفوف التحالف المعادي للعراق، وأن يلعب بشكل كبير على الرأي العام الغربي عامة والفرنسي خاصة.

منذ ٢١ آب قرر صدام حسين ارسال عدد من الرهائن إلى المواقع الاستراتيجية. هذه المواقع، المدنية والعسكرية، ضمّت مصانع سرية كان العراق يصنّع بها اسلحته

الكيميائية وتجهيزات الطرق التي تؤمن احتياجات الجيش العراقي في الكويت. وقد استطاع عدد من الرهائن تحديد الأمكنة التي كانوا يتواجدون بها بدقة عندما استجوبهم فيما بعد الدبلوماسيون ومصالح الاستخبارات. وتمثّلت تلك الأماكن في كركوك، شمال بغداد، والمركز الاستراتيجي للصناعة النفطية العراقية؛ وفي الزبير، جنوب البصرة، حيث يوجد مصنع كيميائي هام؛ وفي الناصرية، جنوب شرق بغداد، التي تضم محطة كهربائية كبيرة؛ وفي البصرة المدينة الثانية في العراق؛ وفي سلمان باك، حيث يوجد المصنع الرئيسي للاسلحة الكيميائية؛ وفي شوباية، القاعدة الجوية الاستراتيجية؛ وفي سامراء، على بعد ١١٠ كيلومتر شمال بغداد، في مصنع للأسلحة الكيميائية. رهائن آخرون اقتيدوا الى قواعد عسكرية مثل الحبّانية على بعد ٧٠ كيلومتر عن بغداد؛ وآخرون ايضاً الى مركّب اوزيراك النووي جنوب شرق العاصمة العراقية.

كان أغلبية «ضيوف» صدام حسين يعيشون في ظروف صعبة داخل المواقع الاستراتيجية. طيلة اربع وعشرين ساعة، تعرّضوا لضوضاء الآلات ولحر النهار وبرد اليل بشروط صحية صعبة وحد ادنى من الغذاء.

العديد من الرهائن عانوا من اضطرابات نفسية وبعضهم من اضطرابات هضمية بعد عودتهم إلى الغرب. وتعرّض الرهائن الاميركيون الذين اقتيدوا إلى مصنع المنتوجات الكيميائية شامادیکس في القيّم لخطر التسمم من قبل سجّانيهم.

لقد حاول حاكم بغداد، بحسه المكيافيلي، شق جبهة الغربيين. إذ اعلن في ٢٣ آب الافراج قريباً عن بعض الرهائن الفرنسيين. عندئذ جددت فرنسا تضامنها فوراً مع بقية البلدان التي يحتجز العراق بعض مواطنيها كرهائن.

وسائل الدعاية العراقية حاولت، من جهتها، أن تفهم الرأي العام الانكلوسكسوني ان فرنسا تقوم باجراء مفاوضات سرية من أجل اطلاق سراح رهائنها، ورهائنها فقط. في الواقع، ان الجدل الذي ثار آنذاك جاء من خطأ في التقدير لدى منظمة التحرير الفلسطينية. إذ اعلن الناطق الرسمي باسم المنظمة في تونس، بسام ابو شريف، على موجات الاذاعة والتلفزة الفرنسية بأن العراق اعطى لمنظمة التحرير الفلسطينية كل التأكيدات بأن «الفرنسيين سيعاملون كأصدقاء» وان أغلبية رهائننا سيتم اطلاق سراحهم. هذا الاعلان ازعج الدبلوماسية الفرنسية. وكذبت وزارة الخارجية بشكل قاطع انها تصرّفت على انفراد في هذه القضية.

ما هو الدور الحقيقي لمنظمة التحرير الفلسطينية في المفاوضات؟ لا شك أن المنظمة الفلسطينية عملت في صالح جميع الرهائن الغربيين وليس الرهائن الفرنسيون وحدهم. هذا ما أكده لي أبو اياد، الشخصية الثانية في م.ت.ف. عندما قابلته في اثناء اقامة لي في تونس، والذي اغتيل فيما بعد في شهر يناير - كانون الثاني ١٩٩١. كما كان لكلود شيسون، سفير فرنسا الى تونس، اتصالات مع ياسرعرفات ومع القيادة السياسية لـ م.ت.ف. بتاريخ ١٨ آب أوصل ياسر عرفات لباريس رسالة من بغداد مع طلب أن تبقى سرية. قال: ان الفرنسيين سوف يُعاملون قبل كل شيء كأصدقاء من قبل العراق الذي لن ينسى ما فعلته فرنسا في الماضي من أجل التعاون بين البلدين.

لكن الناطق الرسمي باسم م.ت.ف تحدث يوم الأحد ١٩ علناً عن الرسالة كي يعطي أهمية أكبر للدور المعتدل الذي تلعبه المنظمة. وكانت باريس تدرك ان صدام حسين يلعب لعبة مزدوجة. فبينما كان يحاول ان يبلغ باريس عن طريق م.ت.ف رسائل مهدئة كان الرهائن الفرنسيون يُقادون، مثل زملائهم من الاميركيين والبريطانيين، إلى المواقع الاستراتيجية.

ان باريس، التي أعلمت بهذا الوضع، قررت ان تذهب في تطبيق الحصار إلى النهاية، فلعبة صدام حسين المزدوجة هذه دفعت فرانسوا ميتران الى معسكر المتشددين الى جانب جورج بوش ومرغريت تاتشر.

ما بين ١٠ و١٧ ايلول، وبالرغم من الازمة بين باريس وبغداد، استدعي ممثلو عدة شركات كبيرة محتجزين كرهائن إلى مقابلة نائب وزير الصناعة العراقي السيد الجهاني. لقد اقترح عليهم سراً عقوداً جديدة مع العراق خاصة في مجالات الكيمياء والبتروكيمياء. وذكر نائب الوزير، باسم صدام حسين، عن استعداد العراق لدفع عمولات في الخارج ودفع قيمة تلك العقود نفطاً فيما بعد.

قيمة مجموع العقود المقترحة في ذلك الاسبوع من قبل الحكومة العراقية بلغت أكثر من ٨ مليار دولار. وقامت الحكومة العراقية بغية اقناع المؤسسات، باعطاء تأشيرات خروج كمكافأة لممثلي الشركات الفرنسية وطلبت منهم الذهاب إلى باريس لمحاولة اقناع رؤساء شركاتهم.

بنفس الوقت أكّد وزير النفط العراقي لاندريه جانييه القائم بالأعمال الفرنسي في بغداد «ان العراق كان دائماً مستعداً لتسديد الديون المستحقة لفرنسا»، أي

أكثر من ٢٨ مليار فرنك شريطة وضع نظام للتسديد بالنفط. لم تعطِ باريس، بالطبع، اي جواب على اقتراح صدم حسين.

بتاريخ ٢٥ سبتمبر - ايلول، تلقت وزارة الخارجية الاميركية مذكرة دبلوماسية عراقية بواسطة السفير الاميركي في بغداد، جاء فيها: «ينص القرار ٣٤١ الصادر عن مجلس قيادة الثورة ان ايواء أي اجنبي بقصد تهريبه من السلطات العراقية يُعتبر بمثابة جريمة تجسس. وسوف تطّبق عقوبة الاعدام على الاشخاص الذين يقترفون هذه الجريمة». وختمت المذكرة العراقية قائلة: «ان الوزارة ترغب أن تخبرها البعثة الأميركية عن وجود أي من مواطنيها أو أي مواطن مهما تكن جنسيته داخل السفارة أو داخل أحد مبانيكم الدبلوماسية، أكان هؤلاء المواطنون لديهم عقود مع الحكومة العراقية أو يعملون مع شركات أجنبية عاملة في العراق».

هذا الاستفزاز العراقي الجديد فهمت واشنطن طابعه الاستفزازي. وعلّق عليه جيمس بيكر موجهاً الحديث لجورج بوش: «انه يثير النفور».

بتاريخ ٢٢ اكتوبر - تشرين اول اراد صدام حسين أن يلعب حتى النهاية ورقة «تمايز» الموقف الفرنسي في أزمة الخليج وبالتالي حاول أن يبذر الخلاف بين باريس وواشنطن ولندن. ففي بعد ظهر اليوم التالي صادق البرلمان العراقي على اطلاق سراح جميع الرهائن الفرنسيين المحتجزين في العراق وفي الكويت. وكان رئيس المجلس سعدي مهدي صالح قد رفض اقتراحاً بذلك تقدم به نائبان متواطئان في تلك المسرحية المأساوية - الهزلية بعد ساعتين من النقاش. وقال انه قد تمّ تأجيل القرار إلى أن تحددباريس بوضوح موقفها من أزمة الخليج. أخيراً تمت المصادقة باجماع الـ٢٤٢ نائباً الحاضرين وبرفع الأيدي مع الاشارة إلى أن ذلك القرار قد تمّ اتخاذه بشكل استثنائي تكريماً لموقف الشعب الفرنسي المعادي لخطوات الرئيس بوش. وكذلك تكريماً لـ«مبادرة الرئيس الفرنسي من أجل ايجاد تسوية لمشاكل المنطقة عن طريق الوسائل السلمية»؛ اشارة إلى الخطاب الذي ألقاه فرانسوا ميتران امام الأمم المتحدة في نيويورك بتاريخ ٢٤ ايلول ١٩٩٠. وقد قال طارق عزيز، وزير الخارجية العراقي، للصحفيين: «نعرف ان فرنسا تفضل ايجاد تسوية سلمية لمشاكل الشرق الأوسط. وتتبنى موقفاً متقدماً حيال القضية الفلسطينية التي يشكل حلّها، باعتبارها قضية أساسية، مفتاحاً لكل المسائل المعلقة حالياً. ان موقف الحكومة الفرنسية يشهد تطوراً حقيقياً ويعكس توجهاً نحو تعزيز حل سلمي». لكن الرئاسة الفرنسية لم

تخضع أمام محاولات صدام الجديدة الرامية إلى شق التحالف. فبعد اعلان اطلاق سراح الرهائن أكدّت باريس من جديد حزمها الكامل حيال العراق.

مع ذلك لم تلق بغداد اسلحتها. فقد كتبت جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٦ اكتوبر - تشرين أول ما مفاده: «ان مصادر شديدة الاطلاع، قريبة جداً من وزارة الدفاع الفرنسية، قالت بأن: «الضغط العام المتعاظم في فرنسا على الحكومة كان المحرِّض الذي فتح الباب عريضاً أمام المسؤولين في باريس كي يفكروا بحل يسحبوا بموجبه بعض قواتهم من منطقة الخليج، هذا الانسحاب الذي يمكن أن يبدأ في غضون الأيام المقبلة». يا للكذب!

في باريس حاولت الدائرة الصحفية في السفارة العراقية اشاعة تلك المعلومات في الأوساط الصحفية، كما حاولت ذلك أيضاً عبر بدائل ذات طابع سياسي أكثر.

سوق الرهائن، كما كانوا يسمونه في وزارة الخارجية الفرنسية، كان له على الأقل فضيلة اظهار الدقة الاستثنائية في عمل الموظفين الدبلوماسيين في السفارة الفرنسية في بغداد. كان جانيبه، القائم بالأعمال، يقوم بتحضير رحيل ٣٣٠ رهينة فرنسية (من غرابة قدر جانيبه أنه تواجد منذ سنوات في المناطق الأكثر خطورة في الشرق الأوسط، في بيروت عام ١٩٨٢ وفي العراق ١٩٩٠). كان القلق يسود في واشنطن ولندن نتيجة الوضع النفسي الذي وجد عدد من الرهائن الاميركيين والبريطانيين انفسهم فيه. وقد قال طبيب انكليزي، أفرج عنه مع مجموعة من الطاعنين في السن أو المرضى، لوزارة الخارجية: «شهدنا في الواقع مضاعفات لامراض ساعدت عليها الكآبة، كما ان عدة حالات امراض سكري واضطرابات قلبية ظهرت حديثاً بين الرهائن».

بعض الرهائن الاميركيين عانوا، بصورة خاصة، من ضغوطات نفسية كبيرة جداً. مع ان وزارة الخارجية الاميركية أوصلت تعليماتها منذ بداية الأزمة عن طريق سفارتها. كانت تلك التعليمات مشابهة لتلك التي اعطيت للدبلوماسيين الاميركيين المعرّضين لخطر أن يصبحوا رهائن. وقد نُشرت في كتيب بعنوان: «الارتهان: الاعداد والصمود».

العناوين المدوّنة في ذلك الكتيّب تدل على محتواه. تلك العناوين هي: تحليل المخاطر، الخيارات أمام الفرد المستهدف، كشف المراقبة، صمود الرهينة، المقاومة اثناء الاستجوابات.

أما الفصل المعنون «احتياطات ضد الوقوع كرهينة» فإنه ينقسم إلى أربعة أبواب: الاحتياطات الفردية، الاحتياطات العائلية، الأمن في المنزل، الأمن في وسائل النقل.

من جهة أخرى يقدم الكتيِّب تحليلاً دقيقاً لآلية الوقوع كرهينة خلال مراحلها الثلاث: القبض على الرهينة، نقلها ثم سجنها. كيف ينبغي التصرف خلال هذه المراحل؟ وهل ينبغي اظهار ارادة التماسك ام الخضوع؟

«لا تعتبروا انفسكم رامبو» تلك هي في الواقع النصيحة الاولى المقدّمة للدبلوماسيين والرعايا الاميركيين. هذه الطريقة في مقاربة الامور نجدها في الملزمة التي تحدد بدقة الصفتين الاوليتين للأميركي الذي يقع كرهينة بالرصانة وطأطأة الرأس. المطلوب هو التأقلم تماماً مع الوسط المحيط. ان النصائح المعروضة بكثرة على طول صفحات ذلك الكتيب تطالب أيضاً بالامتناع عن أية اثارة.

لقد تمّ التعرض في الكتيّب لكل اشكال سوء المعاملة المعنوية والمادية. الأمر الاساسي المطلوب التقيّد به فوق كل شيء هو عدم كشف سر من اسرار الدولة او تعريض حياة مواطن اميركي آخر للخطر. أمّا بالنسبة لمسائل علاقات الصداقة التي تنشأ احياناً مع مرور الأيام بين الخاطفين والرهائن، ولما يسمّى بـ«عرض ستوكهولم»، فقد كانت تعليمات الكتيّب واضحة وآمرة وتنص على عدم التصالح ابداً مع محتجزي الرهائن وعدم توقيع تصريحات معادية لسياسة الولايات المتحدة.

الفصل الثالث
الحرب والسلام

بتاريخ ١٥ آب ارسل صدام حسين رسالة للرئيس الايراني يعرض فيها عليه السلام. وقد كتب الرئيس العراقي: «بقرارنا الحالي اصبح كل شيء واضحاً، ولم يبق أمامنا سوى ان ندفع الأمور قدماً إلى الأمام بتوقيع وثيقة تفتح لنا آفاق حياة جديدة يحكمها التعاون على أساس مبادىء الاسلام وحيث يحترم كل منا حقوق الآخر ونستطيع أن نبعد عن شواطئنا مثيري الاضطرابات. بل وربما تعاوناً من أجل أن نجعل من الخليج بحيرة سلام وهدوء خالية من كل الاساطيل والقوى الاجنبية التي تترصدنا عند المنعطف وفي جميع ميادين الحياة الأخرى. الله أكبر والحمد لله».

ان خشية الوصول إلى تحالف بين طهران وبغداد أقلقت العواصم العربية وبلدان مجلس تعاون الخليج. وتحدث الرئيس المصري من جهته عن «نقص نزاهة صدام حسين» وعن مناوراته التسويفية التي وصلت إلى حد «الركوع أمام الرئيس الايراني طلباً للعفو والغفران».

كان صدام حسين قد اعلن في خطاب ألقاه بتاريخ ١٢ آب أنه مستعد للانسحاب من الكويت مقابل اجراء المفاوضات حول جميع مشاكل المنطقة والانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة وانسحاب سوريا من لبنان.

واقترح ياسر عرفات، رئيس م.ت.ف، من تونس خطة من خمس نقاط تنص بشكل خاص على إحلال قوات تابعة للبلدان العربية مكان القوات الاجنبية في الخليج؛ وعلى رفع العقوبات المقررة ضد العراق وتطبيقها على أية دولة أخرى تمتنع عن الانسحاب من الأراضي التي تحتلها.

وفي الوقت الذي كان فيه الملك حسين يتابع بحثه دون جدوى عن ايجاد حل دبلوماسي، اتفق الاميركيون والسوڤييت على تنسيق مواقعهم. جورج بوش اقترح

على غورباتشيف اللقاء في هلسنكي بتاريخ ٩ ايلول. ذهب الرئيس السوڤييتي إلى فنلنده برفقة المارشال سيرجي اكروميف الذي جلب معه ملفاً سرياً عن الجيش العراقي وقدراته العسكرية. وقد اسرّ لمسؤولين في وزارة الدفاع الاميركية احساسه عن الروح السائدة لدى الجنرالات العراقيين، قال: «سوف يكونون مرغمين على استخدام كل الاسلحة، بما في ذلك الاسلحة غير التقليدية، اذا امرهم صدام حسين بذلك».

بعد ٦ ساعات من النقاش توصل جورج بوش وميخائيل غورباتشيف إلى المحافظة على التحالف الدولي ضد العراق سليماً. وكان البيان الصادر صريحاً حول هذه النقطة: «اننا متفقون على أنه لا يمكن السماح بالاعتداء العراقي على الكويت».

لقد طلب غورباتشيف من بوش أن «يحابيه» ويترك «بريماكوف» أفضل دبلوماسي سوڤييتي في العالم العربي، يقوم بمحاولاته لايجاد حل خلال فترة من الوقت. وكان «بريماكوف» المراسل السابق لصحيفة البرافدا في الشرق الأوسط، قد ذهب مراراً إلى بغداد حيث حاول أن يجنّد طارق عزيز، وزير الخارجية الحالي، للعمل مع جهاز الاستخبارات السوڤييتية، عندما كان مديراً لتحرير الجريدة الناطقة باسم حزب البعث.

وفي شهر اكتوبر - تشرين اول ١٩٩٠ عاد الى بغداد برفقة نائب رئيس مجلس الوزراء، ايغوربيلوسوف، للقاء «صديقه». لقد ارسل غورباتشيف موفديه من أجل توقيع اتفاق يسمح بعودة ٧٨٣٠ خبير سوڤييتي عاملين في العراق إلى الاتحاد السوڤييتي.

في قاعة الشرف، بمطار بغداد، حذّر طارق عزيز بريماكوف قائلاً: «ان صدام حسين لن ينحني، حتى أمام ضغوطكم، انتم السوڤييت».

بتاريخ ٢٧ تشرين الأول عاد بريماكوف الى بغداد مرّة أخرى وقابله صدام حسين. لكن فاجأه بدعوة جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة العراقية الى القصر الجمهوري، ووجه الحديث له مازحاً: «اننا منقسمون فيما بيننا بين صقور وحمائم، كما هو الأمر عندكم».

عاد الدبلوماسي السوڤييتي الى موسكو يخامره شعور بأن العراق يستعد لحرب. وقد اخبر الكرملين باريس سراً بالوضع النفسي للرئيس العراقي.

بتاريخ ١٤ نوفمبر - تشرين الثاني، عشية اليوم الذي كان ينبغي أن يناقش فيه مجلس الأمن تاريخ الانسحاب العراقي، اقترح ابراهيم الصوص، ممثل م.ت.ف في باريس، على ميشيل ڤوزيل رئيس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان الفرنسي، زيارة بغداد للاستماع الى حجج صدام حسين.

نقل النائب الاشتراكي الفكرة الى رئاسة الجمهورية في قصر الاليزيه. لم تعطِ الرئاسة الضوء الأخير، ولم تمانع صراحة، وتركت النائب يقوم بالمهمة بصفته الشخصية وليس كموفد رسمي أو شبه رسمي كما قال أغلب المستشارين الدبلوماسيين لرئيس الجمهورية.

بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني تناول ميشيل ڤوزيل طعام الغداء في تونس برفقة السفير الفرنسي هناك والمسؤولين السياسيين الرئيسيين في م.ت.ف، ياسر عرفات وفاروق قدومي وأبو مازن.

قال عرفات: «يجب ترك منفذ مفتوح لصدام حسين. والوسيلة الوحيدة لامكانية اجراء حوار، هي الربط بين الانسحاب من الكويت والمشكلة الفلسطينية».

في اليوم التالي، اتخذ مجلس الأمن قراراً يقضي بامكانية استخدام القوة ضد العراق إذا لم تنسحب قوات صدام حسين من الكويت قبل تاريخ ١٤ يناير - كانون ثاني ١٩٩١. الرئيس العراقي رفض مباشرة هذا الانذار.

المفاجأة الدبلوماسية جاءت من الرئيس الاميركي جورج بوش الذي اقترح فتح «حوار مباشر» مع العراقيين. وبدأت المناقشات لسبر النوايا.

يوم الثلاثاء، ٩ يناير - كانون ثاني ١٩٩١ تزينت مداخل فندق انتركونتننتال في جنيف بحمامة بيضاء طولها حوالي ١,٥ متر وبمنقارها غصن زيتون أخضر. إذ هناك كانت ستبدأ مفاوضات الفرصة الاخيرة بين جيمس بيكر وزير الخارجية الاميركي وطارق عزيز وزير الخارجية العراقي.

لم يجر اغفال أي تفصيل مهما كان صغيراً. الصالون الفارسي، الذي يستخدم عادة لاعتماد تمثيل الألف صحفي الذين قدموا إلى العاصمة السويسرية، سُمي بالصالون السويسري كي لا تنخدش حساسية الدبلوماسيين.

في قاعة المفاوضات، كان برزان التكريتي، رئيس البعثة العراقية لدى الأمم المتحدة في جنيف واخ صدام حسين، يجلس إلى يمين طارق عزيز وينقل إليه بعض الكلمات القليلة اثناء توقف الجلسة.

في الساعة الواحدة والربع بعد الظهر عُلِّقت المحادثات. وصرح وزير الخارجية الاميركي للصحفيين: «سنعود في الساعة الثانية والربع كي نستأنف محادثاتنا».

أمّا طارق عزيز فقد رفض ان يعلق بشيء، وعندما سأله أحدهم عن معنى الابتسامة التي تعلو شفتيه اجاب: «لكنكم تعرفون انني ابتسم دائما».

في بهو الفندق، سرت اشاعة مفادها أن جنرالاً أميركياً كان يرافق جيمس بيكر اطلع العراقيين على صور للاقمار الصناعية تحدد بوضوح مكان تواجد القوات العراقية بل تبيِّن صور مواكب سيارات «الليموزين» الرئاسية في بغداد. وقد قال احد الدبلوماسيين أن هذه الصور يمكن أن تؤثِّر على العراقيين. لكن في الساعة ١٥,٢٠ دقيقة رفض طارق عزيز استلام رسالة موجهّة من الرئيس بوش إلى الرئيس صدام حسين. الترجمة العربية للرسالة سلِّمت للوزير العراقي الذي قرأها بهدوء ثم وضعها على الطاولة مؤكداً انه لا يريد نقلها وقال: «هذه الرسالة غير مؤدبة، وغير نزيهة».

في الساعة ٢١,٣٠ عقد طارق عزيز مؤتمراً صحفياً. أحد الصحفيين وجه له السؤال التالي: «اذا شبّت الحرب، هل سيهاجم العراق اسرائيل؟». فأجاب: «نعم» واضاف: «لقد تهيأنا لأسوأ الاحتمالات منذ البداية».

ان ميشيل ڤوزيل، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان الفرنسي، والذي ذهب الى بغداد وقابل صدام حسين لعدة ساعات، خرج باحساس انه لم يزل هناك منطقة ظل صغيرة. وقال: «اريد أن اعرف بالضبط لماذا ستقوم الحرب اذا قامت بعد ١٥ كانون ثاني». وأضاف: «لم يزل هناك بصيص من الأمل، لكننا لا نستطيع بالطبع التنازل عن مبادئنا».

ويوم الاحد ١٣ يناير ـ كانون ثاني ١٩٩١، سافر بيريز ديكويلار، الأمين العام للأمم المتحدة الى بغداد في آخر مسعى للسلام قبل يومين من الموعد الحاسم في ١٥ كانون ثاني. لم يكن ديكويلار يعتقد حقيقة أن هناك حظوظاً لنجاح مهمته. وقد اسرّ بذلك لفرانسوا ميتران يوم الاثنين صباحاً وهو في طريقه إلى موسكو وقال: «انا منهك». لكن بالرغم من تعبه اعتقد لبضع لحظات اثناء حديثه مع صدام حسين أن هناك شيئاً ما يمكن أن يتلحلح. لقد فاجأته بشاشة الرئيس العراقي الذي كان قد فرغ منذ قليل من تصريح له بالاذاعة قال فيه: «ان الجهاد واجب على كل مسلم». وكان الحوار غريباً بين بيريز دوكويلار وصدام حسين.

قال ديكويلار: «لست ساذجاً الى الدرجة التي أتصور بها انه يمكن حل جميع مشاكلنا هذه الليلة. لكنني أود أن أعود بشيء ما نتمكّن بواسطته ومن خلاله تخفيف التوتر ونحرم تجار الحروب من فرحتهم في جمع الأموال».

وقال صدام: «هل تأخذ قهوة؟ انها تطرد النعاس».

ديكولار: «كلا شكراً، انني اسافركثيراً، اكثر مما ينبغي. وبعد ساعة محددة لا اتناول القهوة، ثم ان هذا لا يُنصح به في سني. وتعرفون جيداً أن الرأس هو الذي يدير كل شيء».

صدام: «نعم، الرأس هو المنظِّم لكل شيء. ولا اكتمك كنت أريدك أن تأتي وأن لا تأتي إلى بغداد. فانت الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة وكلنا أسرة في الأمم المتحدة. فنحن جزء من هذه العائلة في العالم. ومن الطبيعي أن نحرص كي تأخذ الأمم المتحدة دورها في حياة الدول. كنت أريدك أن تأتي لأنك سبق وتعرفت علينا وتعاملت معنا وقد تآلفت مع اسلوبنا في التفكير. ولكنني قلق من مجيئك إذ ان مالكي القوة في هذا العالم الداعين إلى استخدام السلاح باسرع وقت ممكن قد يجدون في زيارتك حجة للبدء بالحرب، اذا لم تستطع أن تقدم لهم ما يريدون».

فجأة تحمَّس صدام حسين وقال للأمين العام للأمم المتحدة: «كيف يمكن لجورج بوش أن يتصور أن صدام حسين يخشى التهديدات مهما كانت؟ هل يعتقد، اذا كان قد استطاع القبض على رئيس بنما وتقديمه للمحاكمة في الولايات المتحدة الاميركية، ان جميع رؤساء الدول سوف يرتعدون خوفاً من تهديداته؟».

«لا يوجد حدود بين الكويت والعراق» هذا ما أكّده صدام حسين للأمين العام للأمم المتحدة وهو يسحب من حافظة وثائقه خارطة ويفرشها على الطاولة محاولاً أن يشرح لديكويلار كيف أن الكويت قد توسّعت على حساب العراق. لقد بيّن حدود الكويت في ظل الانتداب البريطاني. ثم قال ما نصه:

«كانت حدود الكويت عندما كانت محمية إلى هنا ثم توسعت إلى هذه النقطة حيث كانت في مكان اسمه المطلاع. ارى ان تسجله لديك. كان هذا حالهم إلى عام ١٩٦٣ وجواز سفر السيد ياسر عرفات مختوم في المطلاع. من ناحيتنا لدينا الوثائق حول هذا الكلام وآلاف الجوازات المختومة. من عام ١٩٦٣ - ١٩٦٩ حكم العراق اخوان ضعيفان واثناء حكمهما زحف شيوخ الكويت في الأرض مرّة أخرى من المطلاع إلى هنا، ثم في فترة الحرب مع ايران توسعوا بالارض ايضاً واستغلوا

حقول نفط معروفة منذ البداية انها ضمن عراق ما قبل ٢/٨/١٩٩٠.

وعندما كانت الكويت ضمن السور في هذا المكان (مؤشراً على الخريطة).. قتل أحد البريطانيين داخل السور، فخاطبت الحكومة البريطانية شيخ الكويت ليحقق في الحادث، فحمل شيوخ الكويت القتيل من داخل السور ورموه خارجه وكتب شيخ الكويت الى الحكومة البريطانية ان عملية القتل حصلت خارج السور وأن الأمر يخص حكومة بغداد. وفعلاً حققت حكومة بغداد بالأمر.

اضافة لهذا لم يوافق مجلس المبعوثان (البرلمان) العثماني إلا على الكويت كمحمية ضمن السور، وكل هذا الكلام معزز بوثائق موجودة. اذن، في ضوء هذا التعقيد، عندما يقول احدهم لينسحب العراق.. فإلى اين ينسحب؟ البريطانيون يعرفون كل هذه الحقائق وموجودة في ملفاتهم والسيد ادوار هيث يعرف ذلك ايضاً».

عند ذلك طمأن ديكويلار صدام حسين بأنه سوف يضمن تقريره كل هذه المعلومات التي قدمها له. واضاف: «انني اخشى ان لا يعتبر ما آخذه معي ملموساً بدرجة كافية لتخفيف التهديد المفروض علينا مثل السيف المسلّط فوق رؤوسنا وتعرفون سيادتكم التوقعات والآمال الكبيرة التي علقت على زيارتي، لقد زاركم عدد مهم وكبير من الشخصيات، لكن احدهم لم يحمل هذه الرسالة الكونية التي احملها».

فاضاف الرئيس العراقي:

«حتى لو اعطيت لنا امتيازات الدنيا، اية امتيازات، اقول في الوقت الذي يتقابل فيه الجيشان العراقي والاميركي، واحتمال الحرب اصبح يعد بالساعات، سوف لن ينطق احد بكلمة الانسحاب.. ... النطق بكلمة الانسحاب مع وجود احتمالات الحرب تعني تمهيد الارضية النفسية لانتصار العدو علينا، أليس هذا ما يريده الاميركيون؟ لانهم يعرفون ماذا تعني كلمة الانسحاب الآن.. وهذا لن يحصل اطلاقاً».

عند هذه اللحظة فهم بيريز ديكويلار، انه قد «خسر معركة السلام».

***

استيقظ جورج بوش منذ الساعة الخامسة صباحاً وصاغ الخطاب الذي سيتوجه فيه للامة بعد أن أدرك في قرارة نفسه أن مفاوضات السلام الاخيرة التي قام بها

السوفييت والمجموعة الاوروبية والزيارة الاخيرة للأمين العام للأمم المتحدة لن تغير شيئاً في مسار التاريخ والاحداث.

في الخارج كان عدد من انصار السلام يجرون لافتاتهم وقد ناموا في مراقدهم الجاهزة مقابل البيت الابيض. اجرى الرئيس الاميركي عدة اتصالات هاتفية كعادته. تحدث مع الرئيس المصري والملك السعودي والرئيس فرانسوا ميتران.

كان جورج بوش والرئيس الفرنسي يتهاتفان بانتظام منذ شهرين. وكان يحدث أن يبقى بوش ساهراً في البيت الابيض حتى الثانية او الثالثة صباحاً قبل أن يتحدث بالهاتف مع قصر الاليزيه، في حالة عدم وجود احداث خطيرة. إذ انه لم يكن يرد ازعاج فرانسوا ميتران باكراً جداً، لعلمه ان فرق التوقيت يبلغ ست ساعات بين البلدين.

بعد الظهر عقد اجتماعاً جديداً في المكتب البيضوي للرئيس، حضره معه نفس الاشخاص، جيمس بيكر، صديقه القديم ووزير الخارجية الاميركي؛ وديك شيني، وزير الدفاع؛ وكولن باول، رئيس اركان الجيوش؛ وبرنت سكوكروف، الرئيس القوي لمجلس الامن القومي؛ ووليام وبستر، رئيس جهاز الاستخبارات المركزية، وجون سنونو، الامين العام للبيت الابيض. ثم التحق بالاجتماع شخصان آخران هما، دان كويل، نائب الرئيس الاميركي وروبرت غاتس، الشخصية الثانية سابقاً في الاستخبارات المركزية والمكلف بالتنسيق بين مختلف هيئات الأمن والاستخبارات. في المساء، ذهب جورج بوش للاسترخاء في أحد المطاعم المفضلة لديه «بكين غورمت»، وهو المكان الذي كان قد اصطحب اليه ذات يوم الاميرال لانكساد، رئيس الاركان الخاصة بفرانسوا ميتران والذي أمّن طيلة أزمة الخليج اتصالات منتظمة بين باريس وواشنطن.

صباح الثلاثاء، اتخذ جورج بوش قراره، بل قام بتوقيع أمر العمليات العسكرية لتحرير الكويت. في الساعة ١٠,٣٥ شرح الرئيس الاميركي لديك شيني في البيت الابيض أن عملية «عاصفة الصحراء» لا يمكن الغاءها إلا اذا انسحب العراق من الكويت قبل ١٦ يناير - كانون الثاني ١٩٩١.

في الساعة ١٨,٤٥ مساء الاربعاء، كان الرئيس الاميركي يشاهد مباشرة على شاشة التلفزيون بغداد بواسطة محطة أي. بي. سي الاميركية، عندما اعلن احد الصحفيين، غي شيبارد، أن سماء بغداد تتلألأ بآلاف الاضواء. لقد بدأت حرب

الخليج مباشرة على الشاشة الصغيرة.

في الساعة ١٩ بتوقيت اميركا وصل مارلين فيتزووتر، الناطق الرسمي باسم البيت الابيض، إلى قاعة الصحافة. وقرأ ورقة كتبها جورج بوش بخط يده، جاء فيها: «بدأت حرب تحرير الكويت، وسوف يتحدث الرئيس بعد ساعتين».

جملة قصيرة، جافة، ومنتقاة بعناية. لقد تذكر جورج بوش رسالة قوات الحلفاء قبل انزال ٦ يونيو - حزيران ١٩٤٤ القائلة: «بدأ تحرير أوروبا».

منذ أشهر، كان الاستراتيجيون يقدمون تصورهم لمجمل السيناريوهات الممكنة. مع ذلك كانت هذه الحرب ممنهجة ومخططة. فمنذ ٨ يناير - كانون ثاني كانت لجنة القوات المسلحة في الكونغرس الاميركي قد اتمّت تقريرها بعد استماعها الى عشرين شخصاً من العسكريين والدبلوماسيين والساسة الاميركيين. مؤلف التقرير، الديمقراطي لي اسبين هو أحد العارفين الجيدين في المسائل العسكرية ومسائل الاستخبارات.

قبل اسبوع من عملية «عاصفة الصحراء»، كان المخطط العسكري بمجمله موجوداً في ذلك التقرير؛ مع حاشية تقول: «ان قواتنا لن تصل إلى جاهزيتها الكاملة إلا في مطلع شهر فبراير - شباط، أي عندما يكون لدى وحداتنا الارضية التي وصلت حديثاً الوقت الكافي للتأقلم مع المناخ بينما سيكون سلاحا البحرية والطيران جاهزين تماماً منذ ١٥ يناير - كانون ثاني». لقد رُسمت خطة حرب الخليج على أساس عدة مراحل متعاقبة. حملة طيران استراتيجية كي تضرب أولاً بأول المصانع الكيميائية والبيولوجية والنووية في العراق وكذلك قواعد اطلاق الصواريخ وانظمة الاتصالات والغطاء الجوي. وارتقب التقرير ٢٠٠٠ طلعة جوية يومياً مع خسارة ٠,٥٪ أي عشر طائرات في اليوم.

المرحلة الثانية تمثّلت في حملة جوية تكتيكية لخلخلة طرق الاتصالات وتدمير الجسور والخطوط الحديدية والمطارات والطرق والتدعيمات الدفاعية والبدء بضرب وحدات الحرس الجمهوري. الخسارة المرتقبة تراوحت بين ٧٠ و٨٠ طائرة في الاسبوع.

مع ذلك يتساءل كاتب التقرير قائلاً: «السؤال هو معرفة مدى فعالية غاراتنا ضد العراقيين المدرّبين جداً على تخبئة دباباتهم وتمويهها».

تأتي بعد ذلك المرحلة الثالثة أي الحملة الارضية. وهذه تتعلق، حسب التقرير،

بفعالية القوة الجوية. ويبدي تحبيذاً لحرب متحركة وسريعة مع اعداد كثيف للمدفعية من أجل تثبيت العراقيين في مكانهم ثم ولوج مواقعهم، واحتوائهم بواسطة التوليف بين العمل الجوي - البري والعمليات البرمائية. وفي حال نجاح عسكري في مدة ٣٠ يوماً، يقدِّر التقرير الخسائر ما بين ٥٠٠ قتيل و٥٠٠٠ جريح. اما اذا استمرت الحرب أربعة أشهر فقد يكون هناك ما بين ١٠,٠٠٠ و٢٠,٠٠٠ جريح.

ويذهب التقرير الى القول: «ان صدام حسين سوف يهاجم اسرائيل، دون شك، من أجل كسر التحالف، لكن محاولته ستفشل».

في مساء الخميس،أي بعد ٢٤ ساعة من بداية الحرب، تجسّدت هذه المخاوف. فصواريخ سكود العراقية اصابت اسرائيل. عندها تحدث جورج بوش هاتفياً، ليل الجمعة، مع اسحق شامير وأكّد له أن صواريخ «باتريوت» الاميركية سوف تصل سريعاً لاسرائيل وسوف تفجر في الجو قسماً كبيراً من الصواريخ العراقية طيلة استمرار الحرب.

حاول جورج بوش ان يمارس اثناء الحرب طقوس حياته اليومية الاعتيادية. فعطلة نهاية الاسبوع المقدّسة كان يقضيها في كامب داڤيد على بعد ٢٥ دقيقة بالطائرة عن البيت الابيض، كما يستمع للموسيقى وينزِّه كلابه ويتناول طعام العشاء العائلي مع أطفاله.

منذ الساعة السادسة صباحاً يبدأ بوش قراءة الصحف، ثم تجلب له سكرتيرته الخاصة، باتي بريزوك، الوثائق الأكثر الحاحاً لتوقيعها والرسائل المطلوب توزيعها على مختلف الدوائر. كان الرئيس يتلقّى اسبوعياً ما يقارب من ١٠٠,٠٠٠ رسالة طيلة فترة الحرب. وكان يرد شخصياً على الرسائل المؤثِّرة أكثر خاصة تلك التي يبعثها أهل الجنود الاميركيين على الجبهة الصحراوية.

وفي الساعة ٨,١٥ تقريباً يطلع الرئيس على تقارير الاجهزة السرية والاميركية وتقارير وزارة الخارجية. وكلها ممهورة بجملة «خاص بالرئيس فقط». ثم كان يستقدم الى مكتبه البيضوي اعضاء مجلس الامن القومي ومجمل معاونيه المقرّبين. خلال احد هذه الاجتماعات حذّر جورج بوش معاونيه من مغبة الافراط في التفاؤل بعد عمليات القصف الأولى لبغداد عند الساعة ٢,٣٥ من صباح ١٧ يناير - كانون الثاني ١٩٩١.

كانت طلقات بطاريات الدفاع الجوي المضاد للطيران ترسل شهبها في ليل بغداد

الحالك. موجة القصف الأولى استمرت ثلاث ساعات، الموجة الثالثة هزّت العاصمة العراقية في فترة نهاية ما بعد الظهر. وقد شكّل المطار ووزارة الدفاع والقصر الرئاسي أهدافاً للقصف، وكذلك بناية الاتصالات الهاتفية على حافة دجلة. و كان الرئيس صدام حسين قد تحدث في الاذاعة قبل بزوغ النهار كي يعلن بداية «ام المعارك».

قبل بداية الهجوم بقليل، قذف اربعون مظلياً اميركياً سراً في الاراضي العراقية. كانت مهمة هؤلاء هي وضع منارات خاصة على بعض المواقع الاستراتيجية قبل الهجوم الجوي الاول للحلفاء. هذه المنارات التي كانت قادرة على ارسال الاشارات الضوئية لمدة عشر ساعات، استرشدت بها طائرات التحالف؟ مما سمح لطياري الغارات الأولى قصف نقاط استراتيجية في الوقت الذي كانت فيه حرب التشويش الالكتروني قد بدأت.

لقد جرت استعادة اولئك المظليين بعد أن وضعوا المنارات المرسلة للاشارات وتعرضوا لمخاطر كبيرة. هذه العملية ستبقى احد الوجوه الأكثر سرية في تلك الحرب.

في صباح الخميس كانت شوارع بغداد شبه مقفرة. كان معظم احياء المدينة قد حُرم تماماً من الماء والكهرباء. وكان العراقيون مندهشين الى درجة انهم لم يصدقوا ان الحرب قد قامت بالفعل.

غداة عمليات القصف، بدّلت الاذاعة برامجها كي تذيع الاغاني الوطنية والزغاريد وصلوات المسلمين. وكانت البرامج تُقطع بين حين وآخر بنداء من صدام حسين للشعب العراقي العظيم او ببلاغات لقيادة القوات المسلّحة.

ونثبت هنا نص خطاب الرئيس صدام حسين الذي بثته الاذاعة العراقية آنذاك:

«أيها الشعب العراقي العظيم

يا أبناء امتنا المجيدة

ايها النشامى في قواتنا المسلحة الباسلة.

ايها الناس حيث ما اشتد عزمكم ضد الباطل واهله والكافرين واعوانهم وحلفائهم.

في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف هذه الليلة ليلة ١٦ - ١٧/١/١٩٩١ غدر الغادرون فارتكب زميل الشيطان بوش جريمته الغادرة هو والصهيونية المجرمة

وابتدأت المنازلة الكبرى في أم المعارك بين الحق المنتصر بعون الله وبين الباطل المندحر لا محالة ان شاء الله.

وكان النشامى ابناؤكم واخوانكم سليلي التوحيد المحمدي وسليلي الانبياء والرسل وسليلي اولئك المؤمنين الذين حملوا مشعل الاسلام نوراً وضياء وهدى الى الانسانية، كانوا لهم بالمرصاد بيقظة عزَّهم بها الله.

ألا خسيء المجرمون ان الله معنا ايها الاخوة انه سبحانه مع المؤمنين الصابرين الصامدين المجاهدين وانه ناصرهم لا محال ان شاء الله.

ومع اشتداد المنازلة الكبرى وصمود المؤمنين يقترب الفرج من الفتح أمام الامة كلها بعد ان تسقط العروش القائمة على الفساد وبعد أن تتحطم ارادة الشر والشيطان في البيت الابيض وكذلك كفر التسلط في وكر الدبابير السامة والعدوان في تل ابيب المجرمة. فستتحرر فلسطين الحبيبة واهلها الطيبون المجاهدون الصابرون وسيتحرر الجولان ولبنان ويتحرر الانسان في ارض العرب وفي كل مكان ظلم فيه الظالمون المستكبرون، الشعوب والامم(...).

الله اكبر.. الله اكبر.. الله اكبر».

ضربت عملية «عاصفة الصحراء» بغداد أولاً. ثم امتدت بسرعة لتشمل كل مسارح العمليات.

في بغداد، اصبح سعر البنزين يعادل ١٠٠ فرنك فرنسي وسعر دزينة الشموع التي تباع خفية ٨٠ فرنك فرنسي.

خفّ الضغط الجوي قليلاً عن بغداد كي يتركز على المواقع العراقية في الكويت. اما التوتر النفسي فقد كان يتمحور حول هجومات الصواريخ العراقية سكود على اسرائيل كل مساء.

لقد نجح جورج بوش في ثني اسرائيل عدة مرّات عن الرد على الهجومات العراقية الصاروخية. وارسلت الولايات المتحدة، كي تقنع تل أبيب، صواريخ باتريوت جديدة سحبتها من وحداتها المتواجدة في أوروبا. وبمناسبة نقل هذه الصواريخ المضادة للصواريخ أقيم بين الولايات المتحدة واسرائيل أكبر جسر جوي منذ حرب اكتوبر - تشرين أول ١٩٧٣.

يوم السبت ١٩ يناير - كانون الثاني وصل إلى عمان الصحفيون الغربيون الذين طردتهم بغداد بعد أن قطعوا طريقاً طوله ٥٠٠ كيلومتر. وقد روى «جيل

ديلافون »، المبعوث الصحفي الخاص لجريدة « صحيفة الاحد » إلى بغداد، قوله: « غادرت بغداد حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف. كانت بعض السيارات تجوب الشوارع وبعض المارة يسيرون على الارصفة. إذ كان الليل الماضي هادئاً وكذلك صباح اليوم. عند خروجي من بغداد لاحظت مقر القوات الجوية العراقية مهشّم النوافذ .إذ كنت قد شاهدت بأم عيني في ليل الخميس ـ الجمعة صاروخاً أصَابَهُ اصابة مباشرة. بخلاف ذلك رأيت القليل من الدمار. على العكس، احتفظ من هذا السفر بذكرى العديد من البنى العسكرية الاساسية التي لم تصب بأي اذىً والتي تشكل مصدراً للتهديد ». واضاف: « بعد أن تجاوزت محيط العاصمة شاهدت مئات بطاريات الدفاع الجوي على طول الطريق وعدداً هاماً من المنشآت العسكرية. وعلى كل مفارق الطرق بعد بغداد رأينا جنوداً مسلحين برشاشات كلاشنكوف، ولا يبدو أي أثر للقلق على محياهم. معنويات السكان تبدو مرتفعة. ليس هناك أية عدائية ظاهرة. وخلف كل موقع بطارية كان هناك جنود آخرون ينتظرون الهجوم القادم.

« على الطريق تبعثرت على الأقل خمس منصات إطلاق صواريخ فارغة. تجرها شاحنات لا تتوقف عن الحركة تجنباً للقصف. أبعد من هذا بقليل لاحظت وجود ثلاث شاحنات تجر صواريخ طولها ١٦ متر مخبأة تحت غطاء. كانت صواريخ سكود المشهورة قد جرى استقدامها، كما يبدو من غرب العراق نحو الداخل. احدى تلك الشاحنات توقفت وسط الصحراء كي يستريح سائقها وجنود آخرون على قارعة الطريق.

« لقد سافرنا في سيارة اجرة عراقية بفضل تفهم سائق عربة قابلناه في الرمادي وقبل أن يبيعنا وقود سيارته وهو يبتسم. عندما تجاوزنا محطة لبيع الوقود ضائعة وسط الصحراء، سمعنا عدةطلقات مدفعية. كان عدة جنود يتجهون نحو الملاجىء. كانت طائرتان مجهولتا الهوية قد تركتا خطين يدلان على مرورهما في سماء المنطقة.

« وصلنا بعد ٦ ساعات الى الحدود العراقية مع هبوط الظلام. كان السواد يلف مكتب جوازات السفر. كان علينا ان نضع امتعتنا بسرعة في سيارة اجرة اردنية مليئة بالحقائب. لم تمض ثوانٍ حتى سمعنا اصوات انفجارات ورأينا ما يشبه الشهب البرتقالية تتعالى في السماء. انها غارة جديدة على العراق في منطقة غير بعيدة عن الحدود. كانت نهاية الرحلة وسط الصواريخ، وعلى بعد عدة مئات من الكيلومترات

غرباً كانت اسرائيل تكبح نفسها مرّة اخرى ايضاً. فالرد كان قد بدا انه لا بد منه بعد سقوط ثلاثة صواريخ عراقية جديدة وبلوغ عدد الجرحى ٤٧ جريحاً بعد هجومي الجمعة وصباح البارحة على منطقتي تل أبيب وحيفا».

في الواقع، تدرك اجهزة استخبارات الحلفاء اليوم ان ذلك النقل الاجباري لأربعين صحفياً غربياً عبر العراق حتى الاردن انما كان عملاً مدبّراً بعناية من قبل القيادة العراقية. كانت الشاحنات الناقلة لصواريخ سكود المتحركة تسير بمحاذاة القافلة التي تقل موكب المراسلين الصحفيين الأجانب إلى الاردن. اعتقد صدام حسين في بغداد أنه بهذه الطريقة يخدع الاقمار الصناعية الغربية. وبأن طائرات الحلفاء لن تتجرأ على مهاجمة القوافل كي لا تصيب السيارات التي تقل الصحفيين.

بتاريخ ٢١ يناير - كانون الثاني اثار مرأى وجهي، جيفري زون وغي هنتر، المليئين بالكدمات حفيظة الرأي العام الغربي. إذ أن عرض الطيارين الاميركيين والانكليزيين على شاشة التلفزيون العراقي جدد المخاوف لعدم احترام بغداد اتفاقية جنيف المتعلقة بأسرى الحرب. وقد تعزز هذا القلق بعد أن أعلنت وكالة الاعلام الايرانية الرسمية ان الطيارين الحلفاء العشرين الاسرى لدى العراق قد تمّ نقلهم إلى مراكز استراتيجية لاستخدامهم كدروع بشرية. لكنهم في الواقع ظلّوا في بغداد.

لقد تحدث وزير الدفاع الاميركي ديك شيني عن «جرائم حرب». وصرّح جورج بوش بتاريخ ٢١ كانون الثاني بأن «أميركا غاضبة» وادان اسلوب معاملة العراق للطيارين الاسرى من الحلفاء.

ذلك الغضب أعاد لذهن الرئيس الاميركي حادثاً من شبابه ظل منقوشاً في ذاكرته. كان ذلك عام ١٩٤٤ عندما كان جورج بوش أصغر طيار أميركي. وقد ساهم في حرب المحيط الهادي ضد اليابان كطيار متطوع. ثم عاد بميدالية عسكرية بعد أن نفّذ حوالي ستين مهمة. بتاريخ ٢ ايلول كان على قاب قوسين من الوقوع في الاسر عندما اصيبت طائرته، وسقطت في المحيط بعد قصف جزيرة شيشي شيما. ويروي بوش في سيرته الذاتية التي نشرها عام ١٩٨٧ كيف أن سفينتين يابانيتين تركتا السفينة وتوجهت صوب القارب الذي كان جريحاً فيه بغية القبض عليه. فانحدر نحو الجزيرة اليابانية ببطء بينما قتل الطياران الآخران اللذان كانا معه في طاقم الطائرة. يقول بوش: «كنت مستعداً أن اقايض خمسين مرّة مسدسي بمجداف صغير». كان حظّه كبيراً إذ برزت في تلك الاثناء سفينة كبيرة على سطح الماء

وصاح بحارٌ ذو لحية: «صديق أم عدو؟». تلك السفينة كانت الغواصة الاميركية «فينباك».

بعد ثمانية أشهر من نهاية الحرب، قرأ الرئيس القادم للولايات المتحدة الاميركية، عندما كان يدرس في جامعة يال، خبراً في مجلة «لايف» مفاده أنه صدرت احكام ضد ضباط جزيرة شيشي شيما اليابانية لاقترافهم جرائم حرب بقتلهم طيارين اميركيين اسرى بل انهم «مارسوا معهم وحشية اكل لحم البشر».

ان صورة السجناء الحلفاء الذين عرضهم صدام حسين على جميع شاشات التلفزيون ايقظت في نفس جورج بوش وساوس شيطانية قديمة.

ان قصف ملجأ مصفّح في بغداد ليلة ١٢ ـ ١٣ فبراير ـ شباط ومقتل أكثر من ٣٠٠ مدني ربما كان منعطفاً في حرب الخليج.

لقد تحدث جورج بوش هاتفياً مع عدة رؤساء دول ليقول لهم أن صدام حسين لن يتردد في تمويه الملاجىء المدنية بملاجىء عسكرية، وبأن يُدخل اليها أسر الضباط عن وعي عند قدوم الليل، مما يشكل تحريفاً قاتلاً.

لقد ذكّر الرئيس الاميركي محدثيه بما قاله حاكم بغداد بأن «الذي سينتصر في الحرب هو ذلك الذي سيقبل ١٠٠,٠٠٠ قتيل».

ان صدام حسين، بسبب عجزه عن كسب الحرب على أرض المعركة، أراد أن يكسب الحرب النفسية. وقد وضعت صحيفة «اميركا اليوم» التي يقرأها ٦ ملايين أميركي يومياً عنواناً لها: «رعب الحرب تحت الملجأ». كما قدّمت الصحافة الاميركية حجج المعسكرين. لكن العديد من كتّاب الافتتاحيات اعترفوا بأن مقتل المدنيين العراقيين بالقنابل الاميركية يمكن أن يخلق سريعاً جداً وضعاً شديد الصعوبة سياسياً بالنسبة لادارة بوش، كما يخلق مناطق ضعف داخل التحالف.

لقد صرّح مارلين فيتزووتر الناطق الرسمي باسم جورج بوش للصحافة: «برهن صدام حسين دائماً على ارادته بالتضحية بالمدنيين لاغراض حربية».

ان اجهزة استخبارات البنتاغون أكّدت أن جميع صور الاقمار الصناعية وجميع اتصالات الراديو الملتقطة تؤيد القول بأن الأمر يتعلق بمركز للقيادة وللمراقبة العسكرية جرى تمويهه ظرفياً وتحويله إلى ملجأ مدني. هذا المبنى تم بناؤه في مطلع سني الثمانينات كملجأ مدني طيلة الحرب بين ايران والعراق ثم حُول الى مركز للقيادة والمراقبة. وقد تمّت تقوية تجهيزات الاتصالات كي تقاوم القنابل ذات الدفع

الكهربائي المغناطيسي الناتج عن انفجار نووي يستطيع أن يدمّر دارات اجهزة الاتصالات في دائرة قطرها ٣٠٠ كيلومتر.

الاقمار الصناعية التقطت صوراً بيّنت مواكب لا تتوقف من قيادات الاركان العراقية تنتقل نهاراً بين مقر صدام حسين والملجأ الذي هدمته طائرات الحلفاء. وقد قال عقيد في قيادة الجيش: «اخترنا قصف ذلك الهدف في الساعة الرابعة والنصف صباحاً لأنه يقع فقط على بعد ١٠٠ متر من جامع ومدرسة».

خلال الأسابيع الأخيرة، لاحظت الاجهزة الغربية أيضاً حركة غير عادية حول المبنى، كما تمّ إدخال كميات من احتياطي الوقود ومن زجاجات الاكسجين إلى الملجأ المصفّح بقصد تأمين نوع من الاكتفاء الذاتي فيه.

ان اجهزة استخبارات الحلفاء على قناعة اليوم أن صدام حسين قد نصب فخاً شيطانياً. لكن الاقمار الصناعية ذات التكنولوجيا المتقدمة ستسمح للنسر الاميركي بتجنب بعض تحايلات ثعلب بغداد.

الفصل الرابع
النسر والثعلب

النسر:

تقول وزارة الدفاع الاميركية ان الصور التي التقطتها اقمارها الصناعية الخمسة للاستكشاف والتفتيش من طراز كا. اش - ١١ وكا. اش. ١٢ (kh.11/kh.12) هي التي اعطت اشارة الانذار حول تحرك قوات صدام حسين. إذ كانت تلك الاقمار، التي تنتج ١٢ صورة في الدقيقة، قادرة على تحديد الرادارات المنشورة من أجل حماية القوات العراقية في الساعات التي سبقت غزو الكويت. هناك قمرٌ صناعي آخر اعطى معلومات شديدة الحساسية، وهو قادر على كشف منصّات اطلاق الصواريخ التكتيكية والبالستيكية في العالم الثالث وكذلك الانفجارات النووية السرية منذ سنوات. كل ذلك بفضل اجهزته اللاقطة فوق البنفسجية والنترونية. هذه الاقمار وُضعت في مدار فوق منطقة النزاع منذ دخول القوات العراقية إلى الكويت.

بنفس الوقت حلّق قمران صناعيان للتجسس من طراز كا. اش - ١١ عدة مرّات يومياً فوق العراق على مدارات تميل نحو الدرجة ٩٨ْ. وكانامزوّدين بعدسات تصوير وآلات رصد عالية الدقة تسمح بتمييز صندوق ذخيرة على ارتفاع ٣٢٠ كيلومتر. وحلّق فوق العراق ايضاً قمران صناعيان آخران أكثر تقدماً من طراز كا. اش - ١٢ تمّ اطلاقهما بالتتالي عامي ١٩٨٩، ١٩٩٠. هذان القمران الأكثر تقدماً في ميدان الاستكشاف بالصور قادران على التعرف من الفضاء على عدة أهداف. وبالاضافة إلى أقمار التصوير الالكتروني هذه والمسماة «فوتينت» يضاف اقمار رادار قادرة على تحديد تحركات القوات حتى أثناء الليل. هذه الاقمار المعروفة تحت اسم «لاكروس»، أطلق الأول منها في شهر ديسمبر - كانون أول ١٩٨٨ بواسطة المركبة الفضائية. وقد نشر سواري رصده الهوائية العريضة عى ارتفاع ٨٠٠ كيلومتر حول مدار ٥٧ْ درجة. كما وضعت المركبة الفضائية «اطلانطيس» قمراً صناعياً من نفس الطراز بتاريخ

١٦ نوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٩٠ باسم الرمز آ. اف. بي. ـ ٦٥٨ (A.F.P. 658).
هذا القمر الصناعي، الذي اطلقته المركبة الفضائية «اطلانطيس» على ارتفاع ٢٤٠ كيلومتر، كان ينبغي أن يأخذ مداراً دورانياً على ارتفاع ٧٤٠ كيلومتر عن الأرض، على أن يسير في الفضاء بسرعة ٣٠٠ متر بالثانية. لقد حلّق فوق الخليج ومنطقة جنوب العراق مرتين في اليوم. وسمحت له كتامته الضئيلة، كما يقول رجال العلم، ان يمسح بأكبر دقة كل منطقة المعارك الواقعة بين السعودية والكويت، وكذلك جنوب العراق حتى البصرة. وهذه اداة تقدير للموقف لا تقدّر بثمن بالنسبة للبيت الأبيض.

أمّا بالنسبة لعمليات التصنُّت على الاتصالات الهاتفية واللاسلكية فقد تمّت باستمرار عن طريق الاقمار الصناعية المسماة «الينت». إنّ تقفّي اثر الاتصالات العراقية جرى بشكل خاص من قبل قمرين صناعيين هما «ماغنوم» ،«شاليه» (هذا الاسم الاخير اعطي للقمر الصناعي من قبل الاميركيين كدليل شكر لمارسيل شاليه، رئيس جهاز مراقبة التراب الوطني الفرنسي ـ DST ـ، الذي ساهم طيلة سنوات في النضال ضد التجسس السوفييتي).

ان فك رموز المكالمات الملتقطة في الخليج كان يجري من قبل الجهاز البريطاني جي. سي. اش. كا ـ (GCHQ) الذي توجد قاعدته الاساسية في شلتنهام بالقرب من اكسفورد. كانت النتائج ترسل بعد ذلك إلى الوكالة القومية للأمن، أي جهاز التصنت القوي التابع للبنتاغون والذي يقوم بدوره بنقل تلك النتائج إلى البيت الابيض.

وتمتلك وزارة الدفاع الاميركية أيضاً مجموعة من أقمار الاتصالات الصناعية اثنان منها من طراز دي. اس. سي. اس ٢ (DSCS-2) واربعة من طراز دي. اس. سي. اس. ٣ (D.S.C.S.-3). مهمة هذه الاقمار هي تناوب جميع الاتصالات بين الولايات المتحدة ومختلف قيادات عملية درع الصحراء. أما البحرية فانها تمتلك شبكة خاصة تستخدم اقماراً صناعية من طراز سنكوم ـ ٤ وفيتساتكوم.

منذ ان كان العراق يطلق الصواريخ على اسرائيل «كان يتم في الحال رصدها وتتبعها من قبل أحد الاقمار الصناعية الثلاثة المكلّفة برقابة اطلاق الصواريخ البالستيكية.

ان فرنسا استخدمت الى حد كبير المعلومات التي زودها بها قمرها الصناعي

سبوت القادر على ان يحدد بدقة القوات الموجودة وأماكن تواجدها. ومنذ شهر آب توقف بيع صور الخليج للجمهور وللصحافة من قبل شركة سبوت للصور لأنها كانت مصنّفة تحت خانة سري خاص بالدفاع.

بعد غزو الكويت، تجرأ العراق وتوجه إلى مصالح البيع التابعة للمركز الوطني للدراسات الفضائية، في فرنسا بطلب شراء صور التقطها سبوت فوق السعودية.

ان تاريخ آخر دفعة من صور سبوت للعراق هو ٢ مايو - ايار ١٩٩٠. وكان يمكن لتلك الصور الدقيقة أن تقدم معلومات يستفيد منها العراق، كالتعرف مثلاً على الحالة الحقيقية للطرق او التواجد بعض المنشآت العسكرية او الاستراتيجية.

لقد اشارت شركة سبوت ان تلك الصور كانت في الواقع بمثابة جزء من عقد مدته عامين تمّ توقيعه عام ١٩٨٨.

وكان من الصعب حينئذ استقراء النوايا الحقيقية لصدام حسين، وقيل لي ان العراق لم يكن زبوناً غير عادي ولم يكن هناك أي سبب لمعاملته بعدائية في تلك الفترة. من بين الصور العشرين التي سلّمت بالقمر الصناعي لبغداد، تؤكد شركة سبوت ان بينها خمس او ست صور يمكن وصفها حقاً بانها حساسة او عملياتية.

هذه المعلومة لم تكن عارية عن الفائدة من وجهة نظر سياسية. إذ تبين أن صدام حسين كان يولي اهتمامه منذ الربيع الماضي بالكويت وبالسعودية. الأمر الذي يثبت دون شك النوايا المسبقة والمبيّتة لغزو الكويت.

ويمكن افتراض أن فرنسا قد اشتمت من بعيد، منذ ذلك التاريخ، اهتماماً عدائياً من قبل العراق بالكويت والسعودية.

في الواقع كانت شركة سبوت للصور قلقة إلى درجة كافية من طلبات بغداد دفعتها إلى أن توقف تسليم الصور لذلك الزبون الجيد. وأنه من غير الطبيعي، على الأقل، ان هذه المعلومات لم يتم ايصالها للحكومة الفرنسية في تلك الفترة.

كان هناك ايضاً مراقبون آخرون في الفضاء. والمقصود هو الاقمار الصناعية البريطانية الثلاثة أو الاربعة من طراز «سكينيت» والمختصة بالاتصالات العسكرية. آخر هذه الاقمار الصناعية من انتاج شركة الصناعات الفضائية البريطانية، والمسمى «تينيت - ك.س.»، كان يؤمن من فوق خليج غينيا الاتصالات بالرموز بين مختلف هيئات الجيش، وكان اطلاقه قد تم في مطلع سبتمبر - ايلول ١٩٩٠ اثناء تحليق المركبة الفضائية اريان ٣٨.

في الواقع، ربما كان البريطانيون قد اطلقوا في مكانه قمراً صناعياً للتجسس؛ لكن قيادة الاركان لم تشأ ابداً البوح بوجوده. هذا القمر، الذي تمت تسميته بـ« زركون » ربما أخذ نفس المواقع التي كان القمر الصناعي السابق فيها، بغية التجسس على اتصالات الراديو والاتصالات الهاتفية العسكرية في العراق.

ان جميع المعومات المأخوذة من الصور جرى تحليلها من قبل مصلحة الخرائط في وزارة الدفاع الاميركية. وقد أعد هذا المكتب الاحداثيات الدقيقة للأهداف المحتملة على الارض العراقية كما ساهم بصورة مستمرة في ضبط منظومات ارشاد صواريخ « توماهاوك » والصواريخ جو - أرض للطائرات المطاردة القاذفة. ان جزءاً كبيراً من المعلومات تمّ توصيله أيضاً في زمن حقيقي للقوات المنتشرة في السعودية والتي كانت تمتلك اجهزة استقبال متحركة متقدمة جداً.

بالتوازي مع ذلك، استطاع الاميركيون والبريطانيون تجريب نظام جديد ضخم للرقابة الالكترونية اطلقوا عليه عام ١٩٨٨ تسمية مشروع بي - ٤١٥. وكان يُفترض أن يسمح لجميع الوكالات المشتركة فيه تتبع كل الاتصالات الهاتفية التي تجري عبر القمر الصناعي وتحليلها.

الاتصالات الهاتفية هي التي تخضع للرقابة وحدها من حيث المبدأ، لكن بفضل هذه الشبكة أمكن التقاط عدد كبير من الاتصالات التي تتم عن طريق الامواج الهرتزية. أمّا المركز الرئيسي للمراقبة فيوجد في قاعدة مونويت هيل للاتصالات بواسطة الاقمار الصناعية في منطقة يوركشاير البريطانية. وهناك منذ زمن بعيد اتفاقات سرية للتصنت بين الولايات المتحدة وبريطانيا مدرجة تحت تسمية « اوكوزا ». ويجري على أساسها توزيع رقابة المناطق على عدة مصالح.

هناك جهاز سرّي آخر، هو جهاز جي. سي. اش. كا (GCHQ) في شلتنهام بالقرب من اكسفورد، مهمته تنسيق الرقابة على اوروبا وشمال افريقيا والشرق الاوسط؛ بالاضافة الى المنطقة الواقعة غرب الاورال من الاتحاد السوفييتي.

وكالة الأمن القومي الاميركية تغطي افريقيا جنوبي الصحراء واميركا اللاتينية والجزء الآسيوي من الاتحاد السوفييتي. وتنسق استراليا الرقابة على جنوب المحيط الباسفيكي وجنوب شرق آسيا.

ان مشروع بي - ٤ سمح حتماً بالتقاط العديد من المحادثات الهاتفية بين صدام حسين واركان قيادته، بالرغم من تكذيب هذا الامر رسمياً من قبل وزارة الدفاع

الاميركية. وربما أن ناظماً آلياً كبيراً اسمه الرمزي «اشيلون» يشكل مركز تجميع المعلومات الخاضع لاقصى اجراءات الحماية.

خلف تعبير «قمر صناعي للتجسس» تختبىء كمية كبيرة من العمليات المدارية شديدة التنوع من حيث آلية عملها الوظيفية ومميزاتها التقنية. ان استخدام المواقع العالية لرقابة اعمال وحركات الخصم امرٌ قديم قدم فن الحرب. فمنذ وجود ابراج المراقبة الاولى حتى طائرات الأواكس، مروراً بالمناطيد، عرف الانسان ان الرؤية من بعيد تعني امكانية التوقع المسبق، الامر الذي كان يعني احياناً الفرق بين الحياة والموت.

وترى الاستراتيجية الحديثة أن «قمر التجسس الصناعي» يمتلك قدرة تغطية مناطق شاسعة لا يمكن مراقبتها بوسائل اخرى؛ كما أنه يقوم بالمراقبة بطريقة انتقائية ومتكررة. انه يساهم، إلى جانب المصادر الاخرى المتوفرة (عملاء الاستخبارات بشكل خاص)، بتحليل الموقف عبر تقديمه معلومات مستقلة وموضوعية.

توجد عائلتان كبيرتان من أقمار التجسس الصناعية هما «العيون» و«الآذان». وتبعاً للتعابير الفرنسية المستخدمة تسمّى العائلة الاولى: «اقمار الاستكشاف» والثانية: «اقمار الاستخبار الالكتروني». أمّا الاميركيون فانهم يسمون الاولى «فوتينت» والثانية «ايلينت» عبر استخدام اشتقاقات لغوية. العائلة الثانية تنقسم بدورها الى عدة فئات ثانوية مثل فئة تحليل اشارات الرادار وفئة التقاط اتصالات الراديو والتلكس والهاتف.

وعلى الرغم من أن الروس كانوا أول من أطلق قمراً اصطناعياً الى الفضاء، هو «سبوتنيك» الشهيربتاريخ ٤ اكتوبر - تشرين أول ١٩٥٧، فإن الاميركيين هم أول من فكّر باستخدام الفضاء لاغراض الاستخبار. الدراسة الاولى في هذا الاتجاه جرت من قبل معهد الابحاث الشهير «راند» سانتا مونيكا في كاليفورنيا بعنوان: «تصميم اولي لسفينة فضاء تجريبية حول العالم». ثم قام معهد راند نفسه بتسليم تقرير ثانٍ أكثر تخصصاً للقوات الجوية الاميركية في شهر ابريل - نيسان ١٩٥١؛ عنوانه «استخدام الاقمار الصناعية للاستكشاف». وبعد عدة محاولات غير مثمرة اطلق الاميركيون في النهاية أول قمر صناعي للاستكشاف بالصور وعملياتي حقاً بتاريخ ١٨ اغسطس - آب ١٩٦٠. انه «ديسكوڤري - ١٤» الذي كان يستخدم

مبدأ الكبسولة القابلة للاسترجاع والمزوّدة بافلام تصويرشديدة الحساسية. لقد جرى القاء الكبسولة ذات الـ ٣٨ كيلو غرام فوق الاسكا وتمّ التقاطها في الجو فوق المحيط الباسفيكي بفضل طائرات سي - ١١٩ المزوّدة بصنّارات معقوفة خاصة. كانت نتيجة ذلك التحليق المعدُ بعناية فوق الاتحاد السوڤييتي الحصول على أول صورة للقاعدة الفضائية السرية جداً «بليزتك» التي كانت مجهولة تماماً من قبل الاجهزة الاميركية. كان رد الفعل السوڤييتي حيال أقمار المراقبة الاميركية قريباً من الهستيريا في البداية لكنه اصبح شيئاً فشيئاً أكثر تحفظاً. لقد فهموا فجأة مدى الفوائد التي يمكن أن تعود عليهم من استثمار الامكانيات التي يقدمها الفضاء. إذ تمّ اطلاق أول قمر صناعي سوڤييتي للتجسس بنجاح عام ١٩٦٢ من قاعدة تيوراتام؛ وسمي «كوسموس - ٤».

منذ البداية، اختلفت الفلسفة السوڤييتية في ميدان الاستكشاف الفضائي عن الفلسفة الاميركية.وبدلاً من أن يراهن السوڤييت على التقدم التقني العالي لعبوا ورقة الكم. قمر صناعي لكل مهمة، ومنصّة اطلاق لكل قمر. وما بين ١٩٦٢ و١٩٨٦ اطلق السوڤييت ٧٠٠ قمراً صناعياً للاستكشاف بواسطة الصور. أي بمعدل يزيد باثنتي عشرة الى خمس عشرة مرّة عمّا هو لدى الاميركيين. ان جميع الاقمار الصناعية السوڤييتية تحمل اسم كوسموس متبوعاً برقم، حفاظاً على السرية. هذا الرقم يدل فقط على التسلسل الزمني للاطلاق ويمكن ان يتعلق بقمر صناعي مدني لتحديد الارصاد الجوية او بقمر صناعي الكتروني مكلّف بمهمات سرية لجهاز الاستخبارات السوڤييتية ك.جي.بي وما على الخبراء الغربيين إلا أن يكتشفوا الغرض الحقيقي!

ان التقدم الذي تمّ احرازه في ميدان الاقمار الصناعية المكرّسة للمراقبة كان كبيراً في السنوات العشرين الأخيرة بالنسبة للأميركيين كما بالنسبة للسوڤييت. واذا كانت البرامج الاميركية متقدمة عامة بخمس إلى سبع سنوات على البرامج السوڤييتية فإن هذا لا يعني أن الاميركيين يسبقون دائماً السوڤييت إذ ان النتيجة النهائية (أي الحصول على المعلومات واستثمارها) هي الأهم مهما اختلفت الوسائل المستخدمة.

اما فيما يتعلق بالانتصارات التكنولوجية. فلا شك أن قصب السبق يعود للاميركيين. فسلسلة اقمارهم الصناعية للتجسس من فئة «كيهل» (اي ثقب

المفتاح) هي مثال على تلك الانتصارات. ان النموذج ما قبل الأخير من هذه السلسلة. كا. اش ـ ١١ مثّل خلال سني السبعينات النظام الأكثر كمالاً في ميدان التصوير الفضائي. ولم يكن معروفاً إلا من الندرة من المطلعين على الاسرار، إذ انه «سري للغاية»، اسمه الرمزي «كينان». أمّا فترةبداية الشروع بالقمر الصناعي كا. اش ـ ١١، فإنها تعود الى حرب الايام الستة في شهر يونيو ـ حزيران ١٩٦٧. إذ عند نهاية النزاع، طرحت الاستخبارات المركزية الاميركية على نفسها السؤال حول معرفة أي الاقمار الصناعية هو الأكثر ملائمة لهذا النمط من الاوضاع.

كان الحل المقترح من الاجهزة التقنية التابعة لجهاز الاستخبارات المركزية الاميركية يتجاوز من حيث التقدم التكنولوجي كل ما كان قد أقترح سابقاً من قبل السلاح الجوي الاميركي المكلّف بتمويل وادارة ذلك النمط من البرامج. لقد قبل البيت الابيض ذلك الحل في مطلع سني السبعينات. وكان القمر الصناعي كا. اش ـ ١١ بمثابة انتصار لجهاز الاستخبارات المركزية الاميركية آنذاك ريشار هيلمس على الآليات البيرقراطية الثقيلة للبنتاغون.

النموذج الاول من سلسلة اقمار كا. اش ـ ١١ تمّ اطلاقه بتاريخ ١٩ ديسمبر ـ كانون أول ١٩٧٦ من قاعدة ڤندنبرغ في كاليفورنيا بواسطة صاروخ تيتان دي ـ ٣. كان عمره في المدار ٧٧٠ يوماً، (اي ٢٠٠ يوم زيادة على الرقم القياسي للحياة الذي حققه سابقه كا. اش ـ ٩).

ان دقة الصور التي كان ينقلها كانت تتراوح بين ٤٥ و١٥ سنتمتر تبعاً لوضع القمر الصناعي على المدار (وهو مدار اهليلجي تتراوح أعلى واقرب نقطة إلى الارض فيه بين ٤٠٠ و٢٤٠ كيلومتر). الميزة الكبيرة التي كان يقدمها بالقياس إلى سابقية تكمن في انه كان يعمل في «زمن حقيقي»، اي مثل بث تلفزيوني مباشر. وعندما يمر القمر الصناعي كا. اش ـ ١١ من فوق منطقة حساسة يجري في الحال فك رموز معلوماته ومعالجتها في مركز استقبال يقع في قلعة بيلڤيور، وهي قاعدة عسكرية محميّة جداً على بعد ستين كيلومتراً من واشنطن في ڤرجينيا. أمّا القراءة النهائية للصور فإنها تتم في بناية مغفلة في واشنطن في شارع نيوجرسي على بعد خطوتين من الكابيتول.. إذا ظهر اي شيء غير طبيعي، فإن الصور مع بطاقة تفسير لمضمونها يمكن أن تكون بأقل من ساعة على مكتب رئيس البيت الابيض.

الهيئة التي تشرف على مجموع العمليات هي جهاز سري للغاية تابع لوزارة

الدفاع الاميركية، لا يُشار له حتى بين الاجهزة المعنية بالبرامج؛ انه المكتب القومي للاستكشاف الذي يديره بنفس الوقت جنرال من سلاح القوات الجوية ومدير جهاز الاستخبارات المركزية الاميركية وليام ويبستر.

سلاح الجو هو الذي يدير ايضاً برامج اقمار المراقبة في الاتحاد السوفييتي. اما استثمار المعلومات فإنه يتم من قبل جهاز استخبارات قيادة أركان الجيش السوفييتي بالتعاون مع الادارة الثامنة لجهاز الاستخبارات السوفييتية.

في الوقت الذي تستمر فيه الاقمار الصناعية السوفييتية عدة أسابيع (هذا ما يفسر كثافة اطلاقها) نجد أن الاقمار الاميركية من طراز كا. اش - ١١ تعيش شهوراً بل سنوات فوق رؤوسنا. وقد وضعتَ حتى الآن سبعة أقمار في مداراتها. امّا سعرها فخيالي إذ تصل كلفة الواحد منها إلى أكثر من نصف مليار دولار اميركي! مع ذلك، وبالرغم من تقنياتها العالية، فإنها تحتوي على عيب فادح إذ أن عدسات آلات تصويرها لا تستطيع سبر طبقة الغيوم.

انها عاهة كبيرة في نظر الاميركيين بسبب الموقع الجغرافي للاتحاد السوفييتي. إذ أن عدة مواقع يعتبرها الاميركيون اهدافاً أساسية توجد تحت الغيوم على مدار السنة كلها عملياً؛ مثل المصنع ٢٥ التابع لوزارة صناعات الدفاع والواقع في منطقة خاركوف. هذا المصنع المسمى «مالوتشيف» ينتج الدبابات المقاتلة الجديدة ت - ٧٤. ولم يستطع الاميركيون حتى اليوم، بسبب نقص وسائلهم التقنية، معرفة الكمية المنتجة سنوياً منها بدقة. من هنا جاء الالحاح على وضع القمر الصناعي اللاحق لـ كا. اش - ١١ في المدار.

كان النموذج الأول من القمر الصناعي كا. اش - ١٢ (اسمه الرمزي ايكون) جاهزاً منذ عامين. لكنه كان آنذاك يُنتظر اطلاقه بعد اخراجه من ملجأه الكاليفورني. كان حجمه كبيراً الى درجة أن مركبة فضائية كانت وحدها قادرة على انتزاعه من الارض. وكما يعلم الجميع، كانت المركبتان الفضائيتان الجاهزتان للاقلاع مسمّرتين طويلاً على الأرض بعد حادث المركبة شالنجر في ٢٨ يناير - كانون الثاني ١٩٨٦.

القمر الصناعي الجديد كان قادراً على تقديم كل الخدمات العالية التي كان يقدمها سابقه مباشرة، في جميع الاوقات والانواء حتى وسط الظلام الحالك. هذا التفصيل الأخير له أهميته لأن السوفييت، عبر معرفتهم بالامكانيات الدقيقة للقمر الصناعي كا. اش - ١١ اثر خيانة مستخدم من جهاز الاستخبارات المركزية الاميركية اسمه

وليام كامبلز، عام ١٩٨٠، اتخذوا عدة اجراءات لتمويه نشاطاتهم. إذ اصبح نقل الاعتدة الحساسة والمناورات السرية يتمّان في الليل أو في ظروف جوية سيئة. تلك الاجراءات تسمّى باللغة الروسية «ماسكيروفكا». وهي اليوم تشكل جزءاً من الممارسة الروتينية للعسكريين السوفييت مثل سخرة تقشير البطاطا، بالرغم من وجود سياسة الشفافية (غلاسنوست) أو عدم وجودها. ولقد استخدم العراق واسرف في استخدام سياسة الخديعة تلك.

ان القوتين العظميين - مثلما لجأتا الى استخدام «اعينهما»، جدّتا في استخدام «آذانهما». وربما كان هذا الميدان أكثر سرية من سابقه. إذ لا شيء يتسلل من تلك المنصّات العالية التقنية للتصنت الفضائي. على الجانب الاميركي، لا نعرف إلا بعض التسميات المبهمة التي تدل على هذا القمر الصناعي الغامض او ذاك.

لقد تعاقب بعد القمر الصناعي «نيوليت»، الذي تمّ اطلاقه بتاريخ ١٨ يونيو - حزيران ١٩٧٨، اقماراً صناعية اخرى ذات الاسم الغريب «اكاكاد». وتبعها «ارغوس» ثم «شاليه» و«ماغنوم» واخيراً «ڤورتيكس».. هذه الاقمار الصناعية تابعة لهيئة ليست أقل سرية منها هي الوكالة القومية للأمن الموجودة في منطقة الميرلاند. ولقد أقيم عد كبير من محطات التصنت في جميع انحاء العالم من اجل التقاط المعطيات وتحويلها بصورة مستمرة؛ كما في «بين غاب» (الرمز السري هو مورينو) في استراليا؛ وفي «مونويت هيلس» في بريطانيا. وهناك مراكز استقبال أخرى تابعة لوكالة الامن القومي موجودة في المانيا الاتحادية وحتى في الصين. انّ النواظم الآلية (الاوردیناتورات) الأكثر استطاعة تقوم بعملية فك الاتصالات المرمّزة التي يصل عددها سنوياً إلى عدة مليارات.

على الجانب السوفييتي، تتم العملية حسب نفس الآليات. الأقمار الصناعية تحمل جميعها اسم كوسموس متبوع برقم. ان القمر الصناعي الشهير كوسمو ١٩٠٠، الذي يُظن أنه سوف ينثر قريباً حطامه المشع على كل اوروبا، ينتمي الى فئة أقمار التصنت الالكتروني. ويعمل على ارتفاع ٢٦٠ كيلومتر، ومكلّف بمهمة التصنت على «الاشارات الرادارية» للاساطيل الغربية وتمييزها. الامر الذي يسمح لرئاسة أركان موسكو أن تعرف في كل لحظة نسق معركة البحرية الاميركية.

هناك حلقة أخيرة في السلسلة الفضائية تُضاف إلى «أعين» و«آذان» القوتين الكبيرتين. هذه الحلقة هي أقمار الاتصالات، الاسم الرمزي الاميركي لهذه الاقمار هو

« ميلساتكوم ». وهي تؤمن الاتصال بين الاقمار الصناعية الاولى وبينها وبين المحطات الارضية. انها تعلن حقاً ولادة « القرية الفضائية » العزيزة على قلب مارشال ماكلاهن؛ والتي يمكن أن تكون ساحة لمعركة كونية. وبالرغم من الاستخدام الاستراتيجي أساساً لتلك الاقمار فإنه يمكن وصفها بأقمار تجسس. ان استخدام هذه الاقمار نجح في اكتساب صفة الشرعية منذ توقيع اتفاقيات نزع التسلح (مثل اتفاقية سالت وغيرها) إذ اصبحت غايتها « التحقق » من تطبيق تلك الاتفاقيات، هكذا غدت عاملاً في احلال السلام؛ يا للتناقض. بكل الاحوال، من الواضح أن تعميم استخدامها بالنسبة لواشنطن كما بالنسبة لموسكو اصبح يتعلق بـ« حق الاعلام ».

ان هذا الحق، بالرغم من كونيته نظرياً، بقي حصراً على الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي اللذين لا يقدمان لحلفائهما إلا بعض المعلومات التي يحصلان عليها. وقد شهدت السنوات الاخيرة عدداً من عمليات التضليل الاعلامي عبر تزوير المعطيات التي قدّمتها الاقمار الصناعية. ان المثال الافضل توثيقاً هو مثال العقيد الاميركي نورث الذي قدّم للاميركيين صوراً مزعومة للقمر الصناعي كا. اش. ١١ تبين حشوداً للقوات السوفيتية على حدود ايران. لقد كان يأمل بإعادة الملالي الى حضن واشنطن.. وباطلاق سراح الرهائن في لبنان.

لذلك نلاحظ اليوم أنه تسود في العالم، خاصة في مناطق الازمة والتوتر، رغبة متعاظمة للحصول على المعلومات المستقاة مباشرة من صور الاقمار الصناعية. هذه الرغبة زادت ايضاً مع بروز كوارث بيئية فادحة، مثل كارثة « تشيرنوبيل ». هذا صحيح تماماً فيما يخص البلدان الاسكندنافية. لكن احتكار الكبيرين لمعلومات قُضيّ عليه في مهده عندما اطلقت فرنسا قمرها الصناعي الاول « سبوت » في شهر فبراير - شباط ١٩٨٦. واصبح متداولاً في السوق التجارية بعدئذ صور ومعطيات عدذية تسمح مبدئياً لكل شخص أن يتفحص دقائق الاماكن الأكثر سرية والأكثر صعوبة في المنال على الارض. وجعل التقدم العلمي اللاحق في مجال كشف المعلومات ومعالجتها تلك التقنيات أكثر فأكثر فعالية.

منذ دخول القمر الصناعي « سبوت » في الخدمة، اصبح من الممكن الشروع في اشكالٍ متنوعة وهامة من التحقق في ميدان الامكانيات النووية. هكذا سمحت صور « سبوت » لاجهزة الاستخبارات العسكرية النورويجية باكتشاف قاعدة غواصات

نووية على مسافة أقل من ٥٠ كيلومتراً من الحدود المشتركة مع الاتحاد السوڤييتي. انها قاعدة زاباندايا ليتسا السرية التي تتحكم بمدخل مرفأ مورمانسك حيث يرابط القسم الأكبر من الاسطول السوڤييتي في البحر الاركتيكي وبحر الشمال. إذ كانت صور سابقة لنفس القمر الصناعي قد سمحت قبل بضعة أشهر بمعرفة دقائق قاعدة سوڤييتية أخرى في شبه جزيرة كولا، هي قاعدة مرفأ غريمين.

ان وضع الاقمار الصناعية للمراقبة في السوق التجاري، من امثال سبوت، خلق وضعاً جديداً على المسرح الدولي. إذ ان القوتين العظميين لم تعودا قادرتين على الاتكال فقط على حجبهما المشترك للمعلومات عن الغير. فهناك بلدان أخرى سيكون باستطاعتها مراقبة بعض نشاطاتهما المخبأة أو غير المعترف بها حتى حينه؛ الأمر الذي ينبغي أن يحثهما على «شفافية» أكبر.

في عام ١٩٧٨، اقترحت فرنسا على منظمة الأمم المتحدة تشكيل «الوكالةالدولية لرقابة الاقمار الصناعية» بقصد تذليل الصعوبات الملازمة للتحقق من تطبيقات معاهدات نزع الاسلحة. ودعمت وزارة الخارجية الفرنسية القول، بالاعتماد على ذلك المشروع، بأن البلدان التي لا تمتلك اقماراً صناعية للمراقبة لا تستطيع الوثوق بالمعلومات الجزئية التي تقدمها لها القوى العظمى.

لقد أجريت دراسات عديدة دون أن يخرج منها أي شيء محسوس على أرض الواقع حتى الآن. مع ذلك تتحسن بعض الشيء منظورات خلق هيئة مراقبة دولية أو اقليمية بواقع ان احتكار القوتين العظميين قد اهتز. ومن بين المشاكل التي تعترض التقدم في هذا المضمار هناك الكلفة الباهظة جداً لوسائل الكشف بدقة كبيرة وتغطي مساحات شاسعة من الارض؛ ومشاكل تنظيم شبكات استقبال المعلومات وتوزيعها. لكن التجربة المكتسبة في ميدان سبوت وظهور التقنيات الجديدة يشكلان عوامل تسهل اقامة نظام فضائي دولي.

ان ما يثير السخرية في الوضع الحالي هو ان وزارة الدفاع الاميركية غدت، منذ حادث المركبة الفضائية شالنجر في شهر يناير - كانون الثاني ١٩٨٦، الزبون الأول للقمر الصناعي سبوت.

بالرغم من الدقة الكبيرة لاقمار الاستخبارات والمراقبة المباشرة فإنها لم تستطع أن تحدد بشكل مستمر الخسائر الناتجة عن قصف طيران الحلفاء. عندما كانت قنابل باڤواي الموجهة بواسطة اللايزر او الصواريخ تنسف ابواب الملاجىء العراقية

الموجودة تحت الارض؛ انما كانت تقوم برمي عملياتي حقيقي، لكن كيف كان يمكن تقدير الخسائر العراقية يوماً بعد يوم وتقدير مدى الهزيمة العراقية؟ ان القمر الصناعي سبوت كان عديم الجدوى تماماً اثناء مروره فوق العراق بتاريخ ٢٢ يناير - كانون الثاني بسبب غطاء الغيوم الكثيف.

ان القوات الاميركية وضعت في الخدمة ايضاً منذ مطلع شهر سبتمبر - أيلول طائرات استكشاف كانت تحلق بصورة منهجية فوق العراق كي تتبين التشكيلة القتالية لوحدات صدام حسين والوضع الحقيقي للأعتدة الموجودة في مواجهة قوات التحالف. ومنذ بداية غزو الكويت اطلقت الولايات المتحدة طائراتها للتجسس من طراز U2 او ار. اف. ٤ سي (RF-4C) او تي. ار - ١ (TR-1) المزوّدة بانظمة للاستكشاف التكتيكي؛ كما اعطت الاوامر لطياري طائرات اف ١٥ - سي (F15-C) واف ١٥ - اي (F15-E) للقيام بمهمات استطلاع جميع القوات العراقية على طول الحدود.

فيما بعد أخذت طائرات الحرب الالكترونية والعمليات الخاصة وطائرة الرادار أواكس، التي هي نوع من مقر القيادة المتحرك، مكانها كي تحدد الاهداف الجوية والارضية وتحوّل جميع المعلومات الى مراكز قيادات الحلفاء على الارض.

كما ان الاتحاد السوڤييتي اجرى، من جهته، عمليات استطلاع فوق الخليج العربي بواسطة اقماره الصناعية للاستكشاف. هذه الاقمار كانت هي التالية: القمر الصناعي ٢٠٨٦ الذي تمّ اطلاقه بتاريخ ٢٠ يوليو - تموز. وقام بعمليات روتينية في الأيام الاولى لمهمته. مع ذلك قام السوڤييت بتخفيض مداره بتاريخ ٢٨ يوليو - تموز عندما بدأوا يدركون او يخشون وقوع غزو عراقي للكويت. وقد سمح المدار الجديد للقمر الصناعي كوسموس ٢٠٨٦ بالمرور المباشر فوق المنطقة مرة كل يوم قبل عودته الى الارض بتاريخ ٣ اغسطس - آب، أي بعد يوم من الغزو.

امّا القمر الصناعي كوسموس ٢٠٨٩، الذي اطلقه السوڤييت بتاريخ ٣ اغسطس - آب كي يحل محل القمر الصناعي السابق الذي اعادوه إلى الارض، فإنه عالي الدقة من الجيل الرابع وقادر على أن يرسل افلامه في كبسولات دون توقيف مهمته. وبعد اسبوع من اطلاقه غيّر السوڤييت من آلية عمله بحيث اصبح مرّة كل يوم فوق الخليج العربي.

وكان السوڤييت قد اطلقوا قبل غزو الكويت بأسابيع قمراً صناعياً متقناً ومصمماً

كي يعيش طويلاً ويعطي صوراً دقيقة الحساب، هو كوسموس ٢٠٣٧ . وقد ظلّ طيلة فترة النزاع يؤمن صور المنطقة لرئاسة الأركان في موسكو.

ان صدام حسين الذي لا يمتلك «آذاناً» و«عيوناً» لجأ إلى استخدام أقدم أشكال الدهاء والمراوغة كي تنتصر الحرب النفسية في مواجهة الحرب التكنولوجية.

***

الثعلب:

ان الكتاب المفضّل لدى صدام حسين هو كتاب يعود تأليفه إلى ما بين القرنين السادس والرابع قبل العصر الميلادي. وقد كتبه المؤلف الصيني صن تسو، وعنوانه «فن الحرب». انه عبارة عن كتيِّب يحتوي على وصايا موجهة للامراء والقادة، كان قد جلبه المبشّرون الى الغرب في القرن الثامن عشر.

معظم فصول الكتاب الثلاثة عشر مكرّسة لقيادة الحرب وللقواعد التكتيكية وللجمع بين استخدام الرجال واسلحتهم، وكذلك للتأثير - المعنوي خاصة - للعناصر الخارجية على العقيدة العسكرية، إذ يقول الكتاب: «ان الذي يقاتل من أجل النصر وهو حافي القدمين ليس جنرالاً جيداً». ان صدام حسين امر أن يُترجم له هذا الكتاب إلى اللغة العربية. وقد تلقى الجنرالات العراقيون نسخاً منه عليها تعليقات صدام حسين. ان استراتيجية الكتاب كلها تقوم على جعل الخصم قابلاً للانثلام قبل المعركة، وذلك بالاستخبار المسبق عن قواته المادية والمعنوية، وذلك بواسطة أعمال سرية واشاعات كاذبة، إذ ان «فن الحرب كله يقوم على التضليل». وينصح الفيلسوف الصيني بالتمويه وبأثر المفاجأة وبسرعة المعلومات، ودقتها، كما يخصص فصلاً كاملاً لاستخدام العملاء السريين ولتسميم اذهان استراتيجيي الاعداء وتشويشها. لقد استخدم صدام حسين طيلة أزمة الخليج استراتيجية الاحتيال والتضليل الاعلامي هذه. ففي شهر فبراير - شباط ١٩٧٢ اكتشف ميزات الاساليب السوڤييتية في التضليل الاعلامي. وقد شارك حينذاك بوصفه الشخصية الثانية في العراق في التوقيع على معاهدة في العاصمة السوڤييتية بين رئيس الوزراء الكسي كوسيغين والرئيس العراقي آنذاك احمد حسن البكر. كانت مدة الاتفاقية خمسة عشر عاماً وتقضي بتجديدها بشكل آلي. ينصّ البند الاول على أن معاهدة صداقة لا تنفصم عراها ستربط الأمتين والشعبين اللذين سيطوران تعاونهما الكامل في الميادين السياسية والاقتصادية والتجارية.

وينص البند ٨ على انه في حال احتمال قيام وضع يهدد سلام اي من البلدين، فإن العراق والاتحاد السوڤييتي سيبدآن فوراً اتصالاتهما من أجل ازالة التهديد. ويقر البند ٩ ان الطرفين سيتابعان تطوير تعاونهما من أجل تدعيم قدرتهما الدفاعية لصالح أمن البلدين.

ضمن هذا الاطار من المساعدة والتعاون في ميادين الأمن اجرت الكوادر العليا في اجهزة الاستخبارات العراقية دورات تدريبية لدى الدوائر المختصة في جهاز الاستخبارات السوڤييتية كا. جي. بي. وخاصة المصلحة آ المكلفة بعمليات التضليل الإعلامي.

لقد اسرّ لي اناتولي لتشفنكو، وهو عقيد في جهاز الاستخبارات السوڤييتي لجأ إلى الغرب وكان أحد مسؤولي التضليل الاعلامي في موسكو، قوله بأن العراقيين كانوا طلبة مثابرين وموهوبين.

انّ اعجاب صدام حسين كان كبيراً وسريعاً بالتقارير التي تلقاها من ضباط استخباراته عندُ عودتهم من مدارس الاستخبارات السوڤييتية في كييڤ وموسكو ولينينغراد. ويروي مسؤول جهاز سري غربي أتيحت له فرصة نقاش الاساليب السوڤييتية في التضليل الاعلامي مع أحد اعضاء الاستخبارات العراقية منذ عشر سنوات انه فوجىء عند سماع هذا الاخير يروي له الحادثة التالية: «ذات يوم جمع صدام حسين ضباط استخباراته كي يحدثهم بدقة عن مشاكل الحرب النفسية وقد اصطحب معه نسخة من الانجيل. كان يرى أنه يمكن أن نجد في هذا الكتاب قصصاً عن تقنيات التضليل الاعلامي. وكان مهتماً بشكل خاص بالاستيلاء على جرش». وقد قال ايضاً لوزير تونسي سابق قابله في بغداد: «الحقيقة في السياسة هي كذبة لم يتم اكتشافها حتى الآن».

ان الرأي العام الفرنسي والدولي أدرك ان صدام حسين لعب طيلة حرب الخليج، في مواجهة براهين القوة التكنولوجية للحلفاء لعبة اخرى، كما قال الاميرال لاكوست (الرئيس السابق لجهاز مكافحة التجسس في فرنسا). واكتشف ذلك الرأي العام أن ثمة اشكالاً من الدهاء ومن الخُدَع ومن الحيل قادرة على تضليل الجيوش الأكثر ذكاءً وخداع الجنرالات الأكثر تجربة وخبرة.

في بغداد، شكّل صدام حسين منذ بداية الازمة خلية أعمال بسيكولوجية مكرّسة بشكل خاص لفرنسا التي يعتبرها بمثابة عقدة رئيسية للعلاقات بين العراق والعالم

العربي. وقد حاول بشكل خاص أن يتوكأ على الرأي العام الفرنسي وعلى الساسة فيه من أجل شق التحالف. كان يدير «الفرع الفرنسي» فيما يتعلق بعمليات الدعاية عضو سابق في البعثة الدبلوماسية العراقية في باريس هو وليد عباس. كما كان من بين اعضائها اخصائيون آخرون في مشاكل الاعلام والتضليل الاعلامي مثل عبّاد رحين وحميد سعيد وطاهر البصري. وكانوا يعملون بالاتصال مع دبلوماسيين سابقين او صحفيين عراقيين عاشوا في فرنسا منذ فترة وجيزة وهم قادرون على تقديم تحليلات دقيقة للسياسة الفرنسية.

مراسلهم في باريس كان عدي الطائي المستشار الصحفي للسفارة والمجاز من المدرسة العليا للمترجمين في باريس، والبالغ من العمر احدى وأربعين سنة.

كانت كل المعلومات تُقدّم لصدام حسين بعد مراقبتها من قبل مسؤولي الاجهزة السرية العراقية. احد هؤلاء حافظ على علاقات ممتازة مع موظفين فرنسيين خلال السنوات العشر الاخيرة. كما كانت المعلومات تأتي من باريس وغيرها من العواصم الاوروبية بواسطة عملاء الاجهزة العراقية في السفارات. كل شيء يخضع لدراسة تفصيلية كالافتتاحيات والصحف وتصريحات رجال السياسة واستطلاعات الرأي العام. بل قامت الاجهزة السرية العربية بانجاز دراسات عن اذواق وصفات و«نقاط ضعف» بعض مسؤولي الصحف ووسائل الإعلام في فرنسا.

في البداية كانت عمليات التضليل الاعلامي مبتذلة وتشابه العمل الدعائي أكثر مما هي عمليات دقيقة مدروسة. إذ مثلاً تمّت محاولة اظهار أن الثروة الشخصية للملك فهد أو لأمير الكويت تساوي تقريباً ضعفي القروض التي قدّمتها السعودية والكويت للعراق اثناء الحرب ضد ايران.

ان مسؤولين في الاجهزة الخاصة العراقية قدموا إلى جنيف في شهر نوفمبر - تشرين الثاني لانهم علموا أن احد افراد العائلة المالكة السعودية سيحصل من شركة «سوتيبيس» على ماسة يزيد وزنها عن المائة قيراط. كان قصدهم هو الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات كي ينشروها في الصحافة الدولية ويبيّنوا أن النزاع في الخليج هو في الواقع نضال بين البلدان الغنية والعراق.

اثناء ازمة الخليج، خسر احد السعوديين اكثر من ٨٠ مليون فرنك فرنسي في كازينو «كارلتون» في مدينة كان. فسرعان ما نشر الخبر في صحف بغداد وطلبت رسالة «تلكس» من جميع السفارات العمل من أجل نشر هذه المعلومة في الصحف،

خاصة صحف العالم العربي والمغرب.وبتاريخ ١١ اغسطس - آب نشرت صحيفة الثورة الناطقة باسم حزب البعث خبراً تحت العنوان التالي: «الليالي الساخنة؟» ودل الخبر على أن مسؤولين في الخليج مصابون بمرض السيدا (الايدز). وكتبت الصحيفة «أن المال والشرف تمّ هدرهما في حياة الفسق». وارفقت خبرها بوثيقة طبية مزوّرة تثبت ان احد كبارمسؤولي الخليج مصاب بمرض السفلس، اي الزهري. كما وضعت الاجهزة العراقية في التداول صوراً مفبركة لمسؤولين كويتيين او سعوديين او من الامارات بحضور راقصات في الملاهي الليلية، وعممتها في عدة بلدان عربية مزيلة بالجملة التالية: «كانوا فاسقين في طفولتهم واصبحوا اكثر فسقاً عند بلوغهم».

هناك نصٌ آخر تمّ توزيعه ايضاً عن تلطيخ الأرض المقدّسة بمرض الايدز، وقد اعدّت الاجهزة العراقية النص التالي: «اكّدت مصادرطبية وجود الآلاف من مرضى الايدز ومن متعاطي المخدرات في صفوف الجيش الاميركي في السعودية. ودلّت تلك المصادر على ان آلاف الجنود الاميركيين الذي ادخلهم الخونة إلى أرض العرب المقدّسة مصابون بمرض الايدز ويهددون المجتمع العربي بجسده وبروحه. وكما يثبت التقريرالاسبوعي لمنظمة الصحة الدولية، تقر الاوساط الطبية في جميع انحاء العام ان مرض الايدز منتشر جداً في المجتمع الاميركي - لقد تمّ احصاء أكثر من ٨٠,٠٠٠ حالة في النصف الاول من هذه السنة. وتقدِّر الاوساط العلمية عدد المرضى المصابين بالايدز والذين لم يكشف مرضهم بأكثر من مليون شخص».

وجاء في كراسٍ اعدته الاجهزة العراقية بعنوان: «مكّة، هجرة الحمام»، ما مفاده: «لاحظ العديد من سكان مدن معان والكرك والعقبة في الاردن رفوفاً من الحمام تهاجر من بيت الله الحرام وقبر محمّد. لقد اثارت هذه الظاهرة حيرة جنوب الاردن لا سيما وانها تترافق مع تدنيس الأماكن المقدّسة بالقوات الاميركية والصهيونية».

وجاء في نص آخر حول «مقهى الفوكيت في باريس» تمّ توزيعه في العراق وكان موجهاً للصحافة الأردنية، ما مفاده: «في اجمل شارع في العالم يوجد مقهىً اسمه الفوكيت. تمك هذا المقهى شركة يشكل خدم الامبريالية آل سعود وآل الصباح المساهمين الرئيسيين فيها. انها ليست منشأة عادية فالطابق الاول منها يضم مهرجاناً فنياً. موضوع حديثنا هو قاعة الطابق الاول. ففي كل صيف يجتاح خدم الامبريالية اوروبا بعرباتهم الفاخرة بعد نقلها بالطائرة او بالباخرة. انهم يجلسون على رصيف المقهى بشياب اوروبية يحيط بهم حرسهم بانتظار بائعات الهوى. ولا

يخجلون من عرض انفسهم على المصورين الذين يستفيدون من ذلك كثيراً لدى صحف الاثارة. هكذا تتفرغ الصحافة الاوروبية للسخرية من هؤلاء الاشخاص وتلوث بالنتيجة كل العرب. لقد اصبح العربي يُقدّم دائماً بالعقال والكوفية. وكأنه لا يوجد في العالم العربي اناساً يموتون من الجوع. هؤلاء الامراء ينفقون الملايين من أجل اشباع غرائزهم الدنيئة بينما لا يجد آخرون المأوى او الغذاء».

كذلك فُبركت في استديوهات الاستخبارات العراقية اشرطة كاسيت تبين مجون مسؤولين كبار في الخليج... وقد تمّ ارسال هذه الاشرطة إلى طهران.

في نهاية شهر اكتوبر - تشرين اول حاول دبلوماسيون عراقيون وضع وثائق مزوّرة، ادّعوا انهم وجدوها في مقرات الاجهزة السرية الكويتية، في التداول. وهي عبارة عن رسالة بين جهاز المخابرات المركزية الاميركية والمدير العام لادارة الأمن في دولة الكويت العقيد فهد الفهد. هذه الوثيقة، التي قال العراقيون انهم سحبوها من ارشيف الحكومة الكويتية، قام طارق عزيز شخصياً بتسليمها الى عدة دبلوماسيين. وبالرغم من تكذيب بيتر ارنست الناطق الرسمي باسم جهاز الاستخبارات المركزية لها، ورسالة وزير خارجية الكويت للأمين العام للأمم المتحدة بقصد شجب ذلك التزوير، قامت بعض الصحف بنشرها، مثل جريدة «الاردن تايم».

كان المطلوب من تلك الرسالة المزعومة كشف التنسيق في مجال الاستخبارات بين الاجهزة السرية لامارة الكويت وجهاز الاستخبارات المركزية الاميركية. الهدف من ذلك هو تبيين أن الولايات المتحدة كانت ترى بأن العراق كان يعاني قبل الثاني من اغسطس - آب من وضع بالغ الضعف بسبب متاعبه الاقتصادية والمالية، وانه يتوجب الاستفادة من ذلك الوضع من اجل ممارسة ضغوط حاسمة على بغداد بغية الحسم لصالح الكويت في جميع الخلافات النفطية والحدودية والمالية الموجودة بين البلدين. وبشكل ما، كان المقصود هو أن يبيّن العراق للرأي العام الدولي أن الولايات المتحدة الاميركية كانت قد قررت الحرب ضد العراق قبل غزوه للكويت في ٢ اغسطس - آب ١٩٩٠. ان العديد من الصحفيين والكتّاب اعادوا نشر تلك الرسالة عن حسن نيّة.

ان التضليل الاعلامي يشكل استراتيجية ذات فعالية كبيرة جداً في الهاب الرأي العام وتغيير سلوكه، بعيداً عن الحقيقة. ولم يكف العراق عن اللجوء إلى هذا السلاح النفسي في حرب البيانات التي اعقبت غزو الكويت؛ وذلك من أجل التأثير على

الرأي العام الدولي والضغط عبر ذلك على حكومات بلدان التحالف.إذ عندما كانت القوات متعددة الجنسيات قد بدأت تأخذ مواقعها من أجل فرض احترام الحظر، ضاعفت الاجهزة العراقية نشاطاتها في ذلك الميدان. ان العراقيين كانوا يضللون اعلامياً في شتى الاتجاهات.. بدءاً من اعلان الانتصارات الكاذبة للقوات العراقية ومروراً بالحديث عن الاراضي وتدنيس الاماكن المقدّسة والاغتيالات والانتفاضات الداخلية.

وكعينات على ذلك يمكن ذكر الاحداث التالية التي ترددت اخبارها في الصحف او الاذاعة العراقية او وسائل الاعلام الاجنبية:

- القوات الاميركية دنّست الاماكن المقدّسة الاسلامية في السعودية؛
- وزارة الدفاع الاميركية (البنتاغون) قامت بارسال مئات من النساء المصريات لتلبية رغبات الجنود الاميركيين؛
- مواطنون سعوديون معارضون للوجود الاميركي قاموا بنسف تجهيزات عسكرية اميركية؛
- الكثير من الجنود الأميركيين قد يكونون مصابين بمرض الايدز.
- الولايات المتحدة تستفيد من وجودها في الخليج من أجل دفن نفايات نووية في الصحراء السعودية؛
- القوات العراقية دخلت إلى الكويت لحمايتها من غزو اميركي؛
- القادة السعوديون يتناولون الكحول في القواعد الاميركية؛
- الولايات المتحدة تصادر النفط السعودي؛
- مئات الكنائس شيِّدت في السعودية من قبل الاميركيين...

ان وثائق فبركها العراقيون وحولوها إلى الامم المتحدة ورسائل مزيفة، نشرت الصحافة النيجيرية بعضها، ظهرت لتعاضد هذه الاقوال. وسرّب العراق معلومات كاذبة عن وضع المعارك في الخليج مستخدماً وسائل الاعلام العراقية التي وجدت على الاغلب صدىً لدى مطبوعات اجنبية في بلدان متعاطفة مع العراق مثل اليمن والجزائر وتونس والاردن؛ وربما على صعيد أقل في الباكستان والمغرب وموريتانيا وبنغلاديش والسودان كما ساهم بعض سفراء العراق ايضاً في عملية التزييف تلك عندما ظهروا على شاشات التلفزة الاجنبية كي يحتجوا ضد العدوان الذي تمثل بلادهم ضحية له.

وقد جاء في مقتطفات العديد من وسائل الاعلام ما مفاده:

«اعدّ عسكريون اميركيون بالاتفاق مع مسؤولين سعوديين كبار هجوماً ضد الكعبة في المدينة بواسطة قذائف صاروخية تحمل الاحرف الاولى الدالّة على الجيش العراقي بقصد الصاق المسؤولية ببغداد وايجاد حجة بنفس الوقت للهجوم على العراق» (صحيفة النهار الصادرة في اسرائيل بتاريخ ٣٠ ديسمبر - كانون اول ١٩٩٠).

«تمرّد عدد من الجنود الباكستانيين من القوة المتعددة الجنسية الموجودة في الخليج ضد الجنود الاميركيين وقتلوا عدداً منهم. كما قُتل خمسة من الباكستانيين اثناء تبادل اطلاق النيران» (صحيفة باكستانية يومية اسمها «المركز» ١٦ يناير - كانون الثاني ١٩٩١).

«الاجهزة السرية الاميركية تخطط لاغتيال الامير ولي عهد الكويت» (اذاعة بغداد، ١٥ يناير - كانون الثاني ١٩٩١).

«محاولة انقلاب كادت ان تنجح في مصر الاسبوع الماضي» (اذاعة بغداد، ١٦ يناير - كانون الثاني ١٩٩١).

«مجموعات كوماندوس من جنود المارينز الاميركيين فتّشت سفينة تجارية تابعة لبنغلاديش في البحر الاحمر» (صحيفة بنغلاديش سنغباد، ١٧ يناير - كانون الثاني ١٩٩١).

«قررت الحكومة الباكستانية طرد المستشار الصحفي لسفارة العراق بسبب نشاطات لا تتماشى مع موقعه الدبلوماسي - تتمثّل تلك النشاطات في التحريض على المظاهرات والمساهمة المالية في إعداد مناشير الدعاية ضد الدولة الباكستانية» (اذاعة اسلام اباد بتاريخ ١٨ يناير - كانون الثاني ١٩٩١).

«ضغط سفير الولايات المتحدة في الباكستان على الحكومة الباكستانية كي تسمح للأميركيين باستخدام قاعدة موريبور من أجل طائراتهم» (جاسارات، صحيفة باكستانية، ١٨ يناير - كانون الثاني ١٩٩١). بعد ثلاثة أيام جرى تكذيب قاطع بأن تكون طائرات ب - ٥٢ تقلع من الباكستان كي تقوم بغارات على العراق.

«ضربت الصواريخ العراقية عدة قواعد اميركية في الرياض وفي الظهران» (اذاعة بغداد وتلفزة اليمن، ٢١ يناير - كانون الثاني ١٩٩١).

«لجأت الاسرة المالكة السعودية الى المغرب» (الرأي الاردنية والشروق

التونسية، ٢١ يناير - كانون الثاني ١٩٩١). كذّب ناطق رسمي سعودي خبر الهروب بنفس اليوم تكذيباً قاطعاً.

«حدثت عمليات عصيان بين جنود القوات المصرية والسورية والسعودية داخل التحالف» (اذاعة الجزائر، ٢١ يناير - كانون الثاني وصحيفة الشروق، ٢٢ يناير - كانون الثاني ١٩٩١).

«اطلقت تركيا صواريخ ضد العراق» (اذاعة بغداد، ٢١ يناير - كانون الثاني). كذّب وزير الخارجية التركي الخبر فوراً.

«هبطت ثلاث طائرات من التحالف في مطارات عراقية وسلّم طياروها انفسهم للقوات العراقية» (صحيفة صوت الشعب الاردنية، ٢٣ يناير - كانون الثاني).

«قُتل ١٠٠ جندي اميركي في صدام بين القوات الاميركية وجنود البلدان الاسلامية قريباً من الدمام في السعودية» (وكالة الصحافة الايرانية، ٢٢ يناير - كانون الثاني).

بنفس اليوم اخذت دوائر الصحافة الكوبية هذه القصة ووضعتها في التداول في اميركا اللاتينية. وبتاريخ ٢٣ يناير - كانون الثاني اعادت نشر الخبر عدة صحف تونسية.

بتاريخ ٢٤ يناير - كانون الثاني اكّدت صحيفة باتريوت الهندية (التي أسسها جهاز الاستخبارات السوڤييتية عام ١٩٦٢) من جديد خبر اشتراك الاسرائيليين في الحرب دون أن يكون لديها أي دليل. وفي اليوم السابق كانت هذه الصحيفة نفسها قد أكدّت أن تركيا تتطلّع الى الاستيلاء على المناطق النفطية في شمال العراق وأن الولايات المتحدة تدعم الاطماع الامبريالية لهذه الدولة.. اصل هذا الخبر هو برقية سوڤييتية عاجلة..

«يجري نقل الجنود الاميركيين القتلى في المعارك من السعودية الى جيبوتي ثم الى جزيرة كريت حيث يجري دفنهم سراً» (دائرة اعلام جزائرية. ٢٩ يناير - كانون الثاني).

«جمعت السلطات الاسرائيلية عدة آلاف من المعتقلين والسجناء الفلسطينيين كي تستخدمهم كدرع بشري لحماية المفاعل النووي الاسرائيلي (ديمونا) في صحراء النقب من الصواريخ العراقية» (جريدة الدستور الاردنية، ٢٩ يناير - كانون الثاني).

«قُتل ٢٥ بريطاني واميركي اثر مشاجرة بين جندي بريطاني وضابط اميركي سكران كان قد أمره بحفر خندق في الرمال» (صحيفة جيدات الباكستانية بتاريخ ٣٠ يناير - كانون الثاني ١٩٩١، نقلاً عن بيان للوكالة الافغانية للصحافة الدولية).

بتاريخ ٣١ يناير - كانون الثاني اتهمت اذاعة بغداد القوات الاميركية انها فتحت النيران على القوات المغربية المرابطة في السعودية وقتلت عدة ضحايا. كان السبب في هذا الاشتباك المزعوم هو ان «عدداً كبيراً من الجنود المغاربة رفضوا المشاركة في عمليات عسكرية ضد العراق». هذا الخبر جرى تكذيبه بسرعة من قبل وكالة الصحافة المغربية الرسمية باعتباره «تأكيدات كاذبة لحملة بغيضة ترمي الى تشويه اسباب الوجود المغربي في السعودية».

زعم العراق أنه اسقط اكثر من ٢٠٠ طائرة وصاروخ من قوات التحالف. وقالت بغداد أن بعض الصواريخ لم تنفجر عندما اصابت اهدافها فأمكن استردادها لاستخدامها من جديد. في كل مرّة كان العراق يعلن أنه اسقط هدفاً جوياً معادياً توجب تقسيم الرقم المقدّم على عشرة، الأمر الذي يمكن تمثيله بشكل تقريبي حسب الجدول التالي:

البيان العراقي	بيان قيادة الحلفاء
١٤ طائرة	٢ طائرتان
٤٤ طائرة	٤ طائرات
٩٤ طائرة	٨ طائرات
١٦٠ طائرة	١٤ طائرة

بتاريخ ٢١ يناير - كانون الثاني زعم العراق أنه اسقط ١٧٨ طائرة من قوات التحالف؛ في الوقت الذي لم تكن قد وصلت فيه الخسائر سوى الى ١٥ طائرة بين ساقطة ومفقودة. مع ذلك سرعان ما غيّر العراق اللغة السابقة أمام عبثية الارقام المقدّمة وبدأ باستخدام تعابير مثل «عدد ما».

وقالت بغداد ان القوات متعددة الجنسيات قصفت عن سابق عمد وتصميم مناطق سكنية ومواقع ثقافية ومشافي وابنية دينية خاصة في مدينتي النجف وكربلاء المقدّستين. وكان الجنرال شارل هورنر، رئيس هيئة اركان القوات الجوية الاميركية قد

قال يوم ١٨ يناير - كانون الثاني أنه «منذ البداية التزم المتحالفون بتجنب اي قصف للاهداف المدنية ولاماكن العبادة في الاراضي العراقية». وفي ١٧ يناير - كانون الثاني اعترف الجنرال كولن باول رئيس هيئة الاركان العامة لقوات الحلفاء بأن ٢٠٪ من الطائرات كانت تعود إلى قواعدها دون أن تلقي حمولتها من القنابل بسبب سوء الاحوال الجوية أو بسبب عوارض ميكانيكية. وفي ٢٧ من نفس الشهر صرّح الجنرال شوارزكوف قائلاً: «لقد اتخذنا دائماً الاجراءات الضرورية لتجنب اي قصف للمدنيين. واننا نستخدم الاسلحة التي تتناظر مع نمط الهدف الذي نريد تدميره. في حالة اي شك نلغي العملية. لكن سوف نقتل عاجلاً أم آجلاً ابرياء بحادث غير مقصود. امّا الآن فإننا نفعل أقصى ما في وسعنا لتجنب حدوث أمر كهذا، أو على الأقل لتأخير حدوثه». يجب القبول أن العراق في موقع لا يسمح له بالتشكّي من الهجوم على المدنيين. إذ من المعروف ان الاطلاق المتكرر لصواريخ سكود على السعودية او على اسرائيل كان يستهدف مواقع مدنية كما وصفه جورج بوش قائلاً: «انها هجومات ارهابية ضد السكان... ودون أي هدف عسكري معّين بشكل مسبق».

ان «حرب الاكاذيب» هذه سبقتها حرب سرية للاجهزة العراقية حول موضوع الترسانة العسكرية التي تمتلكها بغداد. هل أوقع صدام حسين الحلفاء في فخ شيطاني عندما سبب، عن قصد، مجزرة المدنيين التي ذهب ضحيتها ٣٠٠ قتيل، في بغداد يوم ١٢ فبراير - شباط عندما قصف الطيران المتحالف الملجأ المصفّح؟ اذا كان البيت الابيض يرفض الحديث رسمياً عن تلك الاستراتيجية الرهيبة، فإن ضباط الاستخبارات في البنتاغون لا يستبعدون مثل هذه الامكانية.

ربما ان الاجهزة العراقية قد نظّمت نشاطاً عسكرياً «مرئياً» حول الملجأ المصفّح من أجل جلب انتباه أقمار التجسس الصناعية. وربما ان اوامر قيادية أعطيت من الملجأ المصفح الى القوات العراقية على الجبهة من أجل جلب انتباه الآذان الالكترونية. وربما أن صدام حسين نفسه قد أقام عدة مرّات في مطلع شهر فبراير - شباط في ذلك الملجأ، وكان يخرج منه مسبوقاً بسيارات حرسه الشخصي بينما يأخذ هو سيارات الرئاسة «الليموزين» السوداء.

ان البناء المهدّم كان في الأصل نوعاً من الملجأ المضاد للطيران ثم اصبح في عام ١٩٨٥ مركزاً لقيادة الجيش العراقي. وهو واحد من خمسة وعشرين ملجأ بنيت

أثناء الحرب بين ايران والعراق. وربما إن العراقيين قد غمروا قبو الملجأ بالمياه بعد القصف، إذ كان يخبيء اجهزة تكنولوجية متقدمة تسمح بالاتصال مع قيادة اركان الجيش. لقد فعلوا ذلك كي لا يستطيع الصحفيون الحاضرون في عين المكان رؤية الاجهزة وتحديد موقعها. ان الصواريخ التي هدّمت البناء اطلقتها الطائرات ليلا في الساعة ٢,٤٠ بتوقيت باريس. لكن اخبار الحادث لم تصل الى فرنسا إلا حوالي الساعة ١٤. هذا يعني أن وقتاً طويلاً قد انقضى بين لحظة قصف الملجأ وسماح العراق بتسرب المعلومات حول ما جرى. لقد استثمر العراقيون هذا الوقت من أجل ايجاد اخراج مناسب حول تلك المأساة.

هناك عنصر آخر يثير القلق بشكل خاص ويتمثل في وجود لافتتين تدلان على مكان الملجأ احداهما بالعربية والاخرى بالانكليزية. وهذا امرٌ يدعو للفضول على الأقل في حي سكني لا يوجد فيه أجانب، وحيث يتكلم جميع العراقيين اللغة العربية. هل هذا اخراج موجّه لعدسات التلفزة يُقصد منه أن يفهم كل متفرج غربي أولاً بأول أن المسألة تتعلق بملجأ مدني وليس ببناء عسكري؟.

بتاريخ ١٥ فبراير - شباط كان صدام حسين لا يزال يلعب باعصاب الرأي العام. لقد اقترح الانسحاب من الكويت بعد تحقيق عدة شروط تتناقض مع منطوقات القرار ٦٦٠ الصادر عن مجلس الأمن الذي قبل بتطبيقه للمرّة الاولى.

ان مجلس قيادة الثورة في بغداد طالب في بيانه الغاء جميع قرارات الامم المتحدة الاحدى عشرة المتعلقة بالخليج وطلب رحيل القوات الاجنبية من المنطقة في مدة شهر بعد وقف اطلاق النار وانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة وهضاب الجولان وجنوب لبنان. وطلب المجلس ايضاً الغاء الديون المستحقة على العراق ومساهمة البلدان «المعتدية» في اعادة اعمار البلاد. وقد استقبلت الميليشيات بالطلقات النارية الاقتراحات الجديدة للسلام تعبيراً عن الفرحة بالانتهاء من حالة الحرب، بينما استقبلتها واشنطن وباريس ولندن برشقات من الشك.

بتاريخ ١١ فبراير - شباط قدم الى بغداد مرّة جديدة ايفغيني بريماكوف ممثلاً للاتحاد السوفييتي بقصد اللقاء مع الرئيس العراقي. وكان المستشار الشخصي لغورباتشيف يحمل معه في الواقع خطة ترمي إلى حفظ ماء وجه صدام حسين. ويروي في الملاحظات التي أخذها اثناء محادثاته الاخيرة مع الرئيس العراقي انه ربما كان يمكن تجنب الحرب، يقول بريماكوف:

«وصلت بغداد مساء ١٣ فبراير - شباط كمبعوث من ميخائيل غورباتشيف لمحاولة أخرى ايضاً لتوجيه صدام حسين نحو تسوية سياسية، في الوقت الذي كانت الحرب قد بدأت منذ حين. لم يكن الطريق إلى بغداد سهلاً. كانت المدينة قد قُصفت من قبل طائرات سلاح الجو الاميركي وطائرات بقية بلدان التحالف. يقول العراقيون أن بغداد تعرّضت لقصف شديد جداً اثناء زيارتنا لها. كانت محادثاتي مع صدام غير سهلة، مع ذلك كنت مصيباً عندما لخصتها في برقية موجهة الى موسكو تقول: «هناك علامات تبشر بالخير». بعد محادثاتنا المسائية بتاريخ ١٢ فبراير - شباط ١٩٩١ اخبرني طارق عزيز وزير الخارجية العراقي ان القادة العراقيين يريدون ارساله الى الاتحاد السوفييتي لمتابعة الاتصالات. وعشية وصول طارق عزيز الى موسكو، أي بعد ثلاثة أيام من حديثي السابق معه، نشر مجلس قيادة الثورة (أعلى هيئة في البلاد) بياناً أعلن فيه للمرة الاولى استعداده لسحب قواته من الكويت.

«ويوم الاثنين ١٨ فبراير - شباط كانت انظار العالم كله معلّقة على موسكو؛ ففي ذلك اليوم تحادث الرئيس غورباتشيف مع طارق عزيز لعدة ساعات. وحضر اللقاء سعدون حمادي، نائب رئيس مجلس الوزراء العراقي، والكسندر بسمرتنيخ وزير الخارجية السوفييتي. كما ساهمت شخصياً في الاجتماع.

«قدّم الرئيس غورباتشيف خطة خاصة لايجاد حل سلمي للازمة. لقد اقترح صيغة تنص على انسحاب القوات العراقية من الكويت دون شروط مسبقة ودون متابعة للاعمال العسكرية. لم يلجأ طارق عزيز الى بلاغته المعهودة هذه المرّة. بل أنصت للعرض السوفييتي بهدوء وكأن الأمر يتعلق بمحادثة تجارية. ثم عاد الى بغداد كي يتباحث مع صدام حسين ليعود يوم ٢١ فبراير - شباط جواً إلى موسكو وبجعبته الجواب العراقي على الخطة السوفييتية. وعقب نهاية لقاء آخر بين عزيز وغورباتشيف قدّم الاتحاد السوفييتي اقتراحاً جديداً استرعى انتباه العالم. فبغداد قد قبلت خطة موسكو التي تنص على انسحاب شامل ودون شروط للقوات العراقية من الكويت. ان القادة العراقيين مسؤولون تماماً عن تلك الحرب. مع ذلك اعتقد انه ربما كان يمكن تفاديها».

* * *

بتاريخ ٢١ فبراير - شباط وصل طارق عزيز الى موسكو كي يعطي اجابة صدام حسين على خطة غورباتشيف. كان ذلك بمثابة آخر بارود بالنسبة للبعض وآخر

الآمال بالنسبة للبعض الآخر. ان صدام حسين لم يكن يؤمن بعد بامكانية الوصول إلى حل فأراد أن يُحدث ثغرة جديدة في التحالف.

كان المتحالفون على دراية بمناورات زعيم بغداد منذ عدة اسابيع وبأنه يريد أن يكسب الوقت وينقذ جزءاً من قوته العسكرية. وربما كان قد اعطى، بالتواطؤ مع موسكو، اسماً لعملية صرف الانظار تلك هي: «مكائد الصحراء».

الفصل الخامس
العراق المعقل

«احط نفسك بالحراسة»... هذه الجملة النابليونية الشهيرة غدت مع مرور الاسابيع لازمة حربية ضرورية لانقاذ نظام صدام حسين. ان رجل بغداد القوي يعتمد في الواقع على حرسه الجمهوري: «ابطال التحرير القومي وفرسان الامة العربية». ويشكل هذا الحرس، كما هو الامر تماماً بالنسبة لحزب البعث، احد أعمدة نظام صدام حسين. كانت مهمته في البداية ضمان أمن الرئيس العراقي لكنه تحول الى هيئة عسكرية ضمن اطار الحرب مع ايران. عناصر الحرس الجمهوري هم بالضرورة اعضاء في حزب البعث. وأغلب الضباط مجازين من رئاسة الاركان. امّا مدة الخدمة فتتراوح بين ٥ و٢٥ سنة تبعاً لطبيعة المسؤوليات. وتمتلك هذه القطعة الخاصة تجهيزات عسكرية أفضل وتتمتع بعدة امتيازات من حيث المرتبات والتغذية بالقياس الى القوات العادية. امّا على مستوى القيادات، فإن للحرس الجمهوري استقلالاً ذاتياً كبيراً في الوقت الذي يمكن وضع قواته تحت تصرف هيئات أخرى من الجيش.

قبل أزمة الخليج، كانت اجهزة الاستخبارات العسكرية الغربية تقدّر ذلك الحرس الجمهوري بثماني او تسع فرق. الوحدات الأكثر تمرّساً في القتال هي: وحدة صلاح الدين والوحدة الميكانيكية والوحدة المدرّعة حمورابي ووحدتا نبوخذ نصّر وبغداد. كما أنه تمّ تشكيل فرقة من القوات الخاصة مدرّبة على أعمال الكوماندوس، بعد الحرب مع ايران، اي ما مجموعه أكثر من مئة وثلاثين ألف رجل وأكثر من الف دبابة ومن الف قطعة مدفعية مع قدرة عملياتية بالنسبة للاسلحة الكيميائية.

كان الحرس الجمهوري لفترة طويلة بقيادة الجنرال حسين الرشيد. وهو مثل صدام حسين والعديد من قادة المجتمع العراقي من مواليد قرية تكريت. في شهر نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٩٠ اصبح رئيساً لهيئة أركان الجيش؛ وهو أحد خريجي الكلية

العسكرية العراقية وقد اتبع دورات تعليمية في أكاديمية فرونز في قرغستان. انه والد زوجة ابن صدام حسين الاكبر عدي وأحد الاوفياء له. مع ذلك سحق الايرانيون عدة فرق عراقية عام ١٩٨٣ عندما كان قائداً للجيش الثاني. الأمر الذي استدعى توجيه نوع من النقد المبطّن له لدى قيادات الجيش العراقي بسبب نقص مقومات السلطة والمبادرة في قيادته. بالمقابل أصبح مشهوراً بمواهبه أثناء معارك استرجاع الفاو ومجنون عام ١٩٨٨. مكافأة هذا النجاح كانت في تعيينه رئيساً للحرس الجمهوري بدلاً من الجنرال اياد الراوي الذي اصيب بجروح خطيرة في شهر يوليو - تموز ١٩٨٨. وفي شهر فبراير - شباط ١٩٩١، بعد أن كانت حرب الصحراء قد بدأت، نصح صدام حسين بعدم استخدام الاسلحة الكيميائية ضد المتحالفين. وهو رجل ثقة بالنسبة لصدام حسين وإلى جانبه دائماً.

قبل بداية غزو الكويت باشهر، تم اكتشاف مؤامرتين دبّر احداهما مجموعة من الضباط في المركّب العسكري القريب من الموصل. ،كانت الخطة تقضي باغتيال صدام حسين اثناء عرض عسكري. لقد أدّى اكتشاف هذه المؤامرة الى اعتقال ٢٥٠ شخصاً بين ضابط وصف ضابط وجندي وتمّ سجنهم أو اعدامهم. وفي مطلع شهر يوليو - تموز أي قبل شهر من الاستيلاء على مدينة الكويت، اعتقل الحرس الجمهوري ثلاثين ضابطاً كبيراً من بينهم عميد شعبان قائد سلاح الطيران اثناء الحرب ضد ايران والجنرال ليث محمد مساعد مسؤول الاستخبارات العسكرية. لم يكن هؤلاء الضباط يؤيدون خطط غزو الكويت.

في شهر ابريل - نيسان ١٩٩٠ قام صدام حسين بتنقية قيادة الجيش من الضباط الاكراد ليضع مكانهم ضباطاً من عائلته أو من مدينة تكريت. وهكذا تمّ استبدال الجنرال الكردي صباح مرزا، مسؤول أمن الرئيس، بالجنرال أرشد توفيق زوج السيدة نوال، اخت صدام حسين. لقد أحيل عدد من الضباط الاكراد للتقاعد، واعتقل او أعدم آخرون، بينما استطاع البعض الآخر الهرب إلى تركيا او سوريا بشكل خاص.

ان عدداً من المندوبين السياسيين الحقيقيين في الجيش، اعضاء في حزب البعث، يرأسهم الجنرال منذر عبد الرحمن، مكلفون بمهمة مراقبة الوضع النفسي والفكري للكوادر في كل قطعة. وعليهم أن يُخبروا في كل لحظة أية علامات تنذر بامكانية تمرد ضد صدام حسين، أي القيام بنفس المهمة التي يقوم بها جهاز الأمن العسكري.

انهم يتلقون مقابل عملهم هذا علاوات في المرتبات وعدة امتيازات أخرى. وهناك محاكم خاصة، سُميت بفرق الاعدام، مشكَلّة في كل فيلق عسكري كي تطبق قرارات صدام حسين، مثلما يتم عند تكسير رتبة الضباط البعثيين علناً عند تقصيرهم في اداء مهمتهم. ان صدام حسين لا يعلن أبداً عن زياراته للقطع العسكرية قبل موعدها. ويقوم حرسه المقرّبين أولاً بأول بتفتيش الطريق التي سيسلكها للتأكد من خلوه من أية اسلحة او متفجرات. ثم يتم أخذ مسدسات جميع الضباط الذين سيشد صدام حسين على أيديهم لتعليق أوسمة على صدورهم مثلاً.

ان الجنرال حسن النقيب، الشخصية الثانية سابقاً في الجيش العراقي، يعيش منذ أكثر من عشر سنوات في المنفى متنقلاً بين السويد ولندن وبيروت ودمشق وبعض بلدان الخليج، إذ يطارده عملاء الاستخبارات العراقية لقتله. ويرى البعض فيه خليفة ممكنة لزعيم بغداد على رأس حكومة وحدة وطنية. لقد تنبهّت الاستخبارات العسكرية لهذا الضابط الكبير وذي الشعبية الواسعة في صفوف الجيش فأسرعت الى الوشاية به عند صدام حسين كخائن يعمل لحساب الانكليز. في الواقع كان قد أصبح رجلاً نافذاً داخل الجيش الأمر الذي أثار حسد حاشية صدام حسين العسكرية في بغداد. ولقد أعلن حسن النقيب في مقابلة له مع مجلة «لوبوان» الفرنسية اجراها معه ميشيل فوريان بتاريخ ٢١ يناير - كانون الثاني ١٩٩١ بأنه لا يشارك قيادات الحلفاء تشاؤمها حيال الجيش العراقي، إذ قال ما مفاده: «ان جيشنا في وضع مأساوي، انه على صورة بلدنا البائس الذي حافظت على اتصال دائم معه. ان الألم يعتصر قلبي عندما أفكر في جميع ابناء دورتي الذين سقطوا في الحرب وفي جميع أولئك الذين اعدمهم صدام حسين لأنهم لا يروقون له او لأنه اصبح لهم مكانة مرموقة تزعجه».

وجاء في شهادة اخرى اجراها ميشيل توريال مع العقيد احمد زيدي، قائد احدى الكتائب اثناء الحرب بين العراق وايران. كان الضابط يرتعد قبل كل معركة وقبل كل قرار. لأن مستقبله يرتبط بنتيجة المعارك، فاي اختراق صغير للايرانيين كان معناه تنزيل الرتبة العسكرية او الاعدام. كما اشار إلى عدم كفاءة جنرالات وضباط عشيرة صدام حسين. وقال: لنأخذ مثلاً حالة الجنرال سلطان التكريتي، احد اقارب الرئيس. لقد هزم الايرانيون فرقته المدرعة، الفرقة العاشرة، ودمرّوها بشكل كامل تقريباً. كان يُفترض أن يتم تقديمه للمحاكمة أمام مجلس الحرب. لكن بدلاً من ذلك

أعفي من منصبه وتمّ توقيفه عن العمل لعدة أسابيع ليصبح بعد ذلك نائب رئيس الاركان المكلّف بعمليات الجيش بأكمله. من خلال هذا الموقع قام بإعدام الكثير من ضباطه القدامى بحجة تقاعسهم أمام العدو.

وعندما تمّ تنبيه العقيد زيدي إلى أن ميزة الطيران العراقي تكمن في كونه تدرّب على القتال لمدة ثماني سنوات، أجاب: كنا نسيطر على السماء، مع ذلك أسقطت جميع طائراتنا من قبل الطائرات الايرانية بينما سقطت جميع الطائرات المعادية من قبل وسائل دفاعنا الجوي. ان طيارينا، يُعاملون معاملة خاصة، إذ انهم يتقاضون ٢٥٪ زيادة في مرتباتهم عن الآخرين، وتقدّم لهم الهدايا عند أقل انتصار (اعرف مثلاً أن البعض تلقى حتى عشر سيارات لمشاركتهم في عشر عمليات قصف). لكنهم مهددون ايضاً داخل وحداتهم من قبل عناصر حزب البعث. ان عائلات الطيارين مرغمة على العيش داخل القواعد؛ وفي حالة وقوع أي انحراف خطير يجري اعدام الطيار وزوجته واطفاله. هذا ما وقع مرّات عديدة اثناء الحرب بين العراق وايران.

ان الحاجز الكثيف الذي يحيط بالجيش العراقي يمنع المعرفة الدقيقة لما يجري في بلد اصبحت التغييرات والاغتيالات عملة شائعة بالنسبة للضباط الكبار. لذلك من الصعب على ضباط الاستخبارات الغربية التحقق من المعلومات القائلة بأنه قد تم، منذ بداية غزو الكويت، اعدام مئة ضابط لأنهم ادانوا تلك العملية العسكرية الجديدة. مع ذلك تمّ تداول بعض الاسماء في أوساط الاستخبارات المصرية بشكل خاص مثل الجنرال كمال عبد الستار وجنرال الجو صالح محمد ثائر والعقداء كاظم جواد ومحمد حسين وعلي هاشم.

وبتاريخ ٢٥ يناير - كانون الثاني ١٩٩١، اكدّت وكالة انترفاكس السوفييتية «المستقلة» نقلاً عن مصادر مقرّبة من وزارة الدفاع السوفييتية أن صدام حسين قد اعدم قائدي سلاح الجو وسلاح الدفاع الجوي بعد القصف الاول لطيران الحلفاء. هذه المعلومات تمّ تكذيبها اليوم بالرغم من ان مصدرها سوفييتي وقريب من القيادة العسكرية للجيش الاحمر. إذ أكدّ الاميرال ميك ماك كونل، مسؤول الاستخبارات في هيئة اركان القوات المتحالفة، أنه قد تمّت رؤية هذين الضابطين في بغداد بعد نشر معلومات اعدامهما.

بتاريخ ٨ نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٩٠ اعلنت صحيفة القادسية الناطقة باسم الجيش العراقي أن الجنرال نزار عبد الكريم قد ترك منصبه. وتقول مصادر

الاستخبارات السورية أن هذا الضابط قد أعدم بناءً على أوامر صدام حسين. لكن من المستحيل التأكد من هذه المعلومات حتى هذا اليوم. كل ما نعرفه هو أن هذا الضابط عارض صدام حسين عندما اراد ان ينقل للكويت ٢٥٠٠٠٠ جندي من الاحتياطيين.

هل حاول بعض الطيارين العراقيين التمرد اثناء حرب الخليج؟ هذا ما أكده الجنرال شوارزكوف القائد الأعلى للقوات المتحالفة في الخليج عندما قال: «حاول الطيارون العراقيون قصف مقر صدام حسين قبل هربهم الى ايران». من جهة أخرى، لا تزال الاخبار مجهولة أيضاً حول العقيد نائل التكريتي، ابن وزير الدفاع العراقي الاسبق الذي اعدمه عملاء حزب البعث في عام ١٩٨٠، والذي كان يعتبر أحد ألمع ضباط الجيش العراقي. ان اختفاءه امرٌ مدهش لا سيما وانه ينتمي الى عشيرة صدام حسين المقرّبة.

وحسب رسالة نشرها المعارضون العراقيون في لندن، فإنه تم اعدام سبعة عشر طياراً من سلاح الجو بعد محاولتهم القيام بانقلاب عام ١٩٩٠. ان الأمن العسكري ابعد خمسة جنرالات قبل حرب الخليج وهم:سعد ريسان حسين زاهي وحسين هدام ورضا هاشم وكنعان خورشيد.

ان هذه الاعدامات والعقوبات والاعتقالات والتغييرات المستمرة جعلت من الصعب على قيادات الاركان الغربية تقدير حقيقة الوضع. كان الحلفاء يريدون معرفة التنظيم الحقيقي للقوات البرية ومهامها وقادتها.

هناك دليل اضافي آخر على حذر صدام حسين من جنرالاته ويتمثل في تجميع عائلات الضباط الكبار في ملاجىء رئاسة الجمهورية، من أجل حمايتهم رسمياً لكن في الواقع من أجل ممارسة الضغط على الجنرالات الذين قد تسوّل لهم نفسهم عدم تطبيق الاوامر.

بتاريخ ١٧ يناير - كانون الثاني ١٩٩٠ كانت القوات البرية العراقية، التي تمثل العصب الرئيسي لجيش صدام حسين، مؤلفة من سبعة فيالق وأربع وأربعين فرقة كالتالي:

الفيلق الاول ويتألف من ست فرق (٢٧، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٤٤ مشاة والفرقة ٤ الميكانيكية).

الفيلق الثاني ويتألف من ست فرق (الفرق ١٦، ٢١، ٢٢، ٢٨، مشاة والفرقة ١٧

المدرّعة).

الفيلق الثالث ويتألف من عشر فرق (الفرق ٢، ٨، ١١، ١٩، ٣٠، ٤١، ٤٢ مشاة والفرقة الخامسة الميكانيكية والفرقتين المدرعتين ٣، ٦).

الفيلق الرابع ويتألف من خمس فرق (الفرق ١٨، ٢٠، ٢٩ مشاة والفرقة ١ الميكانيكية والفرقة ١٠ المدرّعة). يرابط هذا الفيلق كقوة احتياط في المنطقة الشرقية من ميزان بقيادة الجنرال محمد عبد الخضر.

الفيلق الخامس ويتألف من ثماني فرق (الفرق ٧، ٢٣، ٢٤، ٣٣، ٣٨، ٤٠، ٤٥، ٤٦ مشاة). ويرابط في المنطقة الشمالية.

الفيلق السادس ويتألف من خمس فرق (الفرق ٢٥، ٣١، ٣٢، ٣٥ مشاة والفرقة ١٢ المدرّعة). يرابط في القاطع الشرقي لدجلة بقيادة الجنرال يلجين عمر عادل.

الفيلق السابع ويتألف من اربع فرق (الفرق ١٤، ١٥، ٢٦ مشاة والفرقة ٣٧ للدفاع عن الشواطىء)، بقيادة الجنرال سعدي الجبوري.

الفيلق الخاص الاول (قوة «الله اكبر») وهو عبارة عن وحدة مشاة مشكلّة من فرق منفصلة عن بقية الفيالق.

الحرس الجمهوري (او الحرس الرئاسي) ويتألف من فيلق لعناصر النخبة الموزعين بين فرقتين مدرّعتين وثلاث فرق مشاة وفرقة قوات خاصة هي الفرقة ٩٩.

ما هو الوضع الحقيقي الذي آلت اليه حالة الفرق العراقية بعد ثلاثة أسابيع من عمليات القصف المكثّفة؟. من أجل معرفة ذلك وبأقل هامش من الخطأ قام الجنرال الاميركي توماس كيلي بدراسة نتائج التكتيك العراقي.

لقد تعلّم العراق تقنيات التمويه على يد مستشارين عسكريين ومهندسين سوفييت كانوا قد أقاموا في العراق. وقد تلقى هؤلاء الرجال منذ غزو الكويت عروضاً مالية مغرية من أجل عدم العودة إلى الاتحاد السوفييتي والبقاء في العراق لخدمة جيش بغداد.

كان العراق يمتلك ايضاً دبابات وصواريخ مزيفة ترسل اصداءً رادارية واشارات حرارية بغية خداع الاقمار الصناعية المكلّفة بالكشف عن انطلاق الصواريخ العراقية. كانت تلك الاهداف الدفاعية العراقية الخادعة التي زرعها العراق في كل مكان تقريباً مزوّدة بجاميع بسيطة مولّدة للكهرباء تعمل قبل كل غارة لصواريخ سكود مما يؤدي الى تشويش معلومات طائرات الاواكس.

بل إن العراقيين قاموا برسم أشكال خادعة على بعض مدارج مطاراتهم ومواقعهم الاستراتيجية تبيّن أن الخسائر فادحة فيها بغية تجنب قيام طيران الحلفاء بغارات جديدة.

في الواقع، منذ تاريخ ٣ فبراير - شباط كانت القواعد الجوية الموجودة في اربيل وبغداد والشويبة وكركوك والناصرية قد دمرت عملياً. واثناء عملية تدمير هذه المواقع كانت أغلبية رادارات المراقبة التابعة لسلاح الجو العراقي قد أبيدت.

ان أغلبية القنابل التي تمّ استخدامها لتخريب الطرق ومدارج الطائرات العراقية كانت بأغلبيتها من صنع فرنسي، وقد عمدت باسم دوراندال. وكانت قد تمّت برمجتها كي تنفجر في وقت لاحق كي تزيد في تخريب المنشآت.

امّا طائرات التورنادو البريطانية فإنها القت فوق مدارج الطيران العراقي قنابل عنقودية تُحدث حفراً غير قابلة للاصلاح عملياً إذ انها مزروعة بالالغام. مع ذلك ابدى العراقيون قدرات كبيرة في الاصلاح السريع، إذ كان يتم اصلاح بعض المدرجات المخرّبة في الليل، الأمر الذي يفسر تكرار عمليات قصف نفس الاهداف من قبل الطيران المتحالف.

وكان العراق قد اشترى أكثر من ألفي جرافة كبيرة (بلدوزر) - منها ألف من شركة يابانية - وعدداً من الآليات الهندسية من الاتحاد السوفييتي والبرازيل كي يكون قادراً على حفر ملاجىء تحت الارض لوضع مدارج معدنية للطيران فيها. وقد ساعدته هذه الآلات في اعادة بناء بعض المدرّجات المخرّبة جزئياً بشكل سريع. وحصل العراق قبل قليل من بداية الحرب على منتوجات مطاطية قادرة على ملء الحفر الحاصلة في المدارج بسبب القصف والتي تجف سريعاً جداً بعد فرشها. كما لجأ العراقيون إلى استخدام شاحنات هي بمثابة ورش متحركة تنتقل سريعاً الى المكان المطلوب ترميمه.

بتاريخ ٢٤ فبراير - شباط واجهت القوات العراقية المعركة البرية الكبرى. لقد انخرط حوالي ٢٥٠٠٠٠ رجل موزّعين في ثمان فرقٍ أميركية وبريطانية وفرنسية في تلك المناورة السرية للالتفاف عبر صحارى جنوب العراق. وفاجأت دبابات الفرقة الاميركية المدرّعة الثالثة الوحدات الخاصة لصدام حسين من الخلف. فعندما برزت طلائع القوات الاميركية وجهت مدافع دبابات ت - ٦٢ السوفييتية التابعة للحرس الجمهوري نيرانها في الاتجاه المعاكس. وقد روى المقدّم ريشار تورنر الذي دمّرت

وحدته ٤٠ مدرعة عراقية لأحد صحفيي وكالة رويتر قوله: «بمقدار ما كنا نتجاوز المواقع العراقية، كنا نشاهد جنوداً واقفين دون أن يحركوا ساكناً. لم يكونوا يدركون ما يجري امامهم». كما تدل شهادة احد رماة مدفعية دبابة أميركية من نوع ابرامز على أن حالة من التشوش واختلاط الامور كانت تسيطر على القوات العراقية.

بدأت عملية تحويط الجيش العراقي في فجر يوم الاحد، وكانت أهم عملية من هذا النوع منذ الحرب العالمية الثانية. لقد اجتازت عشرات الآلاف من العربات الحدود السعودية وتوغلت في العراق. كان طول الارتال ٨٥ كيلومتراً. تقدمت العربات مطفأة الانوار مع الحرص على اتباع نفس الآثار تجنباً لحقول الالغام. كما كان جميع الجنود يرتدون البستهم الواقية من الاسلحة الكيميائية.

بعد ظهر ٢٦ فبراير - شباط دخلت طائرات «اباش» العمودية والطائرات «قاتلة المدرعات» المعركة. لكن القيادة اضطرت الى توقيف عملية الغطاء الجوي تلك إذ أن الفرقة المدرّعة الثالثة كانت موجودة وسط الوحدات العراقية الهاربة.

ان سائقي الدبابات الاميركيين اعتراهم القلق مرّات عديدة اثناء تقدمهم بسبب اشارات مجهولة على شاشات المراقبة امامهم. لم تكن تلك الاشارات، في الواقع، سوى بعض الجمال التائهة وسط الدبابات!

بعد انتهاء المعارك، وجد الجنود الاميركيون في ملاجيء الحرس الجمهوري خرائط للمعركة تدل على أن القيادة العراقية كانت تتوقع هجوماً من الجنوب. كانت كماشة الجنرال شوارزكوف قد اطبقت نهائياً على الحرس الجمهوري. كما كان الانحدار العراقي كبيراً إلى درجة أن الفرقة الاميركية ١١١ المخصصة للهجوم المحمول جواً والتابعة للفيلق ١٨ وجدت نفسها بطائراتها العمودية للشحن الثقيل من طراز شينوك والبالغ عددها ثلاثمائة طائرة على بعد ٢٣٨ كيلومتر من بغداد. كان طريق العاصمة العراقية مفتوحاً أمامها في الوقت الذي لم تكن قد ادركت فيه القيادة في بغداد أن قوات الحلفاء قد توغلت بعيداً إلى هذا الحد في الاراضي العراقية.

لقد انتصرت قوات التحالف المعادي للعراق، بفضل تفوقها التكنولوجي، لكن ايضاً وبشكل خاص لأن الجيش العراقي لم يكن يعتقد بعد بامكانية انتصاره. كان ذلك الجيش يعاني من العطش والجوع ونقص الاوامر والذخائر. ان الشهادات العديدة التي تقدم بها آلاف الاسرى العراقيين لضباط التحالف كانت مخيفة. ووصل حد حذر

الضبـاط العراقيين من جنودهم درجة انهم صادروا في العديد من القطعات ذخائر الجنود ولم يردوها اليهم الا من أجل القتال.

روى الجنرال روكجفر قوله: «كان نصف الاسرى يحملون معهم المنشورات التي كان الاميركيون قد القوها عليهم وشرحوا فيها كيف تتم عملية الاستسلام» واضاف: «ان المقاومة الضعيفة التي وجدناها أمامنا لا يمكن تفسيرها إلا بالحالة المعنوية الأكثر تردياً لدى المقاتلين».

كان الضباط البعثيون يعاقبون الجنود الذين احتفظوا بأجهزة اذاعة صغيرة (ترانزستور). فقد اصدرت بغداد اوامرها بمصادرة جميع اجهزة الراديو الفردية كي لا يعرف الجنود حقيقة ما يجري حولهم. كما تلقت الوحدات الخاصة للأمن العسكري تعليمات تقضي بالتصدي للهاربين والقبض عليهم واعدامهم فوراً.

ان احد اسرار النجاح الساحق لعاصفة الصحراء واحد اسرار المقاومة الضعيفة التي ابدتها القوات العراقية يكمن في واقع أن حوالي نصف الضباط العراقيين هربوا من أرض المعركة وتركوا رجالهم بدون أية أوامر. هذا ما أكده آلاف الأسرى من الجنود العراقيين عندما استجوبهم ضباط استخبارات التحالف. وعندما القى الاميركيون أول دفعة من المنشورات التي تدعو الجنود العراقيين للاستسلام تلقى ضباط الامن العسكري تعليمات من بغداد تنص على منع ارتداء اي لباسٍ داخلي ابيض اللون كي لا يستخدمه الجنود العراقيون الراغبون في الاستسلام كراية تعبر عن رغبتهم تلك. نقص المعنويات هذا يفسر هروب طواقم الطائرات العمودية العراقية التي لم تظهر اثناء المعارك تحديداً بسبب عودة افراد تلك الطواقم الى منازلهم قبل عدة اسابيع. بل إن قوات الحلفاء وجدت طائرات عمودية مخرّبة عن عمد من قبل الجنود العراقيين.

في الوقت الذي كان يخشى فيه العالم أنه حالما تدخل القوات البرية للحلفاء في المعركة فإن صدام حسين سوف ينفذ تهديده بالاستخدام الكبير للاسلحة الكيمائية كما سبق وفعل ضد القوات الايرانية وضد المدنيين الاكراد؛ لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ولم تستخدم أية قوة عراقية ذلك السلاح، بالرغم من أن الحلفاء وجدوا في عين المكان ألغاماً مصنوعة من غاز الخردل وذخائر كيميائية متنوعة أخرى. كما كانت قوات الحرس الجمهوري مزوّدة بقاذفات صواريخ متنوعة وبصواريخ سوفييتية من طراز فروغ - ٧ ذات القدرة الكيميائية.

في بداية شهر يناير - كانون الثاني كان لدى مصالح استخبارات التحالف المعادي

للعراق قناعة ثابتة أن صدام حسين قد اعطى لقواته الاوامر باستخدام الاسلحة الكيميائية. فقد التقطت محطات التصنت التابعة للحلفاء والاقمار الصناعية الغربية للالتقاط الالكتروني رسائل موجهة من القيادات العراقية الى القوات تتضمن استخدام الاسلحة الكيميائية منذ بداية هجوم الحلفاء البري على الكويت. فهل كان هذا مجرد عملية للتضليل؟

كانت الاجهزة الغربية، تعتمد على معطيات الصور الحديثة التي التقطتها أقمار التجسس الصناعية. لقد كشفت تلك الصور وجود عشرين مركزاً لابطال المفعول النووي والبيولوجي والكيميائي في الكويت والبصرة. وجود هؤلاء الخبراء العراقيين في ميادين الاسلحة الكيميائية تمّ كشفه للمرة الاولى من قبل الاقمار الصناعية في نهاية شهر سبتمبر - أيلول. وتدل معلومات خبراء مركز استثمار الاستخبارات العسكرية في باريس على أن العراقيين أقاموا أمام المراكز المتخصصة بابطال المفعول النووي والبيولوجي والكيميائي على طول الحدود مع الكويت، وفي منطقة تقع وراء النسق الثاني لخطوطهم الدفاعية مباشرة. وكانت المصالح العراقية المختصة في هذا الميدان قادرة على معالجة آلاف المدرعات وقطع المدفعية والعربات العسكرية في مدى عدة أيام فقط. أما تكوين هذه الوحدات المختصة فقد قام به الجيش السوفييتي الأحمر الذي درّب أفرادها على الوقاية من العواقب المحتمل وقوعها في حال تغيير وجهة الرياح وحملها غازات ضارة أو قاتلة.

وعلى الرغم من أن الطيران المتحالف قد دمّر ٨٠٪ من استطاعة المصنعين الرئيسيين لانتاج الاسلحة الكيميائية في سامراء وسلمان باك، فإن العراق كان قد نقل قبل عدة أسابيع من بداية الحرب عدة مئات من اطنان المنتوجات السامة، وخبأها في ملاجىء مصفّحة تحت الارض في العراق وفي الكويت. وترى الاجهزة المتحالفة أن استخدام هذه الاسلحة الكيميائية كان سيتم من قبل الفيلق الثالث المرابط في منطقة البصرة والفرقة ٩٩ التابعة للقوات الخاصة للحرس الجمهوري. وعلى سبيل المثال، يرى الخبراء الفرنسيون في وزارة الدفاع أن «الطائرات العراقية كانت تستطيع في حال توفر ١٠٠ طن من مادة التابون، القيام بـ ١٥٠ الى ٢٠٠ مهمة فوق القوات المتحالفة وذلك من خلال عمليات تقليدية أو عمليات انتحارية».

في الواقع، كان العراق قد كيّف (بمساعدة خبراء من البلدان الشرقية) استخدام الاسلحة التقليدية لطائراته الميغ والميراج ف - ١ والسوخوي. إذ أن طائرات ميراج -

ف ١ كانت قد ألقت ذخائرها الكيميائية المعبأة في حاويات على الايرانيين والاكراد منذ سنوات. كما كيّف العراق ايضاً طائرات عمودية من طراز سوبر - فريلون كي تصبح قادرة على القيام بتلك الحرب الكيميائية وخبأ عدداً منها في الكويت. وكان المتحالفون ينتظرون كذلك القيام بعمليات نشر المواد السامة بواسطة طائرات عمودية باعتها الشركة الصناعية الالمانية ام. بي. بي. .M.B.B (ضمن اطار اتفاق زراعي). اما بالنسبة للعمليات الانتحارية فربماكان العراق سيستخدم طيارات تدريب خفيفة سويسرية الصنع من طراز بيلاتوس التي يمتلك العراق خمسين طائرة منها. لكن تمّ تنبيه قيادة اركان الجيوش على أن هذه الطائرات العمودية والطائرات الانتحارية مضطرة للتحليق على ارتفاع منخفض فوق القوات المتحالفة مما يعرضها لنيران الدفاع الجوي أرض - جو. يبدو اذاً ان التكتيك العراقي كان سيعطي الاولوية للهجوم على وحدات معزولة.

ويمتلك العراقيون ايضاً صواريخ ارض - ارض من طراز فروغ التي يبلغ مدى نيرانها ٧٠ كيلومتر. ان هذه الصواريخ السوڤييتية، المعروفة بدرجة أقل من صواريخ سكود - ب، كانت مخصصة بدرجة رئيسية لتسليح الحرس الجمهوري الذي يمتلك ٤٠ منصة اطلاق. ولعلّ العراقيين قد نشروا ايضاً شاحنات اطلاق قذائف متنوعة على طول الحدود العراقية - السعودية، على حد قول العقيد احمد الربيعان معاون قائد سلاح البر السعودي.

ان صاروخ فروغ - ٧، وبالرغم من عدم دقة رميه نسبياً، ربما كان يستطيع الحاق خسائر كبيرة بين صفوف القوات البرية المحشودة بعد ان قام المهندسون العراقيون بتحسينه. (اسمه الرمزي سجّيل). وقد كانت صواريخ فروغ - ٧ هذه احد الاهداف المميّزة للطائرات الاميركية وطائرات الجاكوار التي كانت تدك مواقع الحرس الجمهوري.

هناك سؤال مجهول: هل يمتلك العراق صواريخ اس. اس - ١٢ السوڤييتية الصنع؟ تقول الاجهزة البريطانيةأن العراق تمكن من شراء أربع أو خمس منصات اطلاق صواريخ اس. اس. - ١٢. فهل جهّزها العراق برؤوس كيميائية؟ هناك احتمال ضعيف بأن يكون العراقيون قد فعلوا ذلك. بكل الاحوال سأل الحلفاء السوڤييت عن حقيقة هذا الامر.

امّا على صعيد المدفعية، فيقول العسكريون الفرنسيون أن العراق يمتلك مدفعية

مزوّدة بقنابل كيميائية ثنائية التركيب (يدخل في تركيبها مكونات عضوية فوسفورية غير مؤذية، اذا كانت منفصلة لكنها تصبح كذلك بعد اختلاطها اثناء مسار الذخائر المقذوفة). هذه الذخائر الكيميائية قابلة للاطلاق بواسطة مدافع ثقيلة (خاصة مدافع سوفييتية من عيار ١٦٠ م وطراز م - ١٩٤٣). مع ذلك اشارت قيادات الحلفاء الى صعوبة استخدام القنابل التقليدية في ذلك. وابدى جهاز مكافحة التجسس الفرنسي شكوكه الكبيرة حول امكانية استخدام هذه الاسلحة.

ومن أجل الوصول الى «انشطار» عملياتي وقاتل كان يتوجب اطلاق القنابل الكيميائية العراقية على مسافة ١٠٠ متر فقط على أهداف الحلفاء. بهذا الصدد طرحت اجهزة الاستخبارات الغربية على نفسها السؤال التالي: هل يمتلك العراقيون اجهزة متقدمة لقياس الارتفاع تسمح لهم تنفيذ مثل هذا الخيار؟ لقد حاولت الاجهزة العراقية الحصول على هذه الاجهزة، منذ عدة اشهر، من الصين والشيلي (لدى شركة كاردوين).

وتتساءل الاجهزة السرية ايضاً اذا كانت مدفعية صدام حسين تمتلك قنابل تؤمن نشر الغاز بقدرة عسكرية ذات دلالة حقيقية على الصعيد القتالي.

ان القنابل التي باعتها فرنسا (شركة لوشير) واليونان (شركة HAIEBA) وايطاليا (شركة SNIA) وبلجيكا (شركة PRB) لا تمتلك تلك القدرة. لكن ماذا يمكن القول حول تلك القنابل التي باعتها شركة ميريدن شيميك الالمانية او حول القنابل السوفييتية؟

ان العراق يمتلك ايضاً مدفع ٦٥ الرهيب (من صناعة جنوب افريقيا)؛ الذي يستطيع اطلاق قنابل من عيار ١٥٥ ميلمتر وعلى مدى يزيد عن ٤٠ كيلومتر.

هناك أمر آخر مجهول. فمن أجل الوصول الى نتائج عسكرية «حاسمة»، كان يتوجب أن تنشر التفجيرات الغاز في الجو دون الوصول إلى درجات حرارة عالية. إذ ان الحرارة العالية تؤدي، حسب آراء الخبراء، الى تحول تقليدي في الغازات قبل عودتها إلى الارض. ومن أجل التغلب على هذه العقبة يتوجب اللجوء إلى خبراء جيدين في ميدان التفجيرات. لذلك استقدم العراق عام ١٩٨٦ مهندسين من المانيا الديمقراطية ضمن اطار عقد للبحث وقعه المجلس الاعلى للبحث العلمي في بغداد الذي يرأسه الدكتور محمد نجيب خليل.

لماذا لم يستخدم العراق اسلحته الكيميائية الرهيبة؟

هناك عدة تفسيرات تقول بها قيادات الاركان اليوم. أولها القول بأن الاحوال الجوية منعت أي هجوم كيميائي من قبل صدام حسين. ففي الواقع كان يمكن للرياح العكسية التي هبّت منذ بداية الهجوم أن ترد على وحداته أية مادة كيمياوية منشورة. من جهة اخرى، كانت عمليات قصف التحالف قد دمرت قسماً كبيراً من مستودعات الذخائر الكيماوية في المواقع العراقية المتقدمة. والحرب الكيماوية الهجومية تتطلب كميات كبيرة من المنتوجات. فالعناصر التي تهاجم الجهاز العصبي، مثل التابون والساران الشديدي السمّية، يتطاير مفعولها بأقل من ساعة الأمر الذي يستدعي بالضرورة عمليات قصف متواترة للاهداف المعنية. كما انه من الضروري ايضاً وجود كميات كبيرة من تلك العناصر للوصول الى درجات من المفعول القاتل على مساحة واسعة.

من جهة ثالثة، لا شك ان سرعة الهجوم المتحالف وحركيته كان لهما دور كبير في عدم استخدام تلك الاسلحة الكيماوية.

غير ان الجنرالات العراقيين كانوا قد تلقوا الاوامر باستخدامها. واليوم تقبل القيادات الغربية الرأي القائل بانهم لم يقبلوا تطبيق تلك الاوامر. الامر الذي يشرحه الجنرال موريس شميت رئيس هيئة اركان الجيوش الفرنسية بالقول: «لقد اصدر صدام حسين الامر باستخدامها. لكن جنرالاته رفضوا التنفيذ لعلمهم انهم بذلك يتجاوزون الالتزامات الدولية التي تعهدت بلادهم باحترامها ولانهم كانوا بذلك سيجرون مخاطر على قواتهم نظراً لأن ردود الفعل ما كان لها أن تتأخر».

في فرنسا، ارسل مركز استثمار الاستخبارات العسكرية، المرتبط مباشرة مع رئاسة اركان الجيوش، طائرة التجسس ساريغ (المزوّدة بنظام محمول جواً لجمع المعلومات حول الحرب الالكترونية) الى حدود الصحراء السعودية، سراً ولعدة مرّات. ان هذه الطائرة ذات المحركات الاربع من طراز دي سي - ٨ اخذت الطرق التجارية المعهودة لدفع الآخرين للاعتقاد بانها طائرة خطوط عادية وقامت باعمال تصنّت على اجهزة الارسال العراقية كما حددت مواقع عدة رادارات. هذه المعطيات تمّ استخدامها من أجل تحضير «ملفات الاهداف» على الاراضي العراقية، خاصة اهداف الحرس الجمهوري والمخابىء المليئة بالذخائر.

لكن هل تمّ تدمير جميع مخزونات الذخائر الكيماوية؟

ان صدام حسين خبّأ عن قصد جيشه في ملاجىء مموّهة في مختلف المواقع

الاستراتيجية في العراق. وكانت مؤسسات غربية قد قامت بالاعمال المطلوبة لذلك وتقاضت اموالاً هائلة مقابل ذلك.

هكذا وفي عام ١٩٨٢ وقعّت شركة «سيكس كونستروكت» عقداً قيمته ٣٨٠ مليون دولار (١٢ مليار فرنك بلجيكي حسب معدلات الصرف في تلك الفترة) من اجل بناء ثماني قواعد محميّة جداً؛ علي ان يتم البناء على دفعتين. الاسم الرمزي للعملية هو: المشروع ٥٠٥. اربعٌ من هذه القواعد تقع شرق بغداد على طول الحدود مع ايران. وهناك قاعدة خامسة في تل عقار في شمال غرب البلاد على الحدود السورية. القواعد الثلاث الاخرى تقع في الجنوب في مواجهة الحدود السعودية.

كل واحدة من هذه القواعد تحتوي على اثني عشر ملجأً يضم كل منها طائرة او طائرتين. وقد عهدت شركة سيكس كونستركت الى شركة نورد فرانس (وهي الآن فرع من الشركة البلجيكية بيليج) والى الشركة البلجيكية CFE بالقيام ببناء بعض هذه القواعد لحسابها. كما ان عشرات الشركات الغربية قامت باعمال لحساب الشركات الاساسية في مجالات الدراسة والنقل والتعدين والكهرباء وغيرها.

بشكل اجمالي كان هناك ١٥٠ تقني اوروبي و٢٠٠٠ عامل آسيوي يعملون في تلك الورش في الفترة الواقعة بين ١٩٨٣ و١٩٨٦.

كانت تلك المخابىء الجوفية كبيرة الى درجة تسمح بايواء مستودعات الصواريخ والكيروسين. كما تمّت «تقويتها بالفولاذ الصلب» من أجل مقاومة اي هجوم نووي او جرثومي او كيميائي. وكانت الطائرات الرابضة في تك الملاجىء تستطيع الشروع بالاقلاع من جوف الارض مشدودة الكوابح وجهاز الاحتراق محرّر كي تخرج فجأة من الملجأ الى مدارج الانطلاق، وهذه هي نقطة ضعف العملية كلها. لكن هذا الموقع الدفاعي المحصّن جداً له ايضاً مثالبه وسوف يكون احد اسباب هزيمة صدام حسين. إذ كيف يمكن في الواقع المقاومة اياماً طويلة في مواجهة طيران الحلفاء الذي يسيطر تماماً على مسرح العمليات الجوي؟

بتاريخ ٢٨ فبراير - شباط وبعد مائة ساعة من بداية المعارك الارضية قبل صدام حسين دون شروط قرارات الامم المتحدة العشر ووقف اطلاق النار. عندها صرّح الرئيس بوش: «لقد تحررت الكويت وانهزم الجيش العراقي وحققنا اهدافنا. ان هذه الحرب هي الآن وراءنا. ان اميركا والعالم نفذوا ما كانوا قد قالوه».

كان صدام حسين يحتاج الى خمس سنوات اخرى كي يحقق طموحه الحقيقي

المتمثل في اكتساب عضوية نادي البلدان القليلة جداً المالكة للاسلحة النووية والجرثومية والكيميائية والفضائية والبالستيكية. انه سباق للحصول على الاسلحة الأكثر فتكاً في منطقة الشرق الاوسط التي تعيش حالة من عدم الاستقرار بسبب النزاعات الاقليمية التي لا تتوقف. لكن صدام حسين لم يمتلك الوقت الكافي ليلعب اوراقه السرية. ولو تأخرت حرب الخليج عدة أشهر او عدة سنوات فإنها كانت ستأخذ دون أدنى شك منعطفاً مأساوياً يهدد السلام في العالم.

الفصل السادس

في دهاليز الجهاز السري لصدام

قام صدام حسين باعطاء امتيازات لأهله ولبعض معاونيه المقرّبين الذين ينتمون مثله الى مدينة تكريت والى العشيرة المسمّاة بـ« التكارتة » . كان يرمي من خلال ذلك الى تدعيم بناء المركب العسكري - الصناعي العراقي الكبير.

الشخصية الاساسية في هذه المنظومة هو حسين كامل حسن، صهر الرئيس العراقي، الذي عمل حتى شهر يوليو - تموز ١٩٨٨ مديراً لهيئة التصنيع الحربي ثم اصبح وزيراً للصناعة والتسليح. وبهذه الصفة كان يسيطر ايضاً على هيئة التصنيع الحربي وهي مؤسسة تمّ بناؤها على غرار الهيئات السوفييتية المختصة بخطط التصنيع. وكانت تتطلع الى « شفط » التكنولوجيا الغربية. لقد انكب خبراء من الاستخبارات العسكرية السوفييتية ومن الاستخبارات السوفييتية العامة (كا . جي . بي .) على العمل في هذا المشروع الذي يشرف على خمس عشرة مؤسسة منذ بداياته. لكن ما هي مهمات هيئة التصنيع الحربي؟. انها تتمثل في تأمين الاحتياجات من الاعتدة العسكرية وتطوير صناعة التسليح المحلية واستخدام الفائض من امكانياتها الصناعية في تحقيق البرامج المدنية.

ان براعة هيئة التصنيع الحربي تكمن في تحويل كلٍ من اهدافها الى نوع من الالعاب المعقّدة (يتمثل في البحث عن كل جزء من اجزاء لوحةٍ ما لوحده، ثم يتم تجميع الاجزاء للوصول الى لوحة كاملة). إذ أن الهيئة جدّت بالبحث عمّا تريد قطعة قطعة لدى عدد كبير من الشركات الاوروبية والعالمية. وكانت وحدها تعرف الغاية النهائية من كل واحدة من هذه العمليات. اتقان العمل يرتبط حصراً بها وهو في الوقت نفسه سر من اسرار الدولة. امّا الصناعيون المقصودون فينبغي ان لا يعرفوا الهدف النهائي المنشود من طلب بناء عناصر ملجأ تحت الارض او تقديم آلات او قطع ميكانيكية او مواد كيميائية او غير ذلك. وبالنسبة لاولئك الذين يُبدون فضولاً

أكبر مما يجب او يكون اكثر حدة في الذكاء او اكثر ترددا فإن هناك وسائل اقناع اكثر جاذبية لتهدئة خواطرهم.

ينوب عن حسين كامل رجا حسن علي، رجل المهمات السرية في الخارج. وتساعده حفنة من الرجال الاوفياء. أولاً هناك الدكتور سبعاوي ابراهيم التكريتي اخ صدام حسين الذي خلف فاضل برّاك الرئيس السابق للاجهزة السرية المغضوب عليه منذ عام ١٩٨٩ بسبب رشوة لم يتم تسليمها بعد قبضها لحزب البعث. كذلك هناك أخ آخر لصدام حسين هو برزان ابراهيم التكريتي الذي يترأس البعثة العراقية لدى الامم المتحدة في جنيف. وكان هذا الدبلوماسي النشيط جداً رئيساً للاجهزة السرية سابقاً. امّا الشخصية الاساسية الخامسة في هيئة التصنيع الحربي فهي الجنرال عمّار حمودي السعدي مسؤول العقود الدقيقة الصعبة التي تشكل خرقاً لمعاهدة الرقابة على أنظمة التطور التكنولوجي للصواريخ، اي المعاهدة التي تمّ توقيعها بتاريخ ١٦ ابريل - نيسان ١٩٨٧ من قبل سبعة بلدان غربية من بينها فرنسا وتهدف الى عدم تكاثر الصواريخ البالستيكية. ولكي يقوم الجنرال عمر حمودي السعدي بمهمته على أفضل وجه ممكن، عمل على تكثيف الاتصالات خلال السنوات الاخيرة مع الصينيين والبرازيليين والارجنتينيين والمصريين. الاتصالات كانت في كل الاتجاهات، كما تعمل الصواريخ.

لكن من المستحيل بلوغ مثل هذه الاهداف دون وجود مراسلين فعّالين. لذلك اعتمدت هيئة التصنيع الحربي على بعض البدائل المتينة في عدة عواصم غربية؛ من امثال علي عبد الغني سفير العراق السابق في بون الذي أشرف مع نظيره في برلين الشرقية على اجتذاب، بل افساد، الصناعيين الالمانيين. وكان من نتيجة ذلك ان قبل هؤلاء بيع منتوجات كيماوية للعراق تؤهله لصنع الغازات الحربية. انّ شبكات تجارية متنوعة خدمت كغطاء لعملية خرق الحظر تلك. وقد امضت الاجهزة الغربية عدة أسابيع كي تستطيع كشف تلك الشبكة الشبيهة بنسيج العنكبوت. نفس الطرق تمّ استخدامها في لندن من قبل الدكتور صفا الباجقي. فقد استطاع هذا العراقي الذي يترأس مجموعة «التكنولوجيا والتنمية» الحصول على قنابل وتجهيزات مخصصة للتكنولوجيا النووية في بلاده.

في باريس عملت البعثة التجارية التي يقع مقرّها في شارع الجنرال ابيرت والمكتب العسكري في شارع فوش لحساب هيئة التصنيع الحربي، برئاسة العقيد عبد

الخالص حسن والعقيد حميد حسين. ولقد وضع هذان العسكريان قائمة باسماء الشركات الفرنسية التي يمكن ان تخرق الحظر. لكن مصلحة مراقبة التراب الوطني الفرنسية ومصلحة الجمارك سهرتا منذ شهر اغسطس - آب على مراقبة ما يجري. ان حسين كامل يمتلك ثروات كبيرة في سويسره واللوكسمبورغ من أجل دفع رشاوى واقناع المترددين في جميع البلدان لخرق حالة الحظر. كما اعتمد إلى حد كبير على فرع البنك الوطني (لاڤارو) في اطلنطا والذي يديره كريس درغل، وهو فرنسي من اصل لبناني. وقد اعتقلته شرطة المكتب الفدرالي الاميركي بتاريخ ٤ اغسطس - آب الاخير لخرقه التشريع المصرفي الاميركي. إذ كان قد منح العراق قرضاً قيمته ٢,٧ مليار دولار بغير حق قانوني ثم غطّى المبلغ بالاعتماد على أربعين بنكاً كبيراً في أوروبا واليابان واميركا. ان تلك الاموال التي تمّ تخصيصها لثلاث وعشرين شركة غربية أستخدمت في شراء اسلحة واعتدة ضرورية لصناعة التسليح العراقية.

وفي الوقت الذي ينبغي أن تؤدي فيه تلك القضية إلى المحاكمة يمكن لرسائل الاعتماد التي فتحها البنك الوطني لصالح العراق، والبالغ عدها ٢٦٥٠ رسالة اعتماد، أن تؤدي إلى اتساع رقعة فضيحة مالية كبيرة. كما تستمر ايضاً بعض الاسرار الغامضة مثل انتحار الملحق العسكري الايطالي في العراق. وقد تؤدي التحقيقات القضائية الاميركية إلى توجيه الاتهام قريباً لحسين كامل وصديق طه المدير العام للبنك المركزي العراقي. الذي تمّ في الفترة الاخيرة تسجيل وفاته في لندن، لكن لعلّه قد لجأ الى بغداد في واقع الأمر. كذلك يتوقع أن يوجه القضاء الاميركي اتهاماته ايضاً الى عدة شخصيات عراقية أخرى من أمثال رجا حسن علي، المدير العام لوزارة الصناعة الحربية واحمد الدليمي، سكرتير الدولة المساعد للصناعة الحربية.

ان البنك الوطني (لاڤورو)، الذي يشكل حجراً أساسياً في التشكيلة المالية التي صاغتها الهيئة، ساهم ايضاً في تمويل البحوث الارجنتينية - العراقية حول الصاروخ كوندور - ٢ العابر للقارات وعلى المدفع الضخم الذي تصورت هيئة البحوث الفضائية في بروكسل امكانية تحققه، واغتيل جيرالد بول، المهندس من أصل أميركي الذي صممه، بتاريخ ٢٢ مارس - آذار ١٩٩٠ في بلجيكا. ولم يعد جهاز الاستخبارات الاسرائيلية «الموساد» ينكر تقريباً أنه هو الذي نفّذ عملية اغتيال ذلك المهندس.

بتاريخ ٢٢ مارس - آذار ١٩٩٠، وفي الساعة ١٨,٥٠ وقفت سيارة «غولف» تقودها فتاة سمراء أمام بناية سكنية كبيرة في بروكسل. عنوان البناية هو ٢٨

شارع فرانسوا فولي، بنايه مينيرڤا السكنية. حيّا رجل، ذو شعر بني وبدين قليلاً مع انحناءة طفيفة في ظهره، الفتاة قبل أن يدلف الى البناية. لقد صعد وحيداً مثل كل مساء إلى شقته في الطابق السادس. بماذا كان يفكر وهو في المصعد وحيدا؟ لن يستطيع أحد الاجابة على هذا السؤال. لقد وضعت خمس رصاصات من عيار ٧,٦٥ ميلمتر اصابته في رقبته حداً لحركة يده الباحثة عن مفاتيحه. وخرّ المهندس جيرالد بول صريعاً.

لم يؤد تحقيق الشرطة القضائية الى شيء. اكتفى بأن يدون مرّة أخرى ادارياً القول بأن نشاطات بعض الاشخاص تضايق اشخاصاً آخرين. عندما تمّ استجواب الفتاة السمراء افصحت عن هويتها ومهنتها. اللقب: جامين. الاسم الاول: مونيك. المهنة: سكرتيرة في هيئة البحوث الفضائية الدولية، ٦٣، شارع دوستال في اوكل. ان ما دوّنه مفوضو الشرطة البلجيكيون في محاضرهم انتقل بسرعة الى عدة حكومات. بالطبع تحت صيغة رسائل بالرموز.

في لندن لم تُفاجأ مثلاً اجهزة الاستخبارات الانكليزية. إذ كشفت في الحال التشابه الغريب بين هذا الحادث وحوادث اغتيال جرت خلال السنوات السابقة. وما زلنا نذكر عالم الذرّة المصري يحيى المَشَدْ الذي اغتيل بتاريخ ١٤ يونيو - حزيران ١٩٨٠ في الغرفة ٩٠٤١ من فندق المرديان في باريس. او ايضاً ذلك المصري الآخر الاخصائي في انظمة ارشاد التموجات الكهربائية (ميكرو اوند) الذي سقط بشكل مبهم من الطابق الخامس من بناية في القاهرة بتاريخ ٢ سبتمبر - ايلول ١٩٨٩. ان مقتل جيرالد بول يحمل في الواقع بصمات فرق «الكوميميوت» ،أي جهاز العمل المخيف التابع للموساد.

هيئة البحوث الفضائية هي مكتب للدراسات في ميدان الاسلحة المتخصصة بالمدفعية. وهي غير مجهولة بالنسبة لأجهزة الاستخبارات الغربية المختلفة إذ لديها عشرون موظفاً ولها فروع في أثينا وجنيف. كما ان ارقامها الهاتفية (٣٧٨٣٥٨٠ - ٠٢) و(٣٣٢٠٩٩٤ - ٠٢) موضوعة تحت المراقبة منذ فترة من الزمن وكذلك رقم جهاز ارسالها الهاتفي «الفاكس» ذي الرقم (٣٧٦٠٣٨٣ - ٠٢) حديثاً. امّا بالنسبة للرجل الذي جرى اغتياله فإن الملفات الخاصة به تبدو من النوع المسرف في الاطناب: «جيرالد ڤانسان بول من مواليد ٩ مارس ١٩٢٨ في مقاطعة اوتاريو بكندا. نال شهادة الدكتوراه في الرياضيات التطبيقية من جامعة مكفيل عام ١٩٤٨.

انخرط في الجيش الكندي كضابط مدفعية عام ١٩٥٢ ».

في الواقع، كان هذا الرجل هو الدماغ المفكر في انتاج مدفع كبير يؤمن للعراق امتلاك سلاح لا مثيل له؛ على ان يتم انتاجه عن طريق عملية تركيب (مونتاج) غريبة. كان المقصود هو تصنيع اضخم مدفع عرفته قوات المدفعية في تاريخها بواسطة تجميع قطع يجري تحضيرها في نصف دزينة من البلدان. مدفعٌ عملاق يبدو مدفع « بيرتا » الكبير الذي تمّ استخدامه في الحرب العالمية الاولى (بطول ٣٤ متر وعيار ٤٢٠ ملم) قزماً. انها حالة من الجنون تليق بالشاعر « جول ڤيرن »؛ وكان المقصود منها هو ارواء ظمأ صدام حسين للقوة في تصوراته الجانحة الى اعادة تقمص شخصية صلاح الدين الكبير، محرر القدس في زمن الحروب الصليبية.

ان تاريخ هذا الحلم الذي كان يراود ضابط المدفعية المجنون بالعظمة يرجع الى نهاية سني الخمسينات. فمنذ كان جيرالد بول مراهقاً احب المدفعية وانسحر بالبرنامج الفضائي للدكتور ورنر ڤون براون لغزو الفضاء. وبراون هو الماني تجنّس بالجنسية الاميركية. وفي عام ١٩٦٢، درّس جيرالد بول، الاستاذ الشاب، علم القذائف والميكانيك في جامعة مكفيل في كندا. وكان لديه القناعة الكاملة بأنه بالرغم من الموجة الحالية للصواريخ فإن للمدفع مستقبلاً زاهراً.

الفكرة الثابتة التي كانت تراوده هي صناعة مدفع كبير قادر على أن يضع في المدار عربات فضائية صغيرة مكرّسة للبحث العلمي. واعتقد ان نفقات اطلاق مثل هذه المركبات ستكون أقل بكثير من الثروات التي يجري انفاقها في « كاب كاناڤيرال » لاطلاق مركبات بحجم البرتقالة الهندية (الكريفون) وبواسطة صواريخ ضخمة تتألف من ثلاثة طوابق.

لقد كانت قناعته كبيرة وقوية الى درجة انها حازت على تأييد اخصائيين عسكريين كنديين واميركيين في تلك الفترة. في عام ١٩٦٠ بدأ بول بالعمل على برنامج مشترك كندي - اميركي تحت عنوان: « مشروع الدراسات العليا للبحث ». كان هذا المشروع مموّلاً من قبل البنتاغون ووكالة « نازا » للأبحاث الفضائية. ان ملايين من الدولارات جرى انفاقها من اجل غزو الفضاء بواسطة مدفع عملاق، كما لدى جول ڤيرن! لقد قام بول، بالتعاون مع زميله الاميركي شارل مورفي الخبير في ميدان علم القذائف والذي كان يعمل في مركز بحوث الجيش الاميركي في ماريلاد، بانجاز مدفع تجريبي في البداية طوله ٣٠ متر، ومادته الاولية هي الانابيب البحرية

البالغ قطرها ١٦ بوصة (٤٢٠ ملم). عمليات الاطلاق الاولى كانت ناجحة. اعتباراً من ذلك بدأ باعلان هدفه المتمثل باستبدال الطابق الاول من الصواريخ الكلاسيكية بقنبلة كبيرة وزنها اكثر من طن وطولها تسعة امتار على ان تحتوي ذاتها صاروخاً صغيراً بثلاثة طوابق. هذا المشروع الذي أطلقت عليه تسمية مارتليت - ٤ رمى الى وضع مركبة فضائية وزنها ٩٠ كيلوغرام في المدار. كان بول يشرح لكل من يريد الاستماع اليه بأن هذه الطريقة اوفر بكثير من الطرق التي تتبعها مؤسسة «نازا» لأبحاث الفضاء، وأنه يمكن بطريقته الوصول الى «مقرطة» عمليات الاطلاق الفضائية. وكان يستخدم من اجل اجراء تجاربه حقلاً خاصاً للرمي يقع في منطقة تسمّى هيغواتر على حدود الكويبك في كندا وفيرمون في الولايات المتحدة الاميركية. ومنذ ثلاثة اشهر فقط كانت منشآت مشروع الدراسات العليا للبحث المهجورة لا تزال احد اماكن الزيارة المفضّلة بالنسبة لبعض المتنزهين الفضوليين.

في عام ١٩٦٦ جرت تجارب اطلاق في جزيرة برمودا نجح خلالها المدفع الجديد لمشروع الدراسات العليا للبحث، من عيار ٤٢٤ ملم وطول ٥٣ م (اي بمقدار علو قوس النصر في باريس) باطلاق عمودي لعبوة وزنها ١٨٣ كيلوغرام وبسرعة بدائية مقدارها ١٨٥٠ متر في الثانية ووصلت إلى ارتفاع ١٤٣ كيلومتر. كان ذلك رقماً قياسياً!

لقد منح اقتراع خاص للكونغرس الاميركي الجنسية الاميركية لجيرالد بول. مع ذلك وبعد هذا النجاح التقني بقليل، اي في عام ١٩٦٧ تخلّت السلطات الاميركية عن مشروع الدراسات العليا للبحث لصالح الصواريخ. وكان وراء عدم منح التمويل الموعود به حرب عصابات ادارية حقيقية يتجابه تقليدياً فيها خلف الكواليس سلاح الجو الاميركي المؤيّد للصواريخ عابرة القارات والجيش الاميركي الراغب بسبر بدائل المدافع.

ان جيرالد بول لم تهبط عزيمته بالرغم من خيبة أمله، إذ قرر ان يتابع بحوثه بواسطة رؤوس اموالٍ خاصة. وفي ٥ ديسمبر - كانون الاول ١٩٦٨ شكّل مع باحثين آخرين من جامعة مكفيل هيئة أبحاث الفضاء التي مقرّها الكويبك. لقد نجح في الحصول على تمويلات هامة خاصة من عائلة بروفمان (أحد اعضاء هذه العائلة، ادغار، هو رئيس المؤتمر اليهودي الدولي). كان ذلك في الفترة التي اهتمت فيها اسرائيل حقاً بالبحث عن قاذف طويل المدى من أجل اسلحتها النووية. وعندما وجد بول ان

الأموال الممنوحة له من قبل اصحاب رؤوس الاموال غير كافية كرّس نفسه لتنفيذ عملية صنع مدفع قاذف طويل المدى جداً من طراز جي - ٥ وعيار ١٥٥ ملمتر. لكن بول نقل مقر هيئة ابحاث الفضاء الى دولة ديلاوار بتاريخ ٣٠ يونيو - حزيران ١٩٧٩ ؛ لأسباب تتعلق بالضرائب. وقد وعده مستثمرون جدد، خاصة من جنوب افريقيا، بزيادة رأس ماله.

وما بين ١٩٧٦ و١٩٧٨ اشتغل بول لحساب شركة «ارمسكور» في بريتوريا. و«ارمسكور» هي شركة غير معروفة جداً من قبل الجمهور العريض فهي تابعة لحكومة جنوب افريقيا ويعمل فيها ٢٣٠٠٠ موظفاً (من بينهم عدد من الاسرائيليين يعملون بعقود)؛ ويضاف لهم ٩٠٠٠٠ موظفاً تستخدمهم عشرات الشركات العاملة لحساب غيرها وذات التمويل الخاص. واستطاعت شركة «ارمسكور»، بادارة رئيسها النشيط بيت ماريس، أن تصبح في طليعة الشركات العالمية المصدّرة للاسلحة. ففي اللحظة التي كان فيها جيرالد بول يقوم بتسليم «مدافعه الكبيرة» لبغداد، كانت شركة «ارمسكور» قد اصبحت احد المصادر الرئيسية لتزويد العراق بالاسلحة.

في عام ١٩٨٩ كان رأس مال شركة ارمسكور يعادل ٨٤٠ مليون دولار وبلغت قيمة مبيعاتها في تلك السنة ما يعادل مليار دولار. إذ منذ أن دخلت المجموعة الى سوق التصدير عام ١٩٨٢ وصل عدد البلدان التي تشتري منتوجاتها من الاسلحة الى ستة وعشرين بلداً.

في عام ١٩٨٠، حُكم على بول بالسجن لمدة اربعة أشهر بسبب تزويده اعتدة حربية لجنوب افريقيا في الوقت الذي كانت تخضع فيه لاجراءات الحظر منذ ١٩٧٧ تنفيذاً للقرار ٤١٨ الصادر عن مجلس الامن الدولي. فترة السجن هذه امضاها في احدى اصلاحيات ولاية بنسلفانيا. اثر ذلك نقل بول مقر شركته الى بروكسل لأنه قرف الحياة في الولايات المتحدة. وبدأت هيئة ابحاث الفضاء البلجيكية بالعمل حسب القوانين البلجيكية منذ عام ١٩٨٢. اي بالتحديد في الفترة التي امنّت فيها الحرب الطويلة بين ايران والعراق اسواقاً مثمرة بالنسبة لتجار السلاح.

ان المحللين يعيدون عامة سباق العراق للتسلح الى فترة الحرب ضد ايران في سني الثمانينات. لكن، في الواقع، يرجع القرار الاوليّ القاضي بتحويل العراق الى ترسانة عسكرية الى عام ١٩٧٤. ففي تلك السنة اصدر مجلس قيادة الثورة العراقي توجيهاً

سرياً يدعو فيه عدة وزارات اساسية (الدفاع، الصناعة... الخ) وادارات القطاعات الهامة فيها (البتروكيمياء، النوويات... الخ) الى اعطاء الافضلية لتطوير القدرة النووية والكيميائية والجرثومية وكذلك الشروع في الصناعة الفضائية.

ويرى هاوارد تيشر، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن العراق في الاجهزة السرية للبنتاغون، ان مسألة تسلح العراق الكبير تعود إلى تلك الدفعة الاولى التي كانت وراء بناء المفاعل النووي تموز (اوزيراك) ومصنع المنتوجات الكيميائية في سامراء، باختصار كانت وراء مجمل المركّب العسكري - الصناعي كما عرفناه عشية عملية «عاصفة الصحراء». بنى الروس المصنع الاول للمتفجرات ما بين ١٩٧٦ و١٩٧٨. كما ارسى العراق في الفترة الواقعة بين ١٩٧٩ و١٩٨٤ اسس صناعة محلية عبر تطوير نسيج صناعي عام موجّه نحو تحقيق الاهداف التي كانت تعليمات ١٩٧٤ قد حددتها. لقد طوّر الصناعة النووية مع فرنسا، ومع ايطاليا وبلجيكا ايضاً، كما طوّر معها ايضاً الصناعة الالكترونية (شركة طومسون) والصناعة الكيميائية مع بلجيكا والمانيا... ان هذا الكتاب لا يكفي لتقديم ثبت باسماء الشركات التي ساهمت في تلك العملية.

ان اخصائيي التصنيع الحربي معجبون جداً بالفعالية التي استطاع العراق ان يسيطر فيها خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة على متطلبات انشاء قوة عسكرية هائلة كالتي بناها. ولا بد ان نعترف لصدام حسين بحذاقة كبيرة في اختياره لمنفذي برامج التسلح وخاصة حسين كامل صهره ومساعديه الجنرال عمار رشيد العبيدي والجنرال عمر حمودي السعدي، الدماغين اللامعين اللذين تلقيا تكوينهما المهني في افضل المدارس الغربية. لقد كان العبيدي، المهندس الكهربائي، وراء عقد توقيع ضخم مع شركة طومسون الفرنسية باسم (س.ا.ا.د - ١٣) خاص بانشاء مصنع الكترونيات متقدم بالقرب من تكريت، مدينة صدام حسين. في منتصف سني الثمانينات كان هذا المصنع يستخدم ٢٥٠ مهندساً فرنسياً. وفي عام ١٩٨٩ تمّت تسميته «مؤسسة صلاح الدين» حفاظاً على عظمته. اما عمار حمودي، المهندس الكيميائي الذي كان يحمل الجنسية الالمانية بالزواج، فقد كان وراء مصانع الاسلحة الكيميائية ووراء وحدات انتاج صواريخ سكود المعدّلة.. وكذلك وراء مدفع بول العملاق.

في عام ١٩٨٧، كان اعجاب صدام حسين شديداً باتقان عمل هذا الثلاثي الى درجة أنه أنشأ «وزارة التصنيع الحربي» التي تجمع وزارة الصناعة والهدروكربورات

وهيئة التصنيع. واصبح حسين كامل وزيراً لهذه الوزارة الهامة. وعيّن هذا الأخير العبيدي معاوناً له.

عشية حرب الخليج كان هناك عدد من نماذج الصواريخ بصدد التطوير من قبل تقنيين ومهندسين أجانب. ولقد تمّ الكشف عن أغلبية هذه الاسلحة المتقدمة تقنياً خلال المعرض الدولي الاول للعتاد العسكري الذي أقيم في بغداد ما بين ٢٨ ابريل - نيسان و٢ مايو - ايار ١٩٨٩. ولقد جاء في مقدمة الكتيّب الذي تمّ توزيعه مجاناً على الضيوف ما مفاده:

«ضيوفنا الاعزاء.

بمناسبة معرض بغداد الدولي الاول للانتاج الحربي، المقام تحت عنوان: «العتاد من اجل الدفاع والسلام والازدهار»، يشرفنا ان نتقدم ونؤكد استعدادنا لمشاركتكم لنا تجربتنا في ميدان تكنولوجيات الانتاج الحربي. اننا نشكركم لتعاونكم ونتمنى لكم اقامة طيبة في بغداد، مدينة الشمس والنخيل. ونأمل ان نراكم مرّة ثانية».

التوقيع: لجنة معرض بغداد الدولي للانتاج الحربي.

تجب الاشارة الى أن المشاركة الفرنسية في المعرض كانت كبيرة جداً إذ بلغ عدد الشركات العارضة ٣٢ شركة بينما تمثّلت بريطانيا بـ١٧ شركة وايطاليا بـ ١٦ شركة والبرازيل بـ ١٠ شركات... اما العارضون الرئيسيون الآخرون فقد تمثلوا في مصر والباكستان وبلاد جنوب شرق آسيا (سنغافورة وكوريا الجنوبية) وتشيكوسلوفاكيا والشيلي واليونان... الى جانب عارضين آخرين أقل أهمية... بالاجمال كان هناك ١٤٠ عارضاً ينتمون الى ٢٨ بلداً؛ ويحاول كل منهم الترويج لآلات دماره.

كان الجناح البريطاني يحتوي على منصة عرض خاصة بهيئة ابحاث الفضاء البلجيكية (ضمن اطار شركة استرا هولدنغ، الشركة الأم لانتاج المواد المتفجرة في بلجيكا). ومن الغريب أن احداً لم يتنبه إلى ان تلك الهيئة قد عرضت مجسماً (ماكيت) بمقياس ١/٣٠ للمدفع العملاق بابل.

ان المهندسين العراقيين استطاعوا، بفضل تحويلات التكنولوجيا، تنفيذ تسعة مشاريع على الاقل للصواريخ هي: الفاو، العابد، تموز - ١، الفهد - س ر، الفهد - م ر، بدر - ٢٠٠٠، البراق، كسير، نيسان. امّا الصواريخ العراقية المشتقة من سكود والتي

اطلقت ضد السعودية وضد اسرائيل فكانت العباس (مداه ٨٠٠ كيلومتر) والحسين (٥٠٠ كيلومتر). وكان العراق يمتلك في بداية الحرب ٥٠٠ سكود معدّل و٣٦ منصة اطلاق متحركة زوّدته بها شركة ساب ـ سكانيا السويدية.

في ميدان المدفعية، جرت أغلبية التحسينات على يد مهندسي هيئة أبحاث الفضاء البلجيكية. وفضلاً عن مدافع ١٠٠ جي ـ ٥ و٢٠٠ ـ جي. اش. ان. من عيار ١٥٥ ملمتر التي كان بول قد قدّم تصورها وباعتها بالتتالي شركة ارمسكور (جنوب افريقيا) وتوريكوم (النمسا)، فإن قسماً كبيراً من المدافع السوفياتية والصينية المتضمّنة في الترسانة العراقية أعيد النظر به وتمّ تصحيحه من قبل تقنيي بول. فمثلاً تمّ تعديل عيار المدفع ت ـ ٥٥ ليصبح ١٢٥ ملم أو قاذف القنابل الصيني د ـ ٤٦ الذي أصبح عياره ١٥٥ ملم بدلاً من ١٣٠ ملم. كما يجب أن يضاف إلى هذا قاذف القنابل المتحرك ذاتياً مجنون (١٥٥ ملم) ومثيله الفاو (٢١٠ ملم)... حيث صنعت شركة «تريبلو» الاسبانية قاعدتيهما بينما قدّمت شركة كروزو لوار الفرنسية سبطانة المدفع. اما تمويل المشروع فقد تأمّن عن طريق البنك الوطني الأرجنتيني.

لكن كان على جيرالد بول أن ينتظر حلول عام ١٩٨٨ كي يظفر بالحصة الكبيرة. إذ تم في شهر يناير (كانون الثاني) توقيع عقد بين هيئة أبحاث الفضاء البلجيكية ووزارة الصناعة والبتروكيمياء العراقية. كان المفاوض مع جيرالد بول هو حسين كامل، صهر صدام حسين. نص ذلك العقد على تصميم وتصنيع وتسليم منشآت سلسلة من المدافع الضخمة مستوحاة مباشرة من مشروع بول لسنوات الستينات.

الاسم الرمزي للعملية كان: «مشروع بابل». المرحلة الأولى كانت تقضي بتسليم مدفعين للعراق. الأول منهما من نموذج عياره ٣٥٠ ملمتر وطوله ٦٥ متراً ومنصوب على خط حديدي. هذا النموذج المدعو اس ـ ٣٥٠ كان يمثل المرحلة الأولى المكرّسة لاختبار المدفع العملاق القادم من عيار ١٠٠٠ ملمتر (فوهة مدفع قطرها متر!). كان رئيس المشروع مهندس بريطاني عمره ٥٦ سنة هو كريس كرولي. مهمة هذا المهندس تمثّلت في الاتصال بالصناعيين وبالشركات القادرة على انتاج العناصر غير العادية لمشروع بابل وبأكبر قدر ممكن من السرية. لذلك قام بتسليم خطط مفصّلة جداً لمؤسسات عاملة في حقل التعدين الثقيل مع اخبارها ان المقصود هو حيازة انابيب مخصصة لمشروع بتروكيميائي كبير.

في شهر ابريل (نيسان)، حضر الى مقر شركة والترسومر، وهي فرع من

المجموعة البريطانية ايغل ستار، التي توجد افرانها لصهر الحديد في مقاطعة ويست ميدلاند. وبعد حديث طويل مع ريكس بيليس مدير الشركة تمّ توقيع العقد الأول. اما موضوع الطلب فقد تمثّل في خمسة أنابيب بطول ١٠ متر من الفولاذ الخاص السميك جداً وبقطر داخلي ٣٥٠ ملمتر. هذه الدقة الكبيرة في تحديد المواصفات اثارت شكوك بيليس فما كان منه إلا أن أسرَّ بشكوكه الى نائب المقاطعة السير هال ميلر. هنا يجب التذكير بأن بريطانيا قد فرضت حظراً على العراق في عام ١٩٨٥. فقام الأخير بابلاغ وزارة الدفاع البريطانية وجهاز مكافحة التجسس.

هل كانت تلك نهاية المغامرة؟ كلاً على الاطلاق. إذ تمَّ إنجاز صنع الأنابيب وأعطت دائرة التجارة والصناعة المكلّفة بشكل خاص بمراقبة الصادرات الصناعية الضوء الأخضر لشركة والترسومر. ونصَّت رسالة «تلكس» صراحة بالموافقة على أن تقوم الشركة بتسليم الأنابيب للعراق. كان ذلك بتاريخ ١٨ اغسطس (آب) ١٩٨٨. ان التجارة لها أسبابها ومبرراتها التي تجهلها السياسة أحياناً...

بتاريخ ٢٥ فبراير (شباط) ١٩٨٩، حطت طائرة اليوشن II - ٧٦ في مطار مانشستر. كانت مهمتها هي نقل ثلاثة من تلك الأنابيب الى العراق. هذه الرحلة غير الاعتيادية تمَّ تدوينها في سجل برج مراقبة المطار على انها رحلة خاصة برقم ١٤٧٠٧؟ دون أية اضافة. كما تمَّ أيضاً نقل انبوبين آخرين بنفس الطريقة بعد اسبوعين من تلك الرحلة الأولى.

لماذا يتم نقل قطع ثقيلة ومربكة كهذه في الطائرة؟ هذا هو السؤال الذي طرحه فيما بعد محققو الجمارك البريطانيين الذين احتجزوا أنابيب أخرى من نفس النوع على رصيف مرفأ للشحن. الإجابة على هذا السؤال ذات أهمية حاسمة.

كان صدام حسين يحرص حرصاً شديداً على إظهار القدرات التكنولوجية للعراق بمناسبة معرض بغداد العسكري في نهاية شهر ابريل (نيسان) ١٩٨٩. فوعده جيرالد بول بأن المدفع الكبير من نموذج ٣٥٠٠ ملمتر سيكون جاهزاً قبل ذلك التاريخ. ولقد استطعت من خلال استقصاء طويل قمت به من كشف حقيقة مفادها انه لم يتم تسليم ذلك المدفع للعراق فحسب، بل إنه تمَّ استخدامه اثناء عملية اطلاق تجريبية ناجحة في شهر مارس (آذار) ١٩٨٩.

ولقد روى لي أحد المقربين من جيرالد بول الذي كان يعيش في مكان ما في اوروبا بهوية مزيّفة - اثر التهديدات التي تلقاها بقتله - معلومات تثير التشوش. قال

لي: «طارت الطائرة العراقية من مانشستر الى الموصل مباشرة. وقد تمّ انزال الحمولة من الأنابيب بواسطة شاحنات تابعة للجيش نقلتها الى قاعدة سرية في شرق المدينة. كان بول ذاته هو الذي صمم مخططات تلك القاعدة مع تحديد مواقع الرادارات والصواريخ المضادة للطيران. ولا زلت أتذكر الرسوم الاولية لحقل التدريب على الرمي.. كانت تمثل سكة حديد والأنابيب مثبتة على عربات نقل خاصة بالسكك الحديدية. لم أكن حاضراً لحظة الرمي لكنني أعرف أن المدفع كان مبرمجاً للرمي في الوضعية الأفقية بحيث كانت المسافة التي تقطعها عربات النقل عند تراجعها تسمح بقياس دقيق لقوة التراجع. كانت القنابل زنة ٣٥٠ ستنغرز في كثبان رملية على بعد كيلومترات من حقل الرمي. كان ذلك يسمح لنا بتفحص حالة القنابل ودرجة الاستهلاك في اغلفتها الواقية».

من أجل فهم طبيعة ذلك المدفع الغريب، تتوجب معرفة أن القنابل المقررة لاستعماله لم تكن قنابل تقليدية، بل نوع من القنابل الخارقة مثل تلك التي تستخدمها الدبابات السوفياتية ت ـ ٧٢ أو الامريكية ابرامس. لكن الفرق الكبير مع قنابل الدبابات (المصممة لاختراق المدرَّعات) يكمن في أن القسم المخصص للاختراق (السهم) الذي صممه بول كان عبارة عن صاروخ بالستيكي صغير له نظام دفعه الخاص؛ ومغلّف بوعاء من الالمنيوم ينفصل عنه عند بداية انطلاقه في مساره. وكان يُفترض أن ينطلق نحو الأعلى في الأجواء مدفوعاً بمحرك يعمل بالبارود ويرسم بذلك منحنىً يبلغ طوله عدة مئات الكيلومترات وتقع أعلى قمة فيه خارج الجاذبية الأرضية بهذه الدرجة أو تلك. كما ان المقذوف ينجو على علوٍ كهذا من مقاومة الهواء، الأمر الذي يفسر مداه الطويل.

ان ما حجبه محدثي عني استطعت معرفته من مصادر أخرى، خاصة من أوساط المحققين البريطانيين المكلّفين بالملف. إذ علمت أن عمليات الاطلاق الأولى لم تكن كاملة النجاح. نقطة الضعف الأساسية في تلك المنظومة تمثلت في المفاصل الموصلة (جوانات) بين أجزاء الأنبوب من جهة؛ وفي أوعية المقذوفات الهشة من جهة أخرى.

لذلك جاب فريق بول (وخاصة ابنه ميكائيل) بريطانيا كلها في صيف ١٩٨٩ بحثاً عن شركات التكنولوجيا العالية التقنية والقادرة على تحسين المدفع والمقذوفات. وانه لمن غير المجدي القول ان رجال هيئة أبحاث الفضاء كانوا متبوعين اينما حلوا وارتحلوا بعناصر الأجهزة السرية العراقية الملأى جيوبهم ببطاقات السفر. كانت

تعليمات الجنرال السعدي لجيرالد بول واضحة: «اذا لم تقبل المؤسسات التي تزورونها التعاون معكم، فاشتروها». بهذه الطريقة وضع العراقيون يدهم بالوكالة على عدة شركات بريطانية؛ المثال المعروف عن ذلك أكثر من غيره هو مثال شركة ماتريكس ـ تشرشل لصناعة الأجهزة ذات التحكم الالكتروني العددي. ان الصحفي البريطاني، الذي كان يعمل في الأوبسرفر فرزاد بازوفت، أعتقل ثم أعدم في بغداد بتهمة التجسس عندما أراد أن يجري تحقيقاً عن منشأة لشركة ماتريكس ـ تشرشل في العراق.

لقد تمَّ شراء هذه الشركة بتسعة ملايين دولار بواسطة شركة شكلية مقرها لندن يديرها عميلا حسين كامل في لندن. والمقصودان بذلك هما صفاء جواد الحاقوقي وفاضل جواد خدوم. كان هذان الرجلان أيضاً، منذ عام ١٩٨٨ على اتصال بكريستوف درغل مدير البنك الوطني (لاڤورو) في أطلنطا. كم هذا العالم صغير... كان هدف العراقيين من شراء تلك الشركة هو إمكانية الحصول على الآلات المتقدمة من أجل تحسين صواريخ سكود وصناعة قنابل مدفع بول الضخم في العراق.

في شهر يوليو (تموز) ١٩٨٩ قصد مهندسو هيئة أبحاث الفضاء شركة ديستيك في لينكولنشاير، من أجل تحسين نوعية المفاصل الموصلة الأربعة الكائنة في نقاط اتصال الانابيب الخمسة الخاصة بالمدفع التجريبي. وتمت تسوية المشكلة في الخريف بعد أن أقام اختصاصيو الشركة ثلاثة أيام في بغداد. هنا أيضاً لم تحصل أية مشكلة مع السلطات البريطانية. إذ كانت المسألة تتعلق رسمياً بمنشآت بتروكيميائية.

بقيت مشكلة أوعية المقذوفات. لقد اتصل بول مع شركة دارشم في هوتينغدون بالقرب من كامبردج. وتقدَّم مهندسو هيئة أبحاث الفضاء بطلب قطع محكمة الصنع من خيوط الفحم شديدة المقاومة والمخصصة بالدرجة الأولى لصناعة التسليح. درس تقنيو دارشم مخططات بول. كان المطلوب هو صناعة نصف اسطوانات مزودة في أطرافها بحشوات مستديرة كبيرة على أن يكون القطر الداخلي لهذه الحشوات (كعكات) المستديرة ٣٥٠ ملمتر بالضبط. أحد تقنيي شركة دارشم تساءل عن الهدف النهائي لهذه القطع. أجاب مهندسو هيئة أبحاث الفضاء بعد أن تبادلوا النظرات فيما بينهم: «ان الأمر يتعلق بأوعية تغليف لحماية اسطوانات الحفر المستخدمة في التنقيب عن النفط». لأي بلد؟ الإجابة كانت: «للعراق». «لا بأس، أجاب تقنيو دارشم».

مع ذلك كان الرفض القاطع هو الجواب الذي واجهت به وزارة الخارجية البريطانية طلب الترخيص بتصدير هذه القطع الى العراق. لقد شك الموظف المسؤول عن العراق في الوزارة بطلب دارشم. وطلب فتح تحقيق بالأمر.

مع ذلك لم تتثبط عزيمة بول والعراقيين. فإذا كانت شركة دارشم لا تريد أن تصنع القطع التي طلبوها، فإنه سيكون لديهم مصنعهم الخاص بهم. لقد حاول بول ان يشتري بأموال العراقيين شركة للتكنولوجيا العالية في بلفاست بايرلنده الشمالية، هي شركة لير فان. وهذه الشركة البريطانية مشهورة في أوساط صناعة الطيران إذ كانت قد أنتجت أول طائرة تجارية محكمة الصنع بواسطة مواد توليفية مركبة العناصر. ان هذه التكنولوجيا العالية تسمح أيضاً بانتاج مخاريط للصواريخ البالستيكية ذات الضغط العالي. لقد أصبحت الأجهزة السرية البريطانية الآن على اطلاعٍ كامل بنشاطات بول. فقررت أن تقوم بكل ما في وسعها من أجل منع العراقيين من شراء شركة لير فان.

من جهة أخرى، بدأ الاسرائيليون منذ الخريف يولون أهمية جديَّة للتهديدات التي يمثلها مشروع «بابل». فطلبوا من فرعهم في بروكسل ان يتابع عن كثب تطور اعمال مكتب دراسات هيئة ابحاث الفضاء، وان يدس «إذا أمكن» أحد عملائه في تلك الهيئة. ولا أحد يعرف بالدقة ماذا حصل بعد ذلك.

بكل الأحوال، جاءت بعد عدة أشهر، نقطة الماء التي أفاضت الكأس.. لقد نجح الاسرائيليون عبر مقارنة المعلومات المختلفة برؤية الخطر الدقيق الذي يمثله المدفع الهائل بالنسبة لهم. إذ ربما انهم اطّلعوا على أحد التقارير التي كان بول يبعثها بصورة منتظمة الى رؤسائه في بغداد. هذه التقارير تحمل أغلفتها الزرقاء عبارة تقول: «مشروع بابل / وضع المشروع». اطلعت على واحد منها يعود تاريخه لشهر يناير (كانون الثاني) ١٩٩٠. وفي مقطع قصير حول تفاصيل تقنية خاصة بالميكانيك وبالهيدروليك التطبيقي تمّت الاشارة التالية: «ان برنامج الرمي التجريبي الافقي أصبح جاهزاً الآن.. وبعد القيام به سيجري فك السبطانة وفحصها ثم نقلها الى الموقع المائل». هاتان الكلمتان الأخيرتان دقّتا كل نواقيس الخطر في اسرائيل.

لقد اكتشف الاسرائيليون، بعد تفحصٍ دقيق لمجموعة صور التقطها أحد الأقمار الصناعية للتجسس، ان الموقع المائل المقصود هو عبارة عن أخدود محفور على سفح جبل في وادٍ معزول شديد الانخفاض يقع في منطقة باجي في كردستان العراقية. كان

ذلك الأخدود يميل بدرجة ٤٥ْ ويتوجه محوره، حسبما تمَّ تصويره من الفضاء، باتجاهات شمال - شرق - جنوب غرب. فإذا أخذنا خارطة لمنطقة الشرق الأوسط وقمنا بمد ذلك المحور على خط مستقيم فإن ذلك الخط يمر مباشرة في تل أبيب. وبما أن سبطانة المدفع ستكون فيما بعد مغطاة بطبقة كثيفة من التراب ولا تنبثق منها سوى فوهة قطرها ٣٥٥ ملمتر تحاذي الأرض، فإن صدام حسين كان سيستطيع قصف اسرائيل دون أي عقاب. ان تدمير منصة اطلاق صعبٌ جداً. فإذا كان الأمر يتعلق بمدفع مدفون وفتحته مخبأة بشبكات التمويه، فإن مهمة تدميره تصبح مستحيلة.

في الواقع، كان بول يريد أن يبيع للعراق مدفعاً كبيراً قادراً على اطلاق قذائف كيمياوية أو جرثومية. والوثائق التي تمَّ العثور عليها عند عمليات التحقيق التي جرت في بروكسل في مقر شركته، اثر مقتله، هي أيضاً ذات دلالة بالغة عن طبيعة الابحاث التي كان يقوم بها كما يبدو لحساب بغداد. إذ كانت شركته قد دخلت في اتصالات، بواسطة شركة سويسرية، مع صناعيين ايرلنديين مختصين في انتاج الآليات المخصّصة للاستخدام في مجال القطع الفولاذية ذات القياسات الكبيرة. كما تمَّ طلب شراء انظمة تبريد من شركة نرويجية تحت غطاء تجاري لشركة أبحاث نفطية، لكن يرى الخبراء ان حجم تلك الأنابيب وارتفاعها لا يتوافقان مع المعايير المستخدمة عامة في ميدان البتروكيمياء.

وتدل الوثائق أيضاً على أنه قد تمَّ طلب مخارط من شركة يابانية. كان الأمر يتعلق بآلات عالية التقنية جداً وشبيهة بذلك العتاد الذي حاول السوفيات الحصول عليه منذ عدة سنوات من فرنسا واليابان بقصد صنع المراوح الصامتة لغواصاتهم؛ من هنا ترددت لدى بعض أجهزة الاستخبارات التي كانت مكلفة بالتحقيق في قضية بول فكرة تقول ان هذا الأخير كان يعمل أيضاً للوصول الى قاذف للاقمار الصناعية بطول ٤٠٠ متر ويستطيع استخدام الهدروجين المضغوط والمبرَّد بدلاً من البارود المستخدم عامة في الحصول على قوة الدفع المطلوبة.

ان مشروع بابل، ذلك الحلم المجنون لعبقرية في علم القذائف لم يُعرف قدرُها حق المعرفة، انتهى في ٢٢ مارس (اذار) ١٩٩٠ عند باب أحد المصاعد الكهربائية. اختفى ذلك الحلم نهائياً. وعندما سمع صدام حسين باغتيال بول حيّاً في خطاب رسمي «صديق العراق الذي قتله الصهاينة».

صواريخ للبيع

استخدمت الاجهزة السرية العراقية شركة سويسرية، هي شركة كونسن، للحصول على التكنولوجيات الحسَّاسة المخصصة لصنع الصواريخ المتقدمة المتقنة الصنع. كان عملاء بغداد مهتمين خاصة بمشاكل الاحتراق والارشاد. واستطاعوا الحصول على اسرارٍ هامة دفعوا مقابلها عمولات كبيرة من حسابات مصرفية لهم في زوريخ واللكسمبورغ وڤادوز تمَّ فتحها بفضل القرض الكبير بقيمة ٣ مليار دولار للفرع الامريكي للبنك الوطني لاڤورو. ومنذ عام ١٩٨٨ تلقت الشركة السويسرية «كونسن» تهديدات غامضة. إذ طلبت منها مكالمات هاتفية مجهولة المصدر أن تكف عن التعاون مع مشروع الصواريخ كوندور ـ ٢ الذي كان ينبغي أن يسمح لبغداد بامكانية اطلاق قنابل مزوَّدة برأس نووي في أفق عام ١٩٩٤. وكانت هذه الشركة قد عملت مع مكتب دراسات نمساوي (كونسولتو) ومع مجموعة المانية غربية (ام بي بي) ومع فرع لشركة فيات الايطالية.

وبتاريخ ٢٧ مايو (ايار)، في الساعة الثالثة صباحاً، دمَّر اعتداء بالمتفجرات سيارة حارس بناية رجل الصناعة الالماني اكهارد شروتز، مدير عام شركة كونسن ورئيسها، وفي الساعة الثامنة وخمسين دقيقة اعلن مجهولون باسم حرَّاس الاسلام مسؤوليتهم عن ذلك الاعتداء بواسطة اتصال هاتفي مع وكالة الصحافة الفرنسية ومع وكالة رويتر في باريس، وقالوا انهم نفَّذوا حكماً بالموت كعقاب على مذابح أهلهم وثأراً لهم. قال المتحدث في الهاتف: «ان تنفيذ ذلك الاعتداء هو نتيجة للأعمال الاجرامية المقترفة بالاصالة عن صدام حسين وشركة كونسن الموجودة في مونت كارلو المشرفة على مشروع الصواريخ العراقية طويلة المدى». كما تلقى مدير الشركة في الساعة الواحدة بعد الظهر تهديداً بالهاتف جاء فيه أن خطأً فنياً قد حصل هذه المرَّة لكنه لن يتكرر في المرَّة القادمة التي ستودي بحياته وحياة أسرته. كان المتحدث يتكلم الانكليزية بلكنة عربية واضحة. ومما يثير الفضول هو ان مجهولين كانوا قد حاولوا منذ عدة أيام سابقة، أن يضرموا النار في شركة للاسطوانات تقع الى جانب شركة «كولب» في المانيا الاتحادية. وكانت الشكوك تحوم حول هذه الشركة التي قد تكون شاركت في بناء مصنع للاسلحة الكيماوية في سامرَّاء في العراق. وكان أحد فروع هذه الشركة قد سلَّم ذلك المصنع، عام ١٩٨٣، حجرة خاصة باختبار تأثير المنتوجات الكيماوية على الحيوانات.

في اليوم نفسه، تلقت ثلاث شركات عاملة في فرانكفورت وشركة في هامبورغ رسائل تهديد من جبهة وطنية كردستانية مبهمة. عندما استجوبت الشرطة القضائية في مدينة مرسيليا، بطلب من النيابة العامة في مدينة غراس، السيد شروتز، نفى أية علاقة لشركته مع العراق أو ايران لكنه اعترف انه كان يعمل مع مصر التي سلّمها مصنعاً لمنتوجات دفع الصواريخ.

وبتاريخ ٧ يونيو (حزيران) ١٩٨٨ تلقى مقر شركة كونسن في موناكو، تهديداً هاتفياً آخر باللغة الانكليزية وبلكنة عربية واضحة. واعتبر المتحدث، الذي قال هذه المرّة أنه ينتمي الى منظمة حرّاس الاسلام، أن هذه الشركة مسؤولة عن مشروع صواريخ عراقية طويلة المدى واضاف انه إذا لم يتم التوقف عن المساهمة في ذلك المشروع سريعاً، فإن جميع مهندسي الشركة سيجري قتلهم الواحد بعد الآخر. لقد أعطى اسماء اربعة مهندسين. ودلّت التحقيقات التي أجراها الأمن الجنائي التابع لمدينة نيس في مقر الشركة أن الأسماء المذكورة هي لمهندسين يعملون بالفعل في المؤسسة المذكورة. ان شركة كونسن عملت بالفعل على انشاء موقع استراتيجي عراقي هو سعد ١٦ مهمته البحث في ميدان القذائف وتطويرها؛ وقد بلغت كلفته حوالي ٢٣٠ مليون دولار امريكي. وفي عام ١٩٨٩، أوقفت الشركة السويسرية اتصالاتها مع العراق وتمّ استبدالها بشركة أخرى هي ڤوفاغ.

ان العراق، كي ينفذ مشاريعه المختلفة، استفاد من مساعدة عشرين شركة اوروبية، اغلبها شركات المانية غربية، ساهمت في بناء المركب العسكري ـ الصناعي في مدينة الحلّة، على بعد ٦٥ كيلومتر عن بغداد؛ وهو المركّب الذي شهد انفجاراً خطيراً بتاريخ ١٧ اغسطس (اب) ١٩٨٩ ذهب ضحيته مئات القتلى. هل كان ذلك الإنفجار نتيجة خطأ بشري ام عملاً تخريبياً قام به جهاز الموساد الاسرائيلي؟.

ان هذا المصنع ينتج، فيما ينتجه، بيركلورات الامونيوم التي تشكل المادة الأولية للوقود الصلب. من جهة أخرى، انشأ العراقيون مركزاً للتدريب الجوي في منطقة الأنبار القريبة من كربلاء. ونجحوا في الحصول على نواظم آلية حاسبة متطورة من عدة شركات غربية.

بتاريخ ٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٩، تبادل المهندسون العراقيون التهاني في قاعدة الأنبار. كانوا قد نجحوا للتو في اطلاق صاروخ ذي ثلاث طوابق وزنته ٤٨ طن ومؤهل لوضع قمر صناعي وزنه ٣٠٠ كيلوغرام في المدار. كان العراقيون قد حاولوا شراء ذلك القمر الصناعي من البرازيل بغية تحويله الى محطة حقيقية للمراقبة

والاستعلامات العسكرية. ان الأجهزة السرية العراقية، بحثاً منها للالتفاف على اجراءات المنع الفرنسية في مجال تسليم اجهزة التكنولوجيات الفضائية، حاولت، في الواقع، استخدام البرازيل، خاصة شركة هوب التي يديرها الجنرال هوغو اوليفيرا بيقا، المدير السابق للمركز التقني للصناعة الفضائية. كان لهذا الجنرال مكتب في بغداد وكان يعمل مع فريقه على انجاز صاروخ مداه ١٠٠٠ كيلومتر واسمه الرمزي «غراند بيرانا». كانت كلفة المشروع ١٢ مليون دولار. وحاول بيقا ومهندسون سابقون من شركتي اوربيتا ايسباس وامبراير التقرّب من الشركة الفرنسية ساغيم من أجل شراء أجهزة الارشاد لكن توقفت جميع الاتصالات بعد اجراء تحقيقات احترازية قامت بها رئاسة الحكومة الفرنسية والجهاز الفرنسي لمكافحة التجسس. وقامت فرنسا، للحيطة أكثر، بوقف اجراءات تسليم طلبية برازيلية رسمية من اجهزة الارشاد المخصصة لتحسين طائراتها الميراج.

ان الحكومة الفرنسية فرضت مرّات عديدة على البرازيل شروطاً صارمة جداً، خاصة أن يتم انشاء المفاعلات من قبل مهندسين وتقنيين فرنسيين خاضعين لمراقبة خبراء حكوميين.

وجاء في تحقيق معمّق نشرته مجلة الاكسبريس الفرنسية بتاريخ ٣١ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١، ان شركة ساغيم قد ساهمت في تحسين الصاروخ العراقي أرض - أرض سكود. فنشرت الشركة التكذيب التالي: «لا شك ان شركة ساغيم مشهورة عالمياً بتقنيتها العالية في مجال الطيران والارشاد الجوي. وهذا المكتسب هو نتيجة للجهود التي بذلها الجنرال دوغول في سني الستينات من أجل تأمين الاستقلال التكنولوجي لفرنسا، خاصة في هذا الميدان. مع ذلك تتوجب الاشارة الى انه توجد العشرات من الشركات الامريكية أو البريطانية أو الالمانية أو السوفياتية قادرة على انتاج اجهزة مثل اجهزتنا. ان شركة ساغيم تعمل في هذا المضمار بشكل رئيسي لبرامج وطنية أو برامج أوروبية مشتركة، وجميع الصادرات خضعت لموافقة الهيئات الحكومية الفرنسية التي سمحت بها وراقبتها بكل الدقة المفروضة دائماً على مثل هذا النمط من التكنولوجيا». وأكدّت ساغيم ما كانت قد صرّحت به للصحافة من انها لم تزود العراق بأية تكنولوجيا على الاطلاق.

بدأ الجدال منذ أن أطلق العراق صواريخه الأولى من طراز سكود على اسرائيل. فبتاريخ ٢١ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١، صرّح الياهو بن اليسار، رئيس لجنة

العلاقات الخارجية في الكنيست الاسرائيلي، لصحيفة الفيغارو الفرنسية قوله: «صواريخ السكود هي صواريخ سوفياتية، لكن بعض الأدوات سمحت للعراقيين بتحسين صواريخ السكود الاصلية وأعطتها المدى الذي سمح لها بأن تصيب اسرائيل اليوم. إذ باع فرنسيون وايطاليون والمانيون واوروبيون آخرون للعراقيين التكنولوجيا التي سمحت لهم اليوم بتهديد اسرائيل».

وكان الجهاز الفرنسي لمكافحة التجسس، برئاسة كلود زلبرزاهن، قد قام منذ أشهر عديدة بتحقيقاته حول هذا الموضوع حتى في اسرائيل، بالتعاون مع الموساد، إذ أن تأكيدات من هذا النوع كانت قد سيقت منذ أشهر. من جهة أخرى قامت اللجنة الوزارية المشتركة لدراسة الصادرات الحربية والامانة العامة للدفاع الوطني التابعة لرئاسة مجلس الوزراء باجراء تحقيقات حول المساعدة الفرنسية المحتملة في تحسين برنامج الصواريخ البالستيكية العراقية المسماة العبَّاس. وبتاريخ ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١ سلَّمت الأمانة العامة للدفاع الوطني للحكومة مذكرة سرية خاصة بالدفاع.

تدل هذه الوثيقة على أن فرنسا لم تساهم بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر - بواسطة بلدان أخرى - في برنامج الصاروخ سكود، كما انها أوقفت منذ عام ١٩٨٧ أية مشاركة مباشرة لها ببرنامج كوندور.

١) المساهمة المباشرة.

أكدت الأمانة العامة للدفاع الوطني في وثيقتها أن فرنسا لم تسلم أبداً مباشرة للعراق أي عتاد يؤدي الى صنع صواريخ بالستيكية. بالتأكيد قامت ببيع أجهزة إرشاد صنعتها شركة ساجيم، لكن ذلك حصل من أجل برنامج ميراج ف - ١ التي تنتجها شركة داسو وبرامج عربات المدفعية المدرعة آ.ام.اكس من صناعة جيات. وقد قالت المحطة التلفزيونية الفرنسية الأولى ان شركة ساجيم قد باعت للعراق ٨٢ نظاماً للارشاد، (مخصص تحديداً للطائرات المذكورة أعلاه) كما تؤكد الوثيقة، كما ان «معدَّل بيع قطع التبديل من نفس الفئة هو ضمن الحدود الطبيعية». اما بالنسبة لعربات آ.ام.اكس، فإن شركة ساجيم قد باعت للعراق ٩٢ جهاز ارشاد من طراز ن س م - ٢٠؛ وهذا عدد ينسجم مع الاحتياجات النوعية لهذه العربات. وتختتم مذكرة الأمانة العامة للدفاع الوطني مذكرتها بالقول بأن استخدام تلك الأنظمة على صواريخ سكود «قد يكون معقداً وأقل فاعلية بالتأكيد من الأجهزة السوفياتية

المركَبَّة عليها ».

٢) المساهمة غير المباشرة

اعترفت الامانة العامة للدفاع المدني بهذا الصدد ان «فرنسا أقامت علاقات تجارية أو علاقات تعاون مع بلدان كانت تساعد العراق». وفيما يخص صواريخ السكود، فقد قام فريق من المهندسين البرازيليين بنقل تكنولوجيات فرنسية للعراق يمكن تطبيقها على برامج الصواريخ البالستيكية. وأضافت الامانة أن فرنسا على مدى ٢٠ سنة على علاقات تعاون علمي وتقني مع البرازيل في ميادين الفضاء تطبيقاً للاتفاقيات المبرمة بين المركز القومي الفرنسي لدراسات الفضاء ونظيره البرازيلي.

لكن هذا التعاون تباطأ منذ نهاية سني الثمانينات ثم توقف بسبب «الشكوك» الفرنسية حول استخدام تلك التكنولوجيا من قبل البرازيليين. وقد جاء في خاتمة مذكرة الامانة العامة للدفاع الوطني قولها: «لا يمكن القول ان هذا التعاون لم يكن له بصورة غير مباشرة اثاراً على القدرات البالستيكية العراقية في تحسين صواريخ السكود».

٣) برنامج كوندور

ان موقف فرنسا غير مريح في هذه الحالة بالتحديد. إذ أنها تعاونت بشكل كبير منذ مطلع سني الثمانينات مع الارجنتين لمساعدتها على تطوير برنامجها الفضائي، وبذلك قامت، امَّا مباشرة أو بواسطة شركة كونسن السويسرية، بتسليم الارجنتين ثلاثة أجهزة ارشاد من طراز اي.ان.اس ـ ٨٠ للتجارب واثني عشر جهازاً آخر من نفس النوع لاستخدامها في صواريخ تجريبية «التي ربما استخدمت الارجنتين معظمها من أجل تطوير دراسات برنامج كوندور» كما أشارت الأمانة. لكن فرنسا أوقفت تسليم تلك الأنظمة للارجنتين منذ شهر أغسطس (اب) ١٩٨٧ اثر توقيع معاهدة مراقبة تطوير التقنيات الصاروخية.

«بعد عام ١٩٨٧ حاولت مصر أن تأخذ مكان الارجنتين في تزويد العراق بأجهزة الإرشاد من خلال مشروع الصواريخ صقر ٨٠ أو صقر ١٢٠. وهكذا طلب هذا البلد عام ١٩٨٨ شراء ٢٠٠ نظام ارشاد من طراز ام.اس.ال ـ ٨٠٠؛ لكنه تخلّى عن هذا الطلب».

في الخاتمة اشارت الأمانة العامة للدفاع الوطني في فرنسا على ضرورة تعزيز اجراءات الرقابة على الاتفاقيات الفرنسية ـ الاجنبية في ميدان الفضاء نظراً

للمعلومات المتوفرة.

لقد ذهبت عناصر من الأجهزة السرية الفرنسية الى اسرائيل كي تتفحص مع خبراء الجيش بقايا السكود التي أطلقها العراق. ودلَّ تقريرٌ تمَّ رفعه لوزير الدفاع أنه لم يتم العثور على أي اثر من قطع أجهزة الارشاد غير السوفياتية. مع ذلك لم يزل هناك سرٌ غامض. إذ إن شركة ساجيم كانت قد تعاقدت على تسليم ١٤ جهاز ارشاد للارجنتين مخصصة لمشروع كوندور وكوندور - ٢ الذي لم يرَ النور أبداً. فهل قامت الارجنتين بتسليم تلك الأجهزة للعراق؟ ان تحقيقات جارية ستقدم الاجابة على هذا السؤال.

وضمن اطار مشروع الصاروخ «كوندور» أيضاً، وقعَّت شركة (ايفات) الموجودة في مدينة زوغ (سويسرة) عقداً مع وزير الدفاع المصري بتاريخ ١٥ فبراير (شباط) ١٩٨٥ من أجل انشاء مصنع لمحركات ذلك الصاروخ في مصر ضمن اطارَ المشروع. وكان يُفترض ان ينال ممثل برنامج «كوندور» في سويسرة المدعو الدكتور يوسف احمد خيمات نسبة ٣٪ كـ«نفقات تجارية» حسبما نصَّت بنود العقد.

هذا العقد تمَّ فسخه من قبل شركة «ايفات» بتاريخ ١١ يوليو (تموز) دون ان يقام معمل الصواريخ، كما اشارت الوثيقة.

من جهة أخرى صدر حكم ضد المدعو قادر حلمي وهو امريكي من أصل مصري كان يعمل كمهندس لدى شركة «ايربورت جنرال كورب»؛ وذلك لمحاولته تصدير مواد فحمية تُستخدم في صناعة الصواريخ؛ بطريقة غير شرعية.

واعترفت شركة المانية هي هاڤيرت بانها سلَّمت للعراق حتى نهاية عام ١٩٨٩ قطعاً سمحت لبغداد بتحسين مدى صواريخ السكود. لكن مدراء الشركة يؤكدون اليوم انهم كانوا يجهلون استخدام العراق لها. مع ذلك وجد المحققون في مكاتب هذه الشركة الواقعة بالقرب من فرانكفورت تصاميم لصواريخ السكود كان قد سلَّمها مهندسو الجيش الوطني الشعبي لجمهورية المانيا الديمقراطية سابقاً.

قام العراق، المأخوذ تماماً بسعار عسكري - صناعي حقيقي، بالاتصال بكل تجار السلاح في العالم طالباً جميع الأجهزة التجريبية. وما بين اعوام ١٩٨٠ و١٩٨٨، باع شخص لبناني من أصل أرمني، هو سركيس سوغاناليان، صدام حسين أسلحة من كل الأنواع يزيد ثمنها عن عدة مليارات من الدولارات بواسطة شركته: «يونايتد تراد انترناشيونال». بل حاول هذا التاجر ان يبيع العراق ثلاثين طائرة عمودية

امريكية من طراز هوغ المزوّدة بصواريخ تاو الشهيرة المضادة للدروع على أساس ان الشاري هو الجيش الكويتي.

بالمقابل كان المكتب الفدرالي الامريكي ومصلحة الجمارك الامريكية قد وضعوا يدهم في شهر اغسطس (آب) ١٩٩٠ على شبكة من تجار السلاح الموالين للعراق؛ اسمها السرّي هو «دراغون». كانت الشبكة برئاسة رجل اسباني هو خوان مارتان بيش ورجل أعمال الماني هو كلود فوهلر، اللذان كان لهما اتصالاتهما مع باريس وبروكسل وميلانو وجنيف. وكان لهما مكاتب تجارية في اليكانتي وبرشلونة ومدريد، كما كانا يعملان مع عناصر عربية وعراقية اقترحوا عليهم شراء ١٠٠٠٠ صاروخ مضاد للدروع من طراز تاو.

في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٠، اعلن الرئيس العراقي ان العراق يمتلك صواريخ يصل مداها الى عدة مئات من الكيلومترات وانه يستطيع استخدامها من أجل تحرير الاماكن المقدّسة في مكة أو من أجل إصابة أهداف في قلب اسرائيل. هذه الصواريخ تمّ تعميدها باسم «الحجارة» تيمناً من صدام حسين بالانتفاضة الفلسطينية. ولم تعر الأجهزة السرية الغربية اهتماماً كبيراً لهذا الاعلان إذ كانت تدرك أن الاتحاد السوفياتي سلّم العراق صاروخاً تجريبياً أرض - جو. لكن في الوقت نفسه، وضمن اطار التقارب بين واشنطن وموسكو، سلّم الاتحاد السوفياتي لوزارة الدفاع الامريكية الأسرار الالكترونية لذلك الصاروخ. الأمر الذي كان يقلق أجهزة استخبارات التحالف المعادي للعراق كان يتعلق بالأحرى بالعبوة التي يحملها الصاروخ. هل كانت تلك العبوة قادرة على احداث انفجار يشابه الفراغ الذي يحدثه ذلك الذي ينتج عن انفجار نووي؟ ان القنبلة الفراغية التي استخدمها طيران التحالف لتفجير حقول الالغام في الكويت هي فعالة أيضاً بدرجة كبيرة ضد تجمعات القوات.

ان الشركات الصناعية الالمانية انتجت هذا السلاح الجديد، ويُفترض انها سلمته لبغداد اثر عملية تحويل تكنولوجي. لكن العراق لم يمتلك الوقت الكافي لتصنيع كميات كبيرة منه.

ويبلغ عدد المؤسسات الالمانية التي قد تكون شاركت في مبيعات التكنولوجيا للعراق ثمانية وستين مؤسسة. ان محاكمات عديدة تُعَدّ والتحقيقات مستمرة. ولقد قام فرع من شركة تيسن ببيع العراق في المدة الواقعة بين مايو (ايار) ١٩٨٩ ويوليو (تموز) ١٩٩٠ ٣٥ صماماً تحتوي على الهواء المضغوط ومخصصة لمضخات السقاية أو

لاستخراج النفط. لكن عندما اعلمت الأجهزة الغربية الشركة بالنوايا الحقيقية للعراق، أوقفت العقد. إذ إن هذه الصمامات يمكن ان تستخدم لتغذية الطابق الثاني من صاروخ سكود بالوقود.

في شهر مارس (اذار) ١٩٩٠ احتجزت الجمارك الالمانية الغربية شحنة سويسرية من المعادن المقاومة المستخدمة في نوابذ اغناء اليورانيوم كانت في طريقها للعراق. وفي شهر يوليو (تموز) ١٩٩٠، أي قبل شهر من غزو الكويت أوقفت وزارة الدفاع الامريكية بيع افران خاصة بصهر مادة التيتان للعراق. كانت قيمة ذلك العقد ٧,٥ مليون دولار. وقالت الشركة التجارية ذات رأس المال العراقي التي كانت تريد استيراد تلك الافران بأن الأمر يتعلق بطلبية من وزارة الصحة في بغداد. إذ أن تلك الأفران كانت ضرورية لصهر المعادن المخصصة لصناعة أجهزة ترميم للجنود الذين اصيبوا في إلحرب ضد ايران. فقدم مكتب مراقبة تحويلات التكنولوجيا التابع لوزارة الدفاع الامريكية مذكرة قال فيها ان تلك الافران يمكن استخدامها أيضاً في صناعة قطع للصواريخ وحتى للأسلحة النووية. وفي نهاية شهر يوليو (تموز) كانت السيدة ابريل غلاسبي، سفيرة الولايات المتحدة في بغداد، التي تحادثت طويلاً مع صدام حسين، تستعد للسفر الى لندن لامضاء عطلتها فيها. في تلك الأثناء طلب حسين كامل وزير التصنيع الحربي مقابلة معها. وألح عليها بأن تضغط على وزارة التجارة الامريكية لتسهيل بيع تلك الأفران للعراق وأطلعها على واقع الجنود الذين يجرّون اجسادهم جراً في شوارع بغداد. وأكدّ لها صهر صدام حسين ان تلبية هذا الطلب لبغداد هي مسألة انسانية. في الواقع، كان طلب افران التيتان هذه قد جرى بناءاً على نصيحة الخبراء السوفيات. إذ ان جهاز الاستخبارات السوفياتي، كا.جي.بي، اراد التزود بمثل هذه الأفران التي يمكنها ان تدخل في تشكيل الخلائط المستخدمة في الصواريخ. وكان جهاز مراقبة التراب الوطني الفرنسي قد أبطل عملية من هذا النمط خاصة بصاروخ أريان.

ان تكاثر عدد الصواريخ البالستيكية اثر عمليات تحويل التكنولوجيا غير الشرعية أو غير الواعية نحو الشرق الأوسط جعل من تلك المنطقة برميل بارود من الصعب السيطرة عليه. وأثار تقرير سري تمّ اعداده عام ١٩٨٨ بطلب من البيت الأبيض وساهم فيه عدد من الخبراء، من بينهم هنري كسنجر، فرضية قيام هجوم صاروخي ضد الولايات المتحدة الامريكية من قبل دول في العالم الثالث، وخاصة من

منطقة الخليج العربي.

وأكّد وليام وبستر، رئيس جهاز الاستخبارات المركزية الامريكية، امام الكونغرس الامريكي في شهر فبراير (شباط) ١٩٨٩، ان «وجود الاسلحة البالستيكية والكيميائية والبيولوجية وتخزينها في بلدان العالم الثالث يتزايد بشكل ينذر بالخطر؛ هذا بالرغم من الجهود المبذولة للحد منها».

لقد كشف القاضي وبستر أمام الكونغرس، ان المحاولات العديدة لوضع حد لتكاثر ذلك النوع من الاسلحة لم تمنع واقع أن عشرين بلداً من البلدان غير المنحازة تمتلك تلك الأسلحة. وقال: «لقد صُممت الاسلحة الكيميياوية في الأصل كي تكون وسيلة غير مكلفة لتعديل ميزان القوى لصالح الدولة التي تمتلك تلك الأسلحة في مواجهة دولة أقوى». ثم اضاف «ان استخدام هذا النمط من الأسلحة اثناء الحرب بين ايران والعراق يشكل سابقة خطيرة» سيكون لها نتائجها على استخدامها مستقبلاً. واننا نقدم فيما يلي عرضاً كاملاً لما قاله امام الكونغرس:

«ان تكاثر الاسلحة الكيماوية هو اسوأ جانب في الميل المتزايد الذي تبديه بلدان العالم الثالث نحو زيادة قدراتها العسكرية. ونعتقد انه يوجد اليوم عشرين بلداً على الأقل تمتلك اسلحة كيماوية. كما نعتقد ان هذا الميل سيتدعّم بالرغم من الجهود الحالية لوقف تكاثر تلك الأسلحة. والسؤال الذي نطرحه الآن هو: ما هي الدروس التي تمّ استنباطها من الحرب بين العراق وايران، هذه الحرب التي تشكل أول مجابهة يتم فيها استخدام شبه مستمر للأسلحة الكيماوية منذ الحرب العالمية الأولى؟ فبعد الحرب العالمية الأولى تمّ تحريم استخدامها بتوقيع بروتوكول جنيف في عام ١٩٢٥ الذي وافق عليه ١٤٩ بلداً. وطيلة الحرب العالمية الثانية امتنع المعسكران عن استخدام السلاح الكيماوي حتى في أكثر المعارك ضراوة وأكثرها يأساً. ونستون تشرشل اشار الى ذلك السلاح بقوله: «السم الزعاف». وجاءت الحرب الايرانية - العراقية لتضع حداً لرفض استخدامه ولتشكل سابقة خطيرة بالنسبة للحروب القادمة.

ان أجهزة الاستخبارات تمتلك البرهان على أن العراق استخدمَ الاسلحة الكيماوية ضد ايران وضد الأكراد العراقيين أيضاً. كذلك استخدمت ايران اسلحة كيماوية ضد العراق. ويرى البعض ان السلاح الكيميائي يشكل الرد الذي يمتلكه بلد فقير ضد بلد غني يمتلك السلاح النووي. ان رئيسنا تحدث عن هذه المشكلة وانا متأكد أنكم قرأتم حديثاً عدداً كبيراً من المقالات حول استخدام الاسلحة الكيماوية وآثارها.

وهناك اليوم العديد من البلدان التي تحاول انتاج غاز الخردل، وهو سلاح رهيب أستخدم للمرة الأولى اثناء الحرب العالمية الأولى. انه عنصر كيميائي مرغوب لعدة أسباب منها سهولة صنعه وامكانية تخزينه لفترة طويلة في مستودعات أو على جبهة القتال ولفعاليته الكبيرة في اخراج اولئك الذين يتعرضون له من ساحة المعركة. وهناك بلدان أخرى في طريقها الى انتاج عناصر كيميائية تثير الأعصاب. وتستطيع هذه العناصر، بالرغم من صعوبة انتاجها، قتل الانسان خلال عدة دقائق عبر هجومها على الدماغ وعلى الجهاز العصبي. وتلجأ بعض الأمم الى استخدام منتوجات كيميائية شائعة مثل السيانيد والفوسجين، حيث يمنع الأول نقل الاكسجين بواسطة الدم بينما يخرب الثاني الرئتين وهو مستخدم بدرجة كبيرة في انتاج المواد البلاستيكية. ان تكاثر الأسلحة البالستيكية والبيولوجية يتعادل مع تكاثر الاسلحة الكيميائية. ونحن ندرك اليوم أن الحاجز الاخلاقي الذي حدّ حتى الآن من التهديد البيولوجي قد تمّ تجاوزه الآن. إذ أن عشرة بلدان هي الآن بصدد انتاج اسلحة بيولوجية وباعداد اسلحة جديدة. كما ان عناصر الحرب البيولوجية - بما في ذلك أنواع السموم - هي أكثر فتكاً من أكثر عناصر الحرب الكيميائية وتسمح بتغطية منطقة أوسع من كل ما يمكن ان تصل اليه أية منظومة تسليح أخرى. ويمكن استخدام اجهزة انتاج الأسلحة البيولوجية لغايات أخرى. بل ان الكلفة القليلة لانتاج المواد المركبة للاسلحة الكيماوية أدَّت الى امكانية الاستغناء عن تخزينها، خاصة أن تكنولوجية انتاجها أصبحت شائعة ومتوفرة في كل مكان. وليس هناك حاجة لامتلاك تجهيزات خاصة ومعقَّدة للحصول عليها. بل تستطيع أية أمة تمتلك صناعة أدوية متواضعة انتاج عناصر بيولوجية إذا قررت ذلك.

«وفي عام ٢٠٠٠ سيمتلك خمسة عشر بلداً مصنَّعاً على الأقل صواريخ بالستيكية من انتاجه. إذ أن هذه الصواريخ ستعطي لمالكيها مكانة عسكرية وسياسية هامة. ويوجد عدد من البلدان الحاوية لها في منطقة الشرق الأوسط. ويعتمد برنامج تطوير الصواريخ في بلدان العالم الثالث على مساعدة التكنولوجيا الأجنبية. لكن أجزاء كبيرة من هذه التكنولوجيا القيِّمة يمكن أن تستخدم لأغراض أخرى ويمكن تحويلها عن غاياتها بسهولة. ولا تتردد بلدان العالم الثالث في تبادل المعلومات فيما بينها في حقل التكنولوجيا كما يوجد بينها تعاون كبير فيما يخص مصادر المعرفة التقنية. ويتوجب على أجهزة الاستخبارات ان تكون على أقصى

درجات الانتباه والحذر إذ أن بلدان العالم الثالث المالكة للصواريخ البالستيكية لن تتوقف عن محاولات تزويد هذه الصواريخ برؤوس بيولوجية أو كيميائية. اننا سوف نقدم بشكل منتظم للمسؤولين السياسيين الأمريكيين معلومات دقيقة عن إمكانية تطوير بعض البلدان للصواريخ البالستيكية وللأسلحة الكيماوية والبيولوجية أو إمكانية انتاجها.

«ودعوني الآن ألفت انتباهكم الى منطقة الشرق الأوسط المضطربة، والمركز الحالي لتكاثر الأسلحة الكيميائية.

«ان تكاثر تلك الاسلحة يلحق الأذى بمحاولات السلام الرامية الى الاستقرار في تلك المنطقة. انني أفكر بالعراق وسوريا وايران، أي البلدان التي امتلكت أو تسعى لامتلاك الاسلحة الكيميائية. لقد بدأ العراق بانتاج مواد الحرب الكيميائية منذ مطلع سني الثمانينات بينما لم تبدأ سوريا وايران انتاجهما من المواد والذخائر الكيماوية إلا منذ فترة قصيرة. كما ان العراق وسوريا وايران هي بصدد تخزين مواد كيماوية متنوعة يمكن استخدامها في مهمات مختلفة - اثناء المعركة. مدة صلاحية هذا النمط من التخزين تتراوح بين عشر سنوات وعشرين سنة. كما تقوم هذه البلدان ذاتها بانتاج وتكديس وسائل نشر المواد الكيماوية مثل القنابل والمدفعية والقاذفات، وفي بعض الحالات، الصواريخ التي تحتوي على مزيج من العناصر الكيميائية.

«هناك بعض النقاط المشتركة بين برامج التسلح الكيميائي للعراق وسوريا وليبيا. هذه النقاط هي:

«- حظيت جميع هذه البرامج بأولوية اهتمامات الحكومات المعنية وبقيت سرية للغاية.

«- تتمتع كل مركبّات الانتاج الكيميائي بأقصى درجة من الأمن إذ تمّ استخدام جميع الوسائل لتمويهها. وفي حالة عدم نجاح عمليات التمويه المتكررة يُصار الى دفع الآخرين للاعتقاد على انها منشآت صناعية عادية ومشروعة.

«- كانت مساعدة مصادرها الأجنبية حاسمة في تطورها. إذ مثّلت هذه المساعدة - التي قدمتها مؤسسات كانت واعية على الأغلب بنوايا زبائنها الشرق أوسطيين - العنصر الأساسي الذي سمح لتلك الأمم بانتاج الاسلحة الكيماوية في غضون عدة سنوات فقط. وربما ان هذه الأمم كانت عاجزة عن انتاج الاسلحة المذكورة في حالة غياب تلك المساعدة.

« وتتمثل انماط المساعدة التي قدَّمها الأجانب في:
- المعارف التقنية والعملية.
- بناء المنشآت الانتاجية.
- التزويد بالمكونات الكيميائية.
- اسهامات فرق الانتاج.
- المساهمة الجزئية بالذخائر.
- تكوين العنصر البشري.

« يسعدني الآن أن أقدم لكم بعض التفاصيل حول البرامج الحربية لكل من العراق وسوريا وايران وليبيا.

« العراق:

« ارغمت الحرب مع ايران العراق على تسريع برنامج تطوير قدراته في مجال الاسلحة الكيماوية. ويقع أهم مركبات هذا النمط من السلاح بالقرب من سامرَّاء، على بعد ٧٠ كيلومتر شمال غرب بغداد. كما ان عدداً آخر من المنشآت قد انتجت عدة أطنان من المواد الكيماوية. وتحمَّلت عدة مؤسسات في أوروبا الغربية، منذ بداية البرنامج، مسؤولية التزويد بالأعتدة والمنتوجات الكيميائية والخبرة التقنية الضرورية للشروع في انجاز العملية. بل بقي بعض الغربيين في سامرَّاء بعد البدء في تشغيل مصنع الكيماويات. لكن لم تعد هذه المساعدة الأجنبية ضرورية بعد الخبرة التي اكتسبها العراق على مدى سنوات في مجال انتاج الاسلحة الكيماوية. ان نظام بغداد ينتج غاز الخردل وغازات أخرى مثل التابون والسارين في سامرَّاء. وقد تمَّ تعديل عدة نماذج من الأسلحة كي تستطيع استخدام تلك المواد مثل القنابل ومقذوفات الصواريخ وقنابل المدفعية. لقد استخدام العراق عسكرياً المواد الكيميائية للمرَّة الأولى عام ١٩٨٣ وعام ١٩٨٤ ضد القوات الايرانية. ثم كرر استخدامها مرَّات عديدة طيلة فترة الحرب. وبعد وقف اطلاق النار مع ايران استخدم العراق غازات قاتلة وغير قاتلة ضد الأكراد المدنيين (بتاريخ ١٧ مارس (اذار) ١٩٨٧، قصف مدينة حلبجا مما أدى الى مقتل ٥٠٠٠ شخص).

كما تابع العراق انتاج الاسلحة الكيماوية وتخزينها بالرغم من وقف اطلاق النار

مع ايران؛ مما أدى الى تقوية قدراته العسكرية الكيميائية والى الذهاب خطوات أبعد في جعل برنامج تسلحه مستقلاً تماماً عن أية مساعدة أجنبية.

« سوريا :

بدأت سوريا انتاج اسلحتها الكيماوية في منتصف سني الثمانينات وهي تمتلك الآن منشآت لانتاج المواد الكيماوية. وتوجد بحوزتها اسلحة تحتوي عبوتها القاتلة على مواد كيماوية تهاجم الأعصاب. ان دمشق تموّه برنامجها - الذي شارف على الانتهاء - ويبدو انها تريد أن تزيد قدراتها في هذا المجال، مثلها في ذلك مثل جيرانها في الشرق الأوسط. اما المساعدة الأجنبية فقد كانت أهميتها حاسمة في وصول سوريا الى امكانية تطوير صناعة السلاح الكيماوي. إذ دون هذه المساعدة لعلّها لم تكن قادرة على امتلاك السلاح الكيماوي.

« ايران :

قررت ايران في أواسط سني الثمانينات - بعد تعرضها لهجومات كيماوية عراقية عديدة - أن تنتج المواد الكيماوية وتستخدمها في الرد ضد القوات العراقية. وتقع المنشآت الايرانية لانتاج السلاح الكيماوي بالقرب من طهران. ان ايران تنتج غاز الخردل. وقد دفعت الهجمات العراقية المتكررة طهران الى البحث عن المساعدة الأجنبية المطلوبة للشروع في برنامجها الخاص لانتاج السلاح الكيماوي. استجابت لهذا الطلب الايراني شركات غربية وآسيوية. وتتابع ايران برامجها للحرب الكيماوية، مثلها في ذلك مثل العراق.

« ليبيا :

ان رغبة ليبيا في التزود بصناعة انتاج الاسلحة الكيماوية هي على وشك ان تتحقق بشكل كامل. إذ تمّ بناء مركب كبير لهذا الهدف في مكان يبعد حوالي ٨٠ كيلومتراً جنوب غرب طرابلس، بالقرب من منطقة الرابطة. وعندما يتم استكمال

هذا المركب ويبدأ العمل فإنه سيكون أحد أهم وحدات انتاج الاسلحة الكيماوية في العالم الثالث. لكن انتاج العراق سيفوق دائماً انتاج ليبيا بسبب العدد المرتفع لوحدات الانتاج العراقية. ان المصنع الليبي للمواد الكيماوية سوف يبدأ قريباً انتاج غاز الخردل والمواد المؤثرة على الجهاز العصبي بكميات كبيرة تقدَّر بعشرات الأطنان في اليوم (سيتم انتاج ٣٨٠٠٠ طن من غاز الخردل يومياً). لكن المصنع عانى من مشكلة تسرب كميات كبيرة من الغازات الكيميائية السامة ويبدو ان هذا النوع من المشاكل سيتكرر.

وهناك مصنع آخر متاخم مزوَّد بتجهيزات عالية الدقة يصنع المكوِّنات الضرورية لاعداد القنابل وقطع المدفعية. وتقوم مصانع أخرى بالتخزين وبتركيب العبوة الكيماوية.

كان يستحيل على ليبيا، إلا بمعجزة، أن تؤمّن التكنولوجيا الضرورية لبناء مثل ذلك المركب دون اللجوء الى مساعدة الشركات الأجنبية واليد العاملة المؤهلة من عدة بلدان في أوروبا وآسيا. كانت المساعدة المانية غربية بجزء كبير منها. كما ساهمت مؤسسات يابانية متخصصة في البناء المعدني في انجاز ذلك المركب. وتتعلق امكانية متابعة ليبيا، أو عدم متابعتها، لانتاج كميات كبيرة من المواد الكيماوية باستمرار المساعدة الأجنبية. ان ليبيا قد تكون على المدى القريب أقل تبعية للخبرة التقنية الأجنبية، لكنها لا تزال حالياً رهينة الشركات التي تزودها بالعناصر الكيميائية الأساسية وبمختلف التجهيزات.

«اننا نواجه الآن مشكلة معرفة الدرجة التي وصل اليها تكاثر الأسلحة الكيميائية. لقد غدت هذه المشكلة أكثر صعوبة بسبب واقع ان أغلبية التجهيزات المستخدمة لانتاج المواد الكيماوية يمكن استخدامها بطريقة مشروعة أيضاً في انتاج المواد الكيماوية المخصصة للاستعمال الصناعي العادي أو لصناعة الأدوية أو لمقاومة الطفيليات والحشرات الضارَّة. إن أية أمة تمتلك صناعة كيميائية، مهما بلغت درجة تواضعها، تستطيع انتاج مواد الحرب الكيماوية. وكان القائد الليبي القذافي قد أعلن في خطاب عام ان مصنع الرابطة لا ينتجَ سوى الأدوية - أي أنه لا ينتج مواد الحرب الكيماوية - واقترح فتح ابوابه للقيام بتفتيش دولي عليه».

لقد توصلت عدة تقارير سرية لجهاز مكافحة التجسس في فرنسا، الى نفس النتائج؛ وكانت هذه التقارير قد أعدت خلال عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠. الأمر الذي

حثَّ فرانسوا ميتران الى طلب عقد مؤتمر لنزع السلاح في منطقة الشرق الأوسط قبل اندلاع أزمة الخليج.

لقد حاول العراق الحصول على تكنولوجيات جديدة دون خرق التشريعات التي تحد من تصدير المنتوجات الحساسة؛ واستخدم لتلك الغاية الأشخاص الذين كان يرسلهم للتدرب لدى المؤسسات الأوروبية. وقد أبدى الطلبة العراقيون في فرنسا اهتماماً خاصاً بالأجهزة المغناطيسية الكهربائية وبعلم القذائف وبالكيمياء الحيوية الجرثومية وبالفيزياء النووية. كما حاز نوع جديد من الوقود السائل كان موضوع الدراسة لاستخدامه في صاروخ اريان على اهتمام أولئك الطلبة. ونشرت صحيفة «كانارانشيني» الفرنسية في مقالين لها بتاريخ ٢٢ سبتمبر (ايلول) ١٩٩٠ و٢٠ فبراير (شباط) ١٩٩١، اخباراً مدهشة عن دراسات الضباط والطلبة العراقيين في فرنسا. كتبت الصحيفة تقول:

«عمل ضابطان عراقيان شابان لمدة عامين كباحثين في المختبر الفيزيائي - الكيميائي - التعديني لجامعة كلود برنارد في مدينة ليون. كانت «دراساتهما - أو فضولهما - تنصب على مرحلة معينة «من انتاج مادة المونوميتا ليدرازين»، وهذا هو الاسم الشائع لوقود سائل لا يزال قيد الدراسة ومكرّس للاستخدام في الصواريخ (خاصة صاروخ اريان - ٥). لقد فرضت السلطات الفرنسية على هذين الضابطين، الفلاحي حميد عبد الله وحسين علي حميد، الاقامة الجبرية في مسكنهما بعد غزو الكويت ثم تمَّ طردهما بتاريخ ١٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٩٠ برفقة ٢٧ آخرين من زملائهم الضباط والتقنيين وعملاء الاستخبارات.

«ان دخول هذين الكيميائيين الصغيرين الى مخابر البحث في ليون احتاج الى فترة اعداد طويلة. إذ تمَّت بشأنه اجتماعات ومراسلات كثيرة بين اناسٍ لهم شأنهم:

«- بتاريخ ١٣ مارس (آذار) ١٩٨٩، وقَّع الاستاذ، كوهين راداد على رسالة مرفقة بـ«مشروع دراسة» حول «الوقود السائل للصواريخ». كانت الرسالة موجهة الى ادارة البحوث والدراسات التقنية، التابعة للبعثة العامة للتسلح، التي كانت قد طالبت بالنص. قال الاستاذ: «ان الدراسة المقترحة شديدة الأهمية ويندرج موضوعها في رأس قائمة المشاكل الصناعية للتوليف الكيميائي في مجال الوقود».

«- بتاريخ ١٣ يونيو (حزيران)، وصل العقيد غيوميه الى مدينة ليون. وهو أحد خبراء ادارة البحوث والدراسات التقنية من المجموعة ٧ (المتخصصة في ميادين

الكيمياء - الطاقة - الدفع)، ومن المفروض أنه يعرف آلية انطلاق الصواريخ. واجرى هذا العقيد محادثة طويلة مع الاستاذ كوهين راداد.

«- بعد اسبوع من تلك الزيارة، قدّمت مذكرة داخلية للمجموعة ٧ عرضاً لذلك اللقاء، جاء فيها: «لا يمكن اطلاع الطلبة المتدربين على أية وثيقة مصنّفة على أساس التداول المحدود» و«ليس هناك أي تفكير بالسماح بتحويل التكنولوجيات».

«- بتاريخ ١٩ يونيو (حزيران)، التمس الاستاذ كوهين راداد الموافقة الرسمية لاستقبال الضابطين العراقيين. فاعطى رئيس المجموعة ٧، مهندس التسليح، دي نيقولا، الضوء الأخضر لقبولهما بتاريخ ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٨٩.

«- بعد عام فتر الغرام الفرنسي - العراقي، وبتاريخ ١٣ اغسطس (آب) منعت ادارة البحوث والدراسات التقنية برسالة خطية المتدربين العراقيين من دخول المختبر».

لقد طلب صدام حسين مساعدة المهندسين الأجانب، بانتظار أن يتم كيميائيوه وبيولوجيوه وعلماء ذرته وكوادره تكوينهم.

الفصل السابع

مصانع الموت

بعد ثمانية أشهر من حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، تمّت دعوة خمسة عشر ضابطاً شاباً من الجيش العراقي الى الاتحاد السوفياتي سراً لزيارة المنشآت العسكرية ولاتباع دروس في أكاديميات الجيش الأحمر. كان صدام حسين، الضابط الصغير آنذاك، أحد اولئك الضباط الشباب. لقد قام بزيارة مركب شيطاني كان الاتحاد السوفياتي يصنّع فيه الجزء الأكبر من اسلحته الكيماوية. وخرج الرئيس العراقي المقبل شديد التأثر من تلك الزيارة. لم ينسَ أبداً ما أسرَّ به السوفيات اليه عندما أكّدوا أن امتلاك الترسانة الكيميائية يشكل قوة ردع وقوة نفسية أساسية بالنسبة للبلدان التي لا تمتلك القدرة النووية ولا تعرف تكنولوجياتها.

كانت موسكو قد نظّمت تلك الزيارة لأن العراقيين كانوا يضغطون عليها كي تسلمهم الاسرار النووية. إذ أن موسكو التي رفضت أن تبيع الأسرار الذرية للعراق سمحت له أن يبني ترسانته الكيميائية، كنوع من عملية المقايضة. وقدم جيش المانيا الشرقية عدداً من المهندسين لبغداد.

ويقول تقرير غربي ان العراق أنفق ما قيمته ٢,٥ مليار دولار في الحرب الكيماوية. وقامت بغداد لتحقيق ذلك بالاعتماد على شركات غربية بمعظمها، وخاصة الشركات الالمانية الغربية. وقد سلمت الشركات الصناعية في المانيا الغربية للعراق قسماً كبيراً من المصانع الكيميائية التي لا ينقطع الحديث عنها اليوم تحت غطاء انتاج الأسمدة الكيماوية. وتبين وثيقة حديثة العهد جرى تقديمها لحكومة بون ان خمسين مؤسسة المانية ربما قد ساهمت في بناء تلك القوة الكيميائية العراقية. كما تمّ في الأيام الأخيرة كشف قضية جديدة في المانيا عندما ألقي القبض على شبكة كانت تستعد لبيع العراق بطريقة غير مشروعة أجهزة تسمح بانتاج الغازات. لقد

أعتقل عدة أشخاص في هانوفر وهامبورغ ودرمستات؛ من بينهم أحد عملاء جهاز مكافحة التجسس الألماني الغربي، وعضو في مصلحة صادرات مجموعة بروساغ الصناعية ومستخدمون في مؤسستين صناعيتين. وهناك شخص عراقي مختص بهذا النوع من العمليات، كانت مصالح الاستخبارات الغربية قد قامت بتحقيقات عديدة حوله. اسم هذا الشخص هو هشام البربوطي، من مواليد بغداد عام ١٩٢٨، وكان قد أجرى دراساته في سويسرة وبرلين. أقام بعدها في لبنان قبل أن يؤسس مكتباً للدراسات الهندسية في ابوظبي. وفي شهر أغسطس (آب) ١٩٧٨ أقام في لندن، وبدأ أعماله مع ليبيا في شهر مارس (آذار) ١٩٨٤ واهتم بالنوويات بناءً على طلبهم في عام ١٩٨٦.

وفي الوقت نفسه كان يستخدم شبكاته لمصلحة بلاده. إذ كان مديراً لشركتين شكليتين في فرانكفورت، ولهما فروعهما في لندن. ظهر اسمه اثناء التحقيقات حول قيام أحد مصانع المانيا الغربية بتسليم مواد كيماوية الى دولة عربية لاستخدامها في مصنع للاسلحة الكيماوية. أحد شركاء البربوطي يدعى حسين موسى، عراقي الجنسية، قام بدور هام في تلك العملية. وربما كان أحد أولئك الذين قاموا بنقل التكنولوجيات الحساسة الى بغداد في الأشهر الأخيرة.

وتحوم الشكوك أيضاً حول شركة أعمال هندسية المانية غربية أخرى منذ عدة أسابيع، بأنها قامت بتصدير أجهزة تكنولوجية الى بغداد مخصصة لصناعة صواريخ مؤهلة لحمل مواد كيماوية مستقبلاً. ويجري اتهام هذه الشركة بطمس التنويهات الادارية التي تنص على منع تصدير الاعتدة التي يمكن استخدامها في صنع آلات الدفع. وكان قد سبق لهذه الشركة ان سلمت العراق قطعاً معدنية مقعَّرة بدون لحام مخصصة عادة لاطارات السيارات؛ بينما طلبها العراق في الواقع لاستخدامها في الصواريخ. ان هذه القضية تأتي في وقت تخضع فيه شركة المانية كبرى لاستقصاءات جمركية لنفس الأسباب. كما تخضع لنفس العملية فروعها في سالزبورغ والنمسا وسويسرة وايطاليا واللكسمبورغ وموناكو. وهناك بالاجمال ٥٩ شركة المانية تحوم حولها نفس الشكوك المتمثلة في تزويد العراق حديثاً بمنشآت مخصصة رسمياً لانتاج مبيدات الحشرات والطفيليات في الوقت الذي أستخدمت فيه لانتاج الاسلحة الكيماوية في مصنع سلمان باك الجوفي في الضاحية الجنوبية ـ الشرقية لبغداد. وربما اشترك في تلك العملية التجارية باحثون المانيون.

لقد بدأ المشروع عام ١٩٨٢ تحت غطاء مؤسسة لانتاج مبيدات الحشرات. لم يكن المهندسون الذين ساهموا في الأعمال يجهلون حقيقة الأمر. وقد قام الصحفي الالماني، اغمونت كوش، باجراء فيلم وثائقي لحساب المحطة التلفزيونية ZDF، اعاد فيه تسلسل الأحداث. وجاء في تحقيق كتبه: «سلمت شركة ريما ـ لابورتشنك حجرتين للغاز وقامت بتركيبهما عام ١٩٨٤. وقد تمّ تعديل حجم هاتين الحجرتين، البالغ سمك زجاجهما ٨ ملم، المخصصتين لتجريب آثار الغازات على الحيوانات، بحيث تكونان أكبر حجماً مما هي العادة بحيث تستطيع كل واحدة منهما احتواء ستة كلاب، وكانتا مزودتين بكلاَّبات متحركة لتعليق تلك الحيوانات، تنفيذاً لمطالب العراقيين. وقامت شركة ريما ـ لابورتشنك عند توقيع العقد بتقديم هدية للعراق. كانت تلك الهدية عبارة عن ثلاثة كلاب».

ويؤكد استقصاء قام به الصحافيان الالمانيان غوردن بوت ورودلف لامبرشت، ان شركة تيسن ومؤسسات أخرى ساهمت في بناء مصنع سلمان باك. وتؤكد مجلة شتيرن قولها:

«كانت منطقة سلمان باك أحد الأماكن المفضلة للنزهة بالنسبة لسكان بغداد. كانت الأسر البغدادية تتمتع بافتراش المروج قريباً من غابة صنوبر على ضفاف دجلة. وتجوِّل نواظرها بذلك النصب التذكاري الكبير المصنوع من القرميد بشكل قوس لا مثيل له في العالم؛ ومزين بلوحة ضخمة تمثل معركة القادسية التي انتصر العرب المسلمون فيها على الفرس عام ٦٨٧.

«اليوم عادت سلمان باك مسرحاً للحرب من جديد. انها تشكل أحد الأهداف الرئيسية للطائرات القاذفة الامريكية. ففي ضاحيتها الجنوبية تقوم منشآت مشروع ديالا. ولم يكتف صدام حسين بتطوير الغازات السامة في ذلك المكان الذي لا تتجاوز مساحته ستة كيلومترات مربعة؛ تلك الغازات التي قتلت الآلاف من الايرانيين والأكراد زمن الحرب ضد ايران، والتي تهدد اليوم اسرائيل والقوات المتحالفة. بل انه انتج بواسطة مشروع ديالا ـ كما يؤكد خبراء الاستخبارات المركزية الامريكية والموساد ـ عناصر مستخدمة في الحرب الجرثومية مثل ڤيروسات الكوليرا والحمى التيفية والجمرة الخبيثة.

في عامي ١٩٨٠ و١٩٨١ وقعت شركة تيسن الالمانية عدة عقود مع العراق للقيام بمجموعة انشاءات من بينها مختبر «ديالا» الكيميائي. واستعانت لتنفيذ تلك العقود

بثماني شركات المانية غربية أخرى. قالت الشركة انها اعتقدت آنذاك أن الأمر يتعلق بمشروع جامعي بينما يؤكد الالمانيون الذي عملوا بالمشروع في العراق بأنه كان واضحاً منذ البداية أن الأمر يتعلق بمشروع عسكري. وذلك بسبب اجراءات الحراسة المشددة التي كانت مضروبة حوله.

ان الشركات التي زوّدت العراق بالأجهزة المتنوعة الضرورية لانتاج الاسلحة الكيماوية منتشرة في عموم بلدان أوروبا الغربية، وخاصة في المانيا. وقد ألحّت بمجملها انها كانت تجهل استخدام تلك الأجهزة في انتاج الأسلحة الكيماوية.

وكان العراق قد بدأ بالعمل أيضاً على انتاج الاسلحة البيولوجية. ويرى لي اسبن، رئيس لجنة القوات المسلحة في الكونغرس الامريكي، كما جاء في حديث له بتاريخ ٢٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٩٠، ان العراق قد نجح في تصميم بداية التسليح البيولوجي وانه يمتلك مخزوناً هاماً من الأسلحة البيولوجية. وقد اعتمد في أقواله هذه على تقارير سرية لأجهزة الاستخبارات الغربية، وليس الامريكية فحسب. وقال وليام وبستر، رئيس جهاز الاستخبارات المركزية الامريكية أن انتاج العراق من تلك الاسلحة يمكن أن يصبح مهدداً في نهاية عام ١٩٩١. كما تقول دراسة للجنة القوات المسلحة في الكونغرس الامريكي، أنه يمكن استخدام هذه الاسلحة بواسطة الصواريخ القصيرة المدى أو القنابل أو صواريخ سكود. ويتم العمل على انجاز برنامج خاص في احد ضواحي بغداد وضعه فريق من المهندسين الالمانيين الشرقيين العاملين في العراق. لكن هذا لم يمنع صدام حسين من التصريح، في شهر ابريل (نيسان) ١٩٩٠، اثناء مقابلة له مع وفد من النواب الامريكيين برئاسة بوب دول قوله: «اننا لم نمتلك بعد الأسلحة البيولوجية لكننا بالمقابل اتقنا تماماً صناعة الاسلحة الكيماوية».

تقول أجهزة الاستخبارات الغربية أن المصنع الرئيسي للاسلحة البيولوجية يوجد أيضاً في سلمان باك جنوب - شرق بغداد. ويتم العمل فيه على انتاج ميكروب يسبب مرض الجمرة الخبيثة. ويقوم كذلك فريق آخر من الباحثين العراقيين، الذين امضوا عدة أشهر في مدينة العلوم بالاتحاد السوفياتي، بالبحث عن سموم جرثومية أخرى. واعترفت شركة سويسرية، في أوج حرب الخليج، انها سلمت بغداد منشأة للخمائر تستطيع ان تخدم نظرياً في انتاج الاسلحة الجرثومية. وأكّدت هذه الشركة، التي تحمل اسم شيماب وهي فرع من المجموعة السويدية الفا - ڤادال، أن المجلس الفدرالي السويسري قد منعها عام ١٩٨٩ من تسليم منشأة تخمير كهذه. لقد

بررت الحكومة السويسرية قرارها بالقول ان رجال العلم العراقيين اخصائيون بالأمراض الخطيرة وليسوا اخصائيين بالتغذية. في الواقع، كان المجلس الفدرالي قد أخطر بتقرير أعدته الأجهزة السرية الامريكية.

من جهة أخرى، قال النائب ويلفريد بينر، في تقرير الى اللجنة البرلمانية للرقابة على الأجهزة السرية، بتاريخ ١٨ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩، ان باحثين المانيين غربيين ساهموا في مشروع لصناعة الأسلحة الجرثومية في العراق. واضاف النائب قوله ان كوبا والمانيا الديمقراطية متورطتان أيضاً في تلك العملية. واعترف مركز مراقبة الأمراض المعدية في اطلنطا أنه أرسل عام ١٩٨٥، عن طريق الخطأ، ثلاثة صناديق من الڤيروسات للعراق. وكان العراق قد طلب رسمياً تراخيص تصدير لعناصر بيولوجية بمبلغ ٧٠٠ مليون دولار. كان الغرض المعلن رسمياً لهذا الطلب هو انتاج اللقاحات، لكن الخبراء قالوا انه يمكن معالجة هذه العناصر وتحويلها الى جراثيم مرضية. وكان مهندسو مركز سلمان باك قادرين تماماً على القيام بمثل تلك المعالجات. كما تمّ انشاء وحدات أخرى لانتاج المواد الجرثومية تحت غطاء معامل انتاج الأدوية ومعامل انتاج مبيدات الحشرات؛ وذلك بالتواطؤ مع معهد البيوكيمياء في درسدن أو مع مراكز البحث في هنغاريا. واشتغل مهندسون بلغاريون مع باحثين عراقيين على انتاج مادة سمية مخيفة جداً يتم استخراجها من بذور الخروع. هذه المادة هي التي تمّ استخدامها بالتحديد عندما اغتيل المعارض البلغاري جورجي ماركوف في لندن عام ١٩٧٨ بواسطة طعنة صغيرة من مظلة مسمومة.

وفي ٢٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩ أنهى السناتور الامريكي الجمهوري، جون ماك كن تقريراً أكَّد فيه أن العراق يحضر حربه الجرثومية بالاعتماد على ثلاثة عناصر مرضية هي المكورات العنقودية والحميَّات الراشحة ومسببات التهابات الدماغ. وتدل التحقيقات التي قامت بها الأجهزة السرية ان العراقيين كانوا في طريقهم للسيطرة على انتاج الحمَّى الراشحة التي يعملون عليها بالتحديد والمسماة «تيلارامين» نسبة الى المقاطعة الامريكية التي ظهرت بها لأول مرَّة، والتي تسبب ارتفاعاً كبيراً في الحرارة يكون مميتاً في ثلث الحالات. وقد سيطروا عليها بصورة ناشرات رذاذ يمكن القاؤها من الطائرات على المنطقة المطلوب «تنظيفها».

في الفترة نفسها اعترفت شركة بلاتو - كاهن، المتهمة بمساعدة العراق باجراء ابحاث على الأسلحة البيولوجية، وبانها سلمت بغداد سموماً من الفطريات. واشار

مالك الشركة، جوزيف كاهن، انه حصل على الأذونات الضرورية من ادارة الجمارك، كما ان عملية التسليم قد تمت مع ضمان ان المواد المسلمة سيتم استخدامها حصراً في أعمال التحليل وفي المخابر.

من جهة أخرى دلَّ ملفٌ عُثر عليه في ارشيف الشرطة السرية في المانيا الديمقراطية ـ سابقاً ـ على أن الجيش الوطني الشعبي الألماني بنى في العراق حقلاً لتجريب الأسلحة الكيماوية والجرثومية... والنووية.

***

السلاح النووي العراقي: الملفات السرية.

بتاريخ ٢٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١، أي بعد عدة أيام من اندلاع الحرب، ارسل الجنرال شوارزكوف، القائد الأعلى لقوات التحالف ضد العراق، البرقية السرية التالية الى واشنطن: «نؤكد ان القلب النووي للعراق قد توقف». إذ أن عمليات القصف المكثفة للحلفاء في اليومين الأخيرين قد أوقعت في المفاعلات النووية العراقية خسائر لن يتم اصلاحها قبل سنوات. وكانت الأجهزة السرية الغربية وجهاز الموساد تحاول منذ أشهر معرفة التقدم الذي أحرزه العراق في ميدان السلاح النووي. ودلَّت تقديرات الأجهزة الفرنسية والبريطانية والامريكية على أن العراق يمكن أن يمتلك السلاح النووي العملياتي في عام ١٩٩٥ بينما قدَّرت الاستخبارات الاسرائيلية انه سيمتلكه في عام ١٩٩٢. وكانت الأجهزة السرية العراقية قد نسجت شبكة حقيقية مؤلفة من عشرات الشركات الشكلية في أوروبا والعالم يديرها مسؤولون عن البرنامج النووي العراقي لا يعرفون بعضهم البعض. إذ أن عدداً ضئيلاً من رجال العلم العراقيين الذين ينتمون الى حزب البعث يعرفون في بغداد أسرار القنبلة الذرية العراقية المقبلة.

في مطلع عام ١٩٩٠ تدفقت على العواصم الغربية المعلومات القائلة بأن الأجهزة السرية العراقية تحاول استخدام عدد من المهندسين بواسطة مبالغ مالية هامة، وبأنها قامت باتصالات مع مهندسين هنود وباكستانيين. كما اتصلت بغداد مع الصين. وكان العراق، قبل حرب الخليج، يحاول الحصول على المكونات التكنولوجية والنوابذ المستخدمة في اغناء اليورانيوم. في الواقع، كان الباحثون العراقيون يستخدمون في

بحوثهم النوابذ عالية المستوى بالاضافة الى البلوتونيوم. لذلك جهد عملاء بغداد من أجل التزود ببعض الأجهزة اللازمة للنوابذ وكذلك للحصول على مقاييس حرارة تعمل بالأشعة فوق البنفسجية للمفاعل النووي. ان ميزات عملية اغناء اليورانيوم عن طريق القوة النابذة هي ميزات حقيقية بالنسبة لبغداد؛ وتتمثل في الاستهلاك الضعيف للطاقة وبالمرونة الكبيرة للمنشآت التي تنتج حسب الحاجة المطلوبة. لكن هناك بالتأكيد بعض المسالب التقنية؛ إذ يقول العلماء أنه يلزم عدة آلاف من النوابذ من أجل الوصول الى عملية إغناء اليورانيوم المطلوبة.

لهذا السبب ارادت بغداد الحصول من أوروبا على أدوات الكترونية وكهربائية ـ مغناطيسية. من جهة أخرى، حاول العراق أن يحصل من الولايات المتحدة ومن بريطانيا والمانيا الاتحادية على أجهزة عاكسة للتوتر العالي. وكانت الأجهزة السرية العراقية قد شكلت شبكة في الولايات المتحدة وبريطانيا من أجل شراء أجهزة «كريتوت»، وهي اجهزة لاعطاء الشرارة التي تحدث الانفجار النووي. ان مصالح الجمارك البريطاني وضعت يدها في مطار لندن على شبكة من خمسة أشخاص كانوا يحاولون نقل صواعق تفجير نووي من صنع امريكي الى بغداد. كما اشار تقرير آخر الى أن عملاء عراقيين اقاموا في الارجنتين والشيلي بغية التزود بأجهزة قياس الذبذبات من أجل معرفة الآثار لتي تحدثها الانفجارات النووية. كان المفروض ان تبقى هذه الأعتدة برسم الانتظار الى أن يستطيع العراق الحصول على الأموال الكافية لتنفيذ آخر التفاصيل الضرورية لحيازة قنبلة نووية عملياتية.

ان الأجهزة السرية للحلفاء أبدت اهتمامها بانفجار كبير دمَّر مستودعاً للذخائر في العراق خلال شهر اغسطس (آب) ١٩٨٩. لم يكن الأمر يتعلق بانفجار نووي لكن الاهتزازات التي أحدثها الانفجار كانت قوية الى حد أنه تمَّ الاحساس بها على بعد مئات الكيلومترات. وقد استطاع صحفي بريطاني، تخفَّى تحت شخصية طبيب، ان يذهب الى المكان عينه ويكتشف الحقيقة. على أثر ذلك جرى توقيفه ثم اعدامه دون محاكمة، على الرغم من الاحتجاجات والشكاوى الغربية. وتعرف الأجهزة الغربية اليوم ان مستودع الذخيرة المعني كان، في الواقع، مكاناً لانتاج متفجرة اسمها (HMX) وتجريبها. هذه المادة المتفجرة هي التي قتلت عام ١٩٨٩ عرضاً عشرة من العلماء العراقيين والأجانب وخبراء في الذخائر. يعود ذلك الحادث في الواقع الى كون أن السيطرة على صاعق تلك المتفجرة يتطلب وجود قواطع الكترونية ذات

تحريض مغناطيسي منخفض ومكثفات ذات ضغط عالٍ؛ الشيء الذي لا يمتلكه العراق الآن. ان هذا المركز عاد، بعد اصلاحات سريعة، الى العمل وأصبح قادراً من جديد على انتاج المتفجرات من طراز (HMX) ومتفجرات أخرى من طراز RDX، لكن دون امتلاك تلك الصواعق المتقدمة التي تعمل بجزء من الألف من الثانية. ان متفجرتا XMY وRDX تُستخدمان عامة في العملية الاشعاعية وفي تفجير اليورانيوم ٢٣٥ الذي يؤدي الى الانفجار النووي.

ان الأجهزة العراقية تلقت، منذ عدة أشهر، الأوامر بشراء الصواعق والمكثفات بصورة غير شرعية. لكن الجهاز البريطاني لمكافحة التجسس (M١٥) نجح في استخدام عدة مخبرين له في شركة للاستيراد والتصدير تقع في حي سكني بغرب لندن. وكانت شركة عراقية قد وضعت يدها على هذه الشركة البريطانية منذ عام ١٩٨٧. وكان يديرها أحد مسؤولي البعثة العراقية المختصة بشؤون التسليح. الشركة العراقية هي شركة «العربي للتجارة». ولقد استطاعت هذه الشبكة أن تزود بغداد بطرق ملتوية بمقص الكتروني لأوراق الالمنيوم وكذلك باكسيد اليورانيوم.

في مطلع شهر أغسطس (آب)، قبل الغزو العراقي بيوم واحد، وضعت الجمارك الالمانية يدها في مطار فرانكفورت على صناديق كانت في طريقها الى بغداد. كانت تلك الصناديق تحتوي على ٢٦٠ وعاء صغير مسنن مصنوعة من فولاذ خاص. صنعت تلك الأوعية شركة «تيسن» السويسرية وهي قابلة لأن تكون بمثابة مصد لمحاور النوابذ المستخدمة في اغناء اليورانيوم. هذا وكانت بغداد قد طلبت قبل ثلاثة أشهر أجهزة لتنقية تلك المعادن.

هناك شركة شكلية أخرى، أسسها العراقيون، سمحت لبغداد بإيقاع عدد من الصناعيين الغربيين، وخاصة الالمانيين، في حبائلها. إذ تعرف الأجهزة السرية اليوم أن شركة المانية قد باعت بغداد في عام ١٩٨٨ افراناً تتحمل درجة عالية جداً من الحرارة مستخدمة عامة من أجل تنقية الشوائب الموجودة في المعادن. كما إن صناعياً المانياً آخر قد باع للعراق مخرطة تسمح بتصنيع قطع النوابذ أو مخاريط مداخل الصواريخ. كذلك حامت شكوك كبيرة بأن شركة المانية أخرى قامت بمساعدة العراق من أجل انتاج قنبلة ذرية. إذ أنها وقعّت عام ١٩٨٩ عقداً مع الشركة العراقية المسؤولة عن مشتريات التكنولوجيا النووية. ثم تمّ تكوين عشرين مهندساً عراقياً في المانيا الغربية. كما أن تلك الشركة المسماة «انتيراتوم» زوّدت

العراق أيضاً بآلات وأجهزة تستطيع استخدامها في ميدان النوويات. ان ضغوطات الأجهزة السرية الالمانية أوقفت تلك العمليات التجارية. وعبّر مسؤولو شركة «انتيراتوم» من جهتهم انهم قاموا بتوقيع عقود تخص مصنعاً لبناء الانابيب المخصصة للصناعة البتروكيميائية والدوائية في العراق.

من جهة أخرى، اعترفت البرازيل انها قدمت للعراق معلومات هامة حول الاستراتيجية النووية. واعلم الرئيس البرازيلي، فرناندو كولر، بتاريخ ٢٧ سبتمبر (ايلول) ١٩٩٠، الرئيس الامريكي جورج بوش، بأن بلاده قد ساعدت العراق بالفعل في مشاريعه النووية. كما أبدى أسفه لدخولها في علاقات سرية مع بغداد أدّت إلى بيع معلومات خاصة بالتكنولوجيا النووية. واعلم واشنطن أيضاً أنه سوف يقدم مشروع قانون يرمي الى منع اعضاء الحكومة السابقين من بيع الأسرار النووية للعراق بعد عودتهم الى الحياة الخاصة. وقد سمح العراق، باعتباره أحد الموقعين على معاهدة عدم التكاثر النووي منذ عام ١٩٦٩، بتفتيش عدد محدد من منشآته النووية. وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٠، أي اثناء أزمة الخليج، قامت الوكالة الدولية للطاقة الذرية بمراقبة المخزون العراقي من مادة اليورانيوم الغني. وأمضى المفتشان، السوفياتي والنيجيري، بدعوة من العراق أربعة أيام في منشأة بالقرب من بغداد للتحقق مما يجري في الميدان النووي. ويقول الناطق الرسمي باسم الوكالة الدولية للطاقة الذرية ان الخبيرين وجدا كمية الـ ١٢ كيلوغرام من اليورانيوم الغني التي تمّ سحبها من المفاعل يوليو (تموز) «أوزيراك» كاملة لا ينقص منها غرام واحد. مع ذلك تقول وزارة الخارجية الامريكية أن المعلومات المنشورة لا تخص سوى كمية اليورانيوم المشع التي وضعها العراق تحت مسؤولية الوكالة الدولية للطاقة النووية. هذا في الوقت الذي تعرف فيه أجهزة الاستخبارات ان العراق يمتلك كميات أخرى من تلك المادة لم يضعها تحت رقابة الوكالة الدولية للطاقة الذرية. ويدل تقرير سري لوزارة الدفاع الامريكية أن العراق يمتلك، فضلاً عن مفاعلات البحث الفرنسية والسوفياتية الموجودة في منطقة التويثه في ضواحي بغداد، منشآت أكثر سرية، خاصة في منطقة شمال العراق بالقرب من مدينتي اربيل والموصل. كما انشأ العراقيون في هذه المنطقة وحدة لاغناء اليورانيوم عن طريق القوة النابذة. ويستثمرون منجماً لليورانيوم في هضبة شياغارا الجبلية على الحدود التركية. وحاول المهندسون البرازيليون انشاء وحدة لانتاج استطاعة نبذ عالية المستوى في منطقة

ابو شاكر في جنوب بغداد . وتتحدث معلومات أخرى عن وجود وحدة في منطقة تقع غرب صحراء الربطة للبحث عن اليورانيوم في الفوسفات التي تحتوي عليه. وبأن تقنيين بلجيكيين قد شاركوا في عملية التنقيب تلك. بالمقابل أكدّ تقرير قدمه خبيرا وكالة الطاقة الدولية للطاقة الذرية لادارتهما بأن الخسائر التي سببتها الغارة الجوية الاسرائيلية على مفاعل تموز «أوزيراك» الذي باعته فرنسا للعراق لم يجر اصلاحها ولم يتم اتخاذ أية خطوة لاعادة المنشأة الى ما كانت عليه.

لقد قيل الكثير عن مفاعل تموز - ١. وقد أعاد ريمون بار رئيس وزراء فرنسا السابق اثارة النقاش من جديد بمناسبة برنامج تلفزيوني كان ضيفاً عليه. وحاول دحض اشكال النقد التي يحاول اصحابها توجيه الاتهامات لفرنسا بمساعدة العراق في ميدان التسلح النووي. وأكّد قوله: «لقد عملت شخصياً في الفترة الواقعة بين ١٩٧٦ و١٩٨١ على تمكين وكالة ڤيينا من اجراء أعمال التفتيش على مفاعل تموز - ١ «أوزيراك»». كما كرر جاك شيراك، الذي يتم التعرض له غالباً في هذه القضية، تأكيداته بأن فرنسا قد اتخذت جميع الاجراءات التي تجنبها أي نوع من المخاطر في عملية تسليم العراق مفاعل تموز. هذا ما يمكن استشفافه أيضاً من وثيقة سرية لوزارة الخارجية الفرنسية حول الاتفاق الفرنسي - العراقي الموقّع بتاريخ ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥. تؤكد الوثيقة على الضمانات النوعية التي أخذتها فرنسا على بغداد. غير أن هذه الضمانات المنصوص عليها في العقد لم تقنع الحكومة الاسرائيلية.

وهكذا قام الطيران الاسرائيلي في ٧ يونيو (حزيران) بقصف «مفاعل البحث النووي» العراقي تموز ودمّره جزئياً. لقد قُتل أحد المهندسين الفرنسيين في عملية القصف التي ادانتها فرنسا رسمياً. وقد ردَّ مناحيم بيغن، رئيس الوزراء الاسرائيلي، على سيل الادانات بالقول: «ان عمليات الادانة القائمة على الظلم هي مدانة أيضاً».

بكل الأحوال، لفتت هذه العملية الاسرائيلية الانتباه الى القنبلة العراقية القادمة.

ان تاريخ الذرة العراقية يشابه الى حد بعيد رواية حقيقية من روايات التجسس.

عندما كان الرئيس الامريكي جيمي كارتر يستعد لمغادرة البيت الأبيض في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٠، بعث لمناحيم بيغن، رئيس الوزراء الاسرائيلي، تقريراً سرياً عن اخطار الذرة العراقية. كان ذلك التقرير يشير الى رغبة بغداد في

امتلاك القنبلة الذرية باسرع وقت ممكن. وقد كان قلق جهاز الاستخبارات الاسرائيلية (الموساد) كبيراً لا سيما وأن العراق يجهد لشراء اليورانيوم من جميع أنحاء العالم. إذ حصل من البرتغال على ١٨٠ طناً ومن ليبيا والبرازيل والصين على ٢٠٠ طناً.

من جهة أخرى، اشار التقرير الى أن علماء ذرة عراقيين يعملون بشكل حميم جداً مع فيزيائيين باكستانيين.. اعتباراً من هذه اللحظة، قررت الحكومة الاسرائيلية الهجوم على مفاعل تموز. الاسم السري للعملية كان «بابل» (تماماً مثل مشروع جيرالد بول في انتاج مدفعه الهائل).

و«يؤكد الاسرائيليون» ان مفاعل تموز كان خالياً من الوقود عند حدوث العملية». إذ «منذ ان نشبت الحرب بين ايران والعراق في شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٨٠ تمّ ايداع الـ ١٣ كيلوغرام يورانيوم في مدفن من الاسمنت يستطيع مقاومة أعمال القصف».

ان هذا المفاعل الذي طلبه العراق من فرنسا عام ١٩٧٥ لم يبدأ بالعمل سوى قبل بضعة أيام من اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية.

من جهة أخرى، دافعت الحكومة الاسرائيلية عن عملية «بابل» ضد المفاعل النووي العراقي تموز باعتبارها «دفاعاً عن النفس». وقال مائير روزان، سفير اسرائيل آنذاك في باريس: «كان العراق قادراً على تركيب صواريخ نووية يبلغ مداها ٣٠٠٠ كيلومتر».

في باريس، كانت تخيم حالة من الذهول. إذ كانت وزارة الخارجية الفرنسية تستعد للاتفاق مع بغداد على الالتزامات والحدود المتوجب احترامها مستقبلاً في موضوع التعاون النووي الفرنسي ـ العراقي. وقامت الأمانة العامة لوزارة الخارجية الفرنسية، التي كان يديرها آنذاك السيد برونو دو لوس، بتوجيه «تلكس» الى الوزراء المعنيين بالهجوم على المفاعل العراقي.. وخاصة الى وزير الصناعة السيد بيير دريفوس.. الذي تمّ توجيه التلكس له عبر موظف كبير في وزارته هو السيد برونو دولاي (الذي اصبح فيما بعد مستشاراً لكلود شيسون).

اننا ننفرد هنا بتقديم نص ذلك التلكس، لأنه يوضح بشكل أفضل الامكانيات الحقيقية لمفاعل تموز. جاء فيه:

«السيد وزير الصناعة (عن طريق السيد دولاي) مفوضية الطاقة الذرية.

الموضوع: لائحة بيّنات بيع المفاعل تموز «أوزيراك».

ان الأمانة تقدم لكم بقصد الفائدة، عناصر الاجابة على الحجج الرئيسية المقدّمة من أجل تبرير الهجوم الاسرائيلي على تموز.

١ ـ (أشار العراق إلى أنه ينوي انتاج الأسلحة النووية).

من الصعب القبول بهذه الحجة، في ظل غياب أية مرجعية لتصريحات رسمية عراقية بهذا الشأن.

أضف الى ذلك ان العراق هو أحد الموقعين على معاهدة عدم تكاثر الاسلحة النووية. وبالتالي قد التزم بعدم الحصول على الأسلحة النووية أو انتاجها. فضلاً عن أنه قدَّم لفرنسا من خلال الاتفاقيات المبرمة في عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦ والتي نُشرت حينذاك، تعهدات محددة وحاسمة في نفس الاتجاه.

٢ ـ (كانت مهمة مفاعل تموز انتاج المتفجرات النووية).

ان مفاعل تموز مصممٌ حصراً للبحوث العلمية. وكل محاولة لاستخدامه لانتاج البلوتونيوم لاغراض عسكرية تتطلب بالضرورة تغييرات جوهرية في المنشأة ومعالجة عدة أطنان من المواد المشعة الخطيرة للوصول الى انتاج البلوتونيوم... ان عملية كبيرة كهذه سيتم كشفها في الحال.

على الصعيد التقني، قد يكون من العبث ان يلجأ بلدٌ يفكر بانتاج البلوتونيوم بغية صناعة القنبلة الذرية الى انشاء مفاعل من نوع مفاعل تموز. اذ هناك وسائل اخرى أكثر اقتصادية وأكثر سرية من أجل الوصول الى تلك الغاية. تتمثل تلك الوسائل في شراء النوابذ لاغناء اليورانيوم أو في بناء مفاعلات مولّدة للبلوتونيوم من اليورانيوم الطبيعي مثلاً.

٣ ـ (وقود تموز هو من اليورانيوم الغني الجاهز تماماً ومباشرة للاستخدام في صنع القنابل).

ان هذا القول يصح أيضاً على عشرات مفاعلات البحث في العالم. لكن عمليات التفتيش التي تقوم بها الوكالة الدولية للطاقة الذرية ترمي بالتحديد الى التحقق من عدم استغلال تلك المحروقات لغايات غير الغايات المخصصة لها. اضف الى ذلك أنه منذ أن يتم وضعها داخل المفاعلات، يصبح اليورانيوم الذي تحتوي عليه مشعاً وغير صالح لصناعة المتفجرات إلا بمعالجة مسبقة من جديد. ثم إن الوقود الذي يمكن ان يحتويه جوف مفاعل من نوع تموز هو نصف الكمية من اليورانيوم الغني الضروري

لصنع قنبلة، وذلك حسب معايير الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

٤ ـ (عمليات الرقابة التي تقوم بها الوكالة الدولية للطاقة الذرية غير كافية).

هذه حجة لا تقوم على أي دليل وهي هجوم مجاني ضد الوكالة الدولية للطاقة الذرية التي تضم اسرائيل بين اعضائها اليوم. ومن المؤكد أنه لم ينفجر حتى اليوم أي مقذوف نووي في العالم كانت صناعته قد تمّت بالاعتماد على مواد تخضع لرقابة الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

٥ ـ (تهرب العراق من رقابة الوكالة الدولية للطاقة الذرية).

هذا قولٌ خاطىء. إذ أن العراق خضع لعمليتي التفتيش اللتين طلبتهما الوكالة. لكن حدث أن تأخر التفتيش الثاني بسبب الحرب بين العراق وايران وخاصة بسبب أول هجوم جوي تعرَّض له المفاعل بتاريخ ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٨٠.

وقد صرَّح المدير العام للوكالة حديثاً في ڤيينا ان نتائج التفتيش على مفاعل تموز مرضية جداً.

٦ ـ (يستطيع العراق طرد التقنيين الأجانب والتحرر بذلك من الرقابة الدولية منذ أن تبدأ المفاعلات بالعمل).

ان اجراء من هذا النوع هو، على الأقل، غير وارد قبل فترة زمنية طويلة بسبب الحاجة الى التقنيين في تشغيل مفاعل مثل مفاعل تموز (تمّ توقيع اتفاق بين لجنة الطاقة الذرية ونظيرتها العراقية). وبالتالي فإن عمليات التفتيش لن تتوقف. كما إن الرأي العام والبلدان المعنية ستفهم دون أي التباس نوايا اصحاب ذلك الاجراء.

بالاضافة إلى ذلك، سيؤدي أي نكوص بالالتزامات التي قطعها العراق على نفسه الى وقف تزويده باحتياجات المفاعل من وقود وغيره، مما سيؤدي الى توقيف العمل فيه على المدى القصير.

٧ ـ (بُني على موقع تموز ملجأ مسلَّح تحت الأرض سيكون المكان الذي تتم به صناعة القنابل سراً).

ان المنشأة الوحيدة التي يمكن أن يتوجه اليها هذا الاتهام الخيالي هي بناء مخصص لاجراء تجارب عملية حول فيزياء المواد الصلبة. وليس لتجهيزاته أية فائدة عسكرية. وهناك منشأة شبيهة بتلك المنشأة بالقرب من مفاعل «أورفيه دوساكلي» في فرنسا.

٨ ـ (هاجمت اسرائيل دون انتظار من أجل تجنب الحادث الخطير الذي كان يمكن أن يؤدي اليه تدمير مفاعل معبأ بالمحروقات النووية).

ان اسرائيل قامت في الواقع بمخاطرة كبيرة في السابع من يونيو (حزيران). إذ كان يمكن لهجومها أن يؤدي الى ذلك الحادث الخطير إذ أن كمية ١١,٥ كيلوغرام من اليورانيوم الغني جداً والمشع كانت موجودة في المكان الذي وقع عليه الهجوم منذ بداية شهر يونيو (حزيران). ولا يمكن لاسرائيل أن تجهل ذلك إذ أن وجود تلك الشحنة كان وراء عمليتي التفتيش اللتين قامت بهما الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

٩ ـ (لم توفر اسرائيل جهودها الدبلوماسية لدى الدول التي تقوم بتزويد العراق بما هو مطلوب لعمل المفاعل... وعندما ذهبت جهودها عبثاً لم يبق أمامها سوى الخيار العسكري).

ان آخر اتصال دبلوماسي بين اسرائيل وفرنسا حول هذا الموضوع كان بتاريخ ٢٨ يوليو (تموز) ١٩٨٠. ولم تقم اسرائيل بعد ذلك التاريخ بأي مسعىً يدل على قلق الحكومة الاسرائيلية حيال ذلك الموضوع.

لم يكن قلق الرأي العام الاسرائيلي غائباً عن ذهن الحكومة الفرنسية التي ألحّت في الآونة الأخيرة على ضرورة التثبت من اجراءات استخدام الوقود النووي والمفاعل لاغراضٍ سلمية حصراً وعدم اهمال أي اجراء منها. وقد أرادت بحرصها هذا أن تدفع عنها جميع الشكوك ولو كانت شكوكاً غير مبررة.

١٠ ـ (قامت اسرائيل بعملها «دفاعاً عن النفس»).

ان بناء مفاعل نووي واستخدامه لغايات علمية لا يشكل بأي حال من الأحوال تهديداً لاسرائيل. والحديث عن «دفاع عن النفس» في حالة كهذه هو استخدام سيءٌ للغة. ويكفي، كي نقيم الدليل على ذلك، تصوّر ما سيكون عليه رد الفعل الاسرائيلي لو تمّ استخدام نفس الحجج ضد مفاعلات اسرائيل (التي لا يخضع أحدها للرقابة الدولية).

على العكس، ان اسرائيل، بهجومها، طعنت المبادىء الأساسية للعلاقات الدولية (عدم استخدام القوة، تسوية الخلافات بالطرق السلمية.. الخ). ووجهت على الصعيد النووي ضربة قوية لمبدأ التعاون من أجل الحد من تكاثر الأسلحة النووية (يتبع...).

التوقيع

لوس

تدل هذه الوثيقة على قناعة خبراء وزارة الخارجية الفرنسية بأن العراق لم يكن

قادراً على صنع القنبلة النووية، وعلى أن عمليات التفتيش التي قامت بها وكالة ڤيينا (الوكالة الدولية للطاقة الذرية) كانت فعَّالة، على عكس ما كانت تقول به الدبلوماسية الاسرائيلية، وأن كمية ١١,٥ كيلوغرام من اليورانيوم الغني جداً والمشع كانت موجودة في مفاعل تموز منذ شهر يونيو (حزيران) ١٩٨٠، الأمر الذي كان يمكن أن يؤدي الى كارثة...

مع ذلك سنرى فيما بعد أن ما جاء في وثيقة وزارة الخارجية الفرنسية كان موضوعاً للجدال، إذ اعترض عليه علماء فرنسيون بشكل خاص.

بكل الأحوال ينبغي وضع الهجوم الاسرائيلي على مفاعل تموز ضمن السياق العام لحرب سرية طويلة. ففي شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٩ دمَّر اعتداء مجهول الهوية في ورشة «لاسين» القريبة من مدينة طولون الفرنسية أجهزة خاصة بمفاعل تموز. بعد عام، أي في شهر يونيو (حزيران) ١٩٨٠، أودى اعتداء آخر في باريس بحياة مهندس نووي مصري كان يعمل في المفاعل المذكور.

في الخامس من شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٩، دخلت مجموعة كوماندوس من المحترفين الى ورشة «لاسين» البالغة مساحتها ٤٠٠ متر مربع، والتي كانت تحتوي على معدَّات مفاعل تموز.. كانت الورشة تابعة لشركة البناءات البحرية الصناعية في حوض المتوسط العاملة مع شركة «تكنيكاتوم». فجرَّت مجموعة الكوماندوس ثماني عبوات موقوتة أدَّت الى تدمير جهاز تبريد المفاعل تموز. ولم يتم العثور على فاعلي ذلك الاعتداء الذي عزته عدة صحف لجهاز الموساد الاسرائيلي.

وتقول فرضية رددتها الأجهزة السرية البريطانية ان مهمة مجموعة الكوماندوس كانت تتمثل في الواقع بالاستيلاء على اجزاء تقنية أساسية خاصة بقلب المفاعل ووضعها على متن قارب كان ينتظر في مرفأ مرسيليا. لكن الوقت لم يكن كافياً لانجاز عمل المجموعة.

في شهر يونيو (حزيران) ١٩٨٠ كان يحيى المشدْ المصري الجنسية يقيم في باريس لعدة أيام. لقد كان على موعد مع خبراء لجنة الطاقة الذرية.. كان المشدْ، المهندس في ميدان الفيزياء النووية، يعمل منذ عدة أشهر لحساب حكومة بغداد.. وبصفته هذه كان موجوداً آنذاك في فرنسا.

وفي الساعة ١٤,٥٠ من يوم السبت ١٤ يونيو (حزيران) اكتشفت احدى العاملات جثة المشهد في الطابق التاسع من فندق المرديان في باريس.. كان وجهه

مغطىً بالكدمات مع جرح غائر في الرأس. انتظر الجميع شهادة امرأة شابة اسمها «ماري كلود ماغي» كانت قد عرضت «خدماتها» على المشهد.. لكن سيارة مجهولة سحقت هذه المرأة بعد أيام في شارع سان جرمان الباريسي... حيث قال تقرير الشرطة انها كانت «في حالة سكر».. وأشار التقرير المعد اثر تشريح جثة العالم المصري إلى أن عملية وفاته تعود الى كسرٍ في الجمجمة بواسطة أداة راضّة. وقيل في أوساط الشرطة الجنائية: «هذا ليس عمل أناس محترفين»، بقصد تبرئة الأجهزة الاسرائيلية، كما بدا في ذلك الحين.. أو لابعاد فرضية أن العملية تمت بواسطة عملاء سريين.

في الوقت نفسه اقتفى جهاز مكافحة التجسس الفرنسي اثر الجريمة في ميدان آخر، هو ميدان تصفية الحسابات الداخلية العراقية. إذ كان المَشَدُ، في الواقع، صديقاً حميماً للمدير السابق للجنة النووية العراقية الدكتور حسين الشهرستاني، الذي صدر بحقه في العراق حكماً بالسجن لمدة عشر سنوات «بسبب نشاطات مضادة للثورة». وكان الفرع الخامس من الأمن الوطني العراقي قد قبض عليه بتاريخ ١٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٩ بتهمة التآمر. وكان الشهرستاني المستشار العلمي الشخصي لصدّام حسين. لقد حامت حوله الشكوك بالتواطؤ في «عملية التخريب التي حدثت في ورشة لاسين». وبأنه قدّم معلومات سرية حول المفاعل النووي تموز.

وبتاريخ ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٠، تمَّ القبض على خمسة عراقيين من الشيعة في موقع المفاعل النووي بالقرب من بغداد؛ بعد أن كان الجنرال برزان ابراهيم، رئيس جهاز مكافحة التجسس العراقي، قد قدَّم تقريراً قال فيه أن هؤلاء الأشخاص الخمسة كانوا مكلفين بقتل المهندسين الفرنسيين العاملين في المفاعل النووي. هذه القصة لم يُكشف عنها النقاب أبداً.

لا تقدم هذه الحرب السرية بما فيها من عمليات سرية وجرائم قتل أية مساهمة في الاجابة على سؤال بسيط هو: هل يمكن أن تؤدي المساعدة التي قدمتها فرنسا للعراق الى انتاج القنبلة النووية بالفعل؟. الاجابة الاسرائيلية على هذا السؤال هي ايجابية بالطبع.

ان الوصول الى الحقيقة يقتضي العودة الى شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٤، عندما قدمت الى باريس بعثة عراقية غرضها البحث في امكانيات شراء مفاعل نووي.

جاءت هذه المهمة قبل شهر من زيارة رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك، جاك شيراك، الى العراق. تلك الزيارة التي أرسى اثناءها شيراك أسس تعاون نووي لغايات سلمية بين البلدين. وتابع ميشيل دورنانو، وزير الصناعة في ظل رئاسة جيسكار ديستان، المراحل الأساسية لمختلف العمليات. وفي شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٦، أعطى ريمون بار، رئيس الوزراء في تلك الفترة، موافقته على العملية وعلى تقديم الأجهزة المطلوبة للشروع بها.

اننا ننشر هنا، وللمرة الأولى، مقاطع مأخوذة من وثيقة لوزارة الخارجية الفرنسية موجودة في الارشيف «الرسمي» غير المخصص للعامة. وتبين هذه الوثيقة القصة الحقيقية للمفاوضات بين باريس وبغداد.

«... لقد تم التوصل في النتيجة الى مشروع اتفاق جامع اطّلع عليه العراقيون، وتبودلت بشأنه بعض الرسائل السرية. ثم جرى التوقيع عليه بتاريخ ١٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٥ من قبل السيدين اورنانو والحمداني. ويحدد هذا الاتفاق برنامج التعاون المطلوب تطبيقه بعد الموافقة الحكومية عليه. وينص هذا البرنامج على مرحلتين:

أولاً: المرحلة الأولى.

١ ـ تقوم فرنسا باعداد التقنيين العراقيين للعمل في مفاعل كهربائي من طراز PWR.

٢ ـ يقوم خبراء فرنسيون، ضمن اطار مهمة عمل لدى مركز البحث النووي في بغداد، بانشاء مفاعل بحث من طراز أوزيريس معدَّل مع ضمان تزويده بالوقود المطلوب لمدة خمس عشرة سنة.

٣ ـ تقوم فرنسا ببناء مفاعل كهربائي يعمل بالماء المكيَّف الضغط باستطاعة تتراوح بين ٦٠٠ و٩٠٠ ميغاواط. ومن النمط الذي تقوم شركة فراماتوم ببنائه في فرنسا. وينبغي ان يكون هذا المفاعل جاهزاً للعمل في موعد أقصاه عام ١٩٨٣.

٤ ـ تقوم فرنسا بتزويد العراق بالشحنة الأولى من الوقود، وتكرر العملية بعد ذلك حتى عام ١٩٩٠.

٥ ـ تتم عملية اعادة معالجة الوقود المشع في منشآت فرنسية كما يتم تخزين البلوتونيوم في فرنسا، ويجري استخدامه لاغراضٍ سلمية فقط بناءً على برنامج مشترك تتفق الحكومتان عليه.

٦ ـ يتم خلال هذه المرحلة الأولى اتخاذ جميع الاجراءات لتحضير المرحلة الثانية بما في ذلك بداية استخدام تكنولوجيا مولدات الحرارة العالية.

ثانياً: المرحلة الثانية.

يتم انشاء مفاعل للنترونات السريعة التي يتم الاتفاق على مواصفاته بين الطرفين. وتتحدد برامج المرحلة الثانية تبعاً لكميات المواد الانشطارية المتوفرة والتجربة المكتسبة من قبل التقنيين العراقيين خلال المرحلة الأولى، على أن يتفق الطرفان على شروط التزود بالوقود وشروط اعادة معالجته.

اعتبر العراقيون أن التزام فرنسا بتنفيذ المرحلة الثانية شرطاً لازماً لقبولهم شراء المفاعل PWR. وتم توقيع الاتفاق الشامل بتاريخ ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥ في بغداد من قبل السيدين اورنانو والحمداني، بعد أن وافقت عليه لجنة الذرة الأوروبية «أوراتوم».

مع ذلك طلبنا أن يتم اكتمال الاتفاق باتفاق ثلاثي للرقابة مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية. لم يوافق العراقيون على وجهة النظر هذه باعتبار انهم من الموقعين على معاهدة عدم تكاثر الاسلحة النووية منذ تاريخ ٢٩ فبراير (شباط) ١٩٧٢ والتي تنص على وضع الدورة النووية كلها تحت رقابة وكالة ڤيينا. واقترحوا علينا ضمن هذه الظروف تبادل المستندات التي يلتزمون فيها بتوقيع اتفاق ثلاثي معنا ومع الوكالة الدولية للطاقة الذرية في حالة ابطال مفعول معاهدة عدم تكاثر الاسلحة النووية.

أخيراً، وبعد عدة أحداث طارئة تعود بشكل رئيسي الى الصعوبات في الوصول الى صيغة النص الشكلي للعقود المطلوبة، تمَّ تبادل المستندات الموقعة بتاريخ ١١ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٦ والتي تبنَّت الصيغة العراقية. وتمَّ استكمال العملية عبر توقيع مستند آخر بنفس التاريخ يحدد اجراءات الحماية المادية بالنسبة للمنشآت وللمحروقات».

واليوم، وبعد عمليات القصف التي قام بها طيران التحالف، تمَّ تدمير مفاعلي البحث السوفياتي والفرنسي، اللذين كان يمتلكهما العراق. وأكّد الجنرال كولن باول، الرئيس الأعلى لهيئة أركان الجيوش في الخليج، ان هاتين المؤسستين تكبدتا من الخسائر ما يجعل من الصعب، إذا لم يكن من المستحيل، اعادة بنائهما.

لكن الأجهزة السرية الاسرائيلية لا تزال تثير بعض المخاوف. وتقول بأنه من

الواضح أن العراق لم يعد يمتلك قوة نووية عملياتية لكن هذا لا يمنع انه لا يزال قادراً على صنع قنبلتين نوويتين بالوسائل الحِرَفية. ويرى الموساد بأنه لا توجد أية معلومات دقيقة عن مصير الوقود النووي المخزَّن في ملاجىء مصممة لمقاومة الهجومات النووية بل ومقاومة الانفجارات المغناطيسية - الكهربائية. ولا يستبعد خبراء الجهاز الاسرائيلي ان تكون كمية الـ ١٥ كيلوغرام يورانيوم الغني السوفياتية والـ ١٢ كيلوغرام يورانيوم الغني الفرنسية، التي كانت موجودة في موقع التويثة، والتي خضعت لمراقبة الوكالة الدولية للطاقة الذرية، لا تزال سليمة لم تُمس. ويضيف الموساد، انه ربما قام صدام حسين بنقلها الى مخبأ محصَّن سري لم يكتشفه الطيران المتحالف. ان هوس القنبلة النووية العراقية لا يزال يقلق الأجهزة السرية الاسرائيلية.

الفصل الثامن

تل أبيب ـ طهران ـ موسكو

ان الاسرائيليين، بين الحلم في تكسير آلة الحرب العراقية والخوف من الدخول في صراع قد يتحول الى مجابهة بينهم وبين العالم العربي بأسره، اختاروا ضبط النفس والتعقل. في الوقت نفسه، كانت الدولة العبرية تحضّر مخططاتها السرية لمواجهة احتمال أن يكون بقاؤها احد رهانات الحرب؛ كأن تتعرض مثلاً لهجوم بالأسلحة غير التقليدية، من قبل جيش صدام حسين. وحاولت الدبلوماسية والأجهزة السرية الاسرائيلية، منذ بداية الحرب، أن تقاوم فكرة الجمع بين مشكلة الأراضي الفلسطينية المحتلّة وضم العراق للكويت. فاطلقت اسرائيل أولاً العنان لكل قنوات حربها النفسية من أجل الوقوف في وجه الدعاية العراقية. وارسلت لهذا الغرض مذكرات الى جميع سفرائها في العالم تدعوهم فيها الى محاولة الاتصال بوسائل الاعلام لشرح عدم التشابه بين غزو العراق للكويت وادارة الضفة الغربية (يهودا والسامرة كما تقول اسرائيل) وقطاع غزّة من قبل اسرائيل. كانت المذكرة التوجيهية لوزير الخارجية الاسرائيلي واضحة بهذا الخصوص. وقد جاء فيها:

«اجتاح صدام حسين الكويت في حرب عدوانية دون أن يقوم المعتدى عليه بأي عمل تحريضي. أما يهودا والسامرة وغزة فقد دخلت تحت السيطرة الاسرائيلية عام ١٩٦٧ اثر حربٍ مشروعة للدفاع عن النفس.

«لقد طرد العراق الحكومة الكويتية الشرعية وأفرغ الكويت من مواطنيها. كما ان صدام حسين في طريقه الى الاستيلاء على كل ما في الكويت ونقله الى العراق. اما اسرائيل فإنها تدير يهودا ـ السامرة وغزة حسب القانون الدولي وتعمل على تحسين مستوى معيشة الفلسطينيين.

«ضم صدام حسين بلداً ذا سيادة هو الكويت واعلنه مقاطعة عراقية. لكن اسرائيل لم تضم الأراضي بالرغم من ان القانون الدولي لم يحدد وضعها القانوني

أبداً. وصرَّحت بأن هذا الوضع سيتحدد بواسطة مفاوضات للسلام.

«ان وضع اسرائيل يشابه وضع الكويت وليس وضع العراق. وابعاد الكويت تساوي أبعاد اسرائيل التي هدد صدام حسين بتدميرها بواسطة اسلحته الكيماوية.

«لا فائدة من الربط بين غزو الكويت والصراع العربي ـ الاسرائيلي. وارغام اسرائيل على تقديم تنازلات بغية الحصول على جلاء العراق من الكويت هو بمثابة مكافأة للعدوان العراقي. كما ان الأنظمة المعتدلة في المنطقة ستجد نفسها أكثر هشاشة وفقداناً للاستقرار فيما يأخذ عدوان صدام حسين تبريراً وشرعية في العالم العربي.

«لا يمكن ابعاد خطر عدوان عراقي في المستقبل إلا بموقف حاسم ضد العدوان الحالي. ولا يجوز أن ينال صدام حسين مكاسب دبلوماسية أو حدودية من عدوانه.

«انَّ مقايضة الجلاء عن الكويت بقبول ربطها بشكل مصطنع مع النزاع العربي ـ الاسرائيلي سوف تشجع صدام حسين على القيام مستقبلاً باعتداءات أشد خطورة من العدوان الحالي.

«ينوي صدام حسين من خلال الربط بين العدوان العراقي والنزاع العربي ـ الاسرائيلي اضعاف الاجماع الدولي ضده.

«الاعتراف بهذا الربط هو السماح للدكتاتور العراقي بالوصول الى غاياته».

كان الجيش الاسرائيلي جاهزاً للردّ أيضاً. واعدَّت رئاسة أركان الجيش الخطط لغزو المنطقة الغربية من العراق. وقام الجنرال، ايحود باراك، نائب القوات المسلحة الاسرائيلية والقائد الأعلى للجيش الاسرائيلي فيما بعد، باعداد خطة للقيام بعملية ترمي الى انهاء قواعد اطلاق صواريخ سكود. كما أعدَّت الأجهزة السرية الاسرائيلية بقيادة الجنرال آمنون شاهاك خطة لتدمير المنطقة الحدودية مع الأردن حيث اعتقدت أن العراقيين قد نصبوا منصَّات اطلاق صواريخهم «السكود» المتحركة هناك.

وكمن خيارٌ آخر في خلق منطقة عازلة في تلك المنطقة بقصد منع تسلل العراقيين الى الاردن ونصبهم للصواريخ على طول الحدود. واستطاع الموساد أن يسرِّب عدداً من عملائه الى الأردن، قبل بضعة أشهر (من غزو العراق للكويت) خاصة في بعض الأوساط الفلسطينية. كان هؤلاء العملاء يريدون جمع المعلومات عن الروابط

العسكرية التي قد تكون قائمة بين بغداد وعمّان. إذ رأت الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية في تبادل الطيارين بين البلدين منذ بداية عام ١٩٩٠ أمراً يثير الريبة. وتمت برمجة عملية، من نوع عملية عنتيبة للهجوم على بغداد. ان خبراء الكوماندوس التابعين لقيادة الجيش قاموا باعداد سبعة سيناريوهات ممكنة.

اعتمدت كل هذه الخطط على مشروع دراسات اعمال كوماندوس من أجل تدمير الطائرات العراقية وهي على الأرض، التي لجأت الى ايران وليبيا والسودان واليمن وموريتانيا. إذْ شكَّ الاسرائيليون، ولا يزالون يشكون، بأن صدام حسين قد خبأ عدداً من طائراته في بلدان لم تشارك في حرب الخليج.

لم يشأ جهاز الموساد ان يستخدم، منذ بداية الحرب، جميع عملائه السريين المقيمين في عدة بلدان، وخاصة في العراق، باسماء مستعارة. إذ جنَّد الموساد منذ سنوات عديدة عدداً من الأكراد ومن اليهود من أصلٍ عراقي. كان الهدف من ذلك هو تحضير عمليات تسلل مجموعات الكوماندوس عبر الحدود التركية - الايرانية لتقوم بالهجوم على اهدافها المتمثلة في مراكز قيادات الجيش والمواقع الاستراتيجية، بالاضافة الى عملية خاصة تستهدف ملجأ صدَّام حسين المحصَّن. كل هذه الخطط جرى اعدادها قبل غزو العراق للكويت. جرى فقط التدقيق بها بعد التهديد الجديد منذ بداية حرب الخليج.

ان الموساد، لا يمتلك سوى عدد قليل من العملاء في بغداد. لذلك أصدر لهم تعليماته بعدم القيام بأية مخاطرة وبأن لا « يحرقوا » أنفسهم. لقد فضَّلت الأجهزة الاسرائيلية بقاءهم في وضع سري كما كان يفعل العملاء السوفيات الذين كانوا يعيشون حياة عادية لعميل سري في بلد ما مدة خمس عشرة الى عشرين سنة قبل أن يجري تنشيطهم من جديد. كذلك قامت اسرائيل، منذ بداية حرب الخليج، بابلاغ حلفائها رسالة سرية للغاية تقول: « إذا قامت بغداد باستخدام الاسلحة الكيماوية والجرثومية، فإن الدولة العبرية سترسل على بغداد قنبلة ذرية تبلغ استطاعتها ١/٥ قنبلة هيروشيما » في الوقت نفسه الذي أصبحت فيه منصة لاطلاق الصواريخ ارض - أرض من طراز جرش جاهزة للعمل في الضفة الغربية.

أما على صعيد الحرب النفسية، فإن جهاز الموساد أراد أن ينذر جميع المهندسين الذين تابعوا العمل مع بغداد، عبر اشارة واضحة لمحطة الاذاعة البريطانية بي بي سي بأن عناصره هم الذين اغتالوا في بروكسل بتاريخ ٢٢ مارس (اذار) ١٩٩٠

المهندس جيرالد بول الذي اخترع المدفع العراقي العملاق (الذي ساهم في تدعيم آلة الحرب التكنولوجية في العراق). كما ظهر على شاشة التلفزيون الاسرائيلي، طيلة استمرار حرب الخليج، رجلٌ بدين هو الجنرال باراك، الرئيس السابق لأجهزة استخبارات الوحدة الخاصة (سريات ماتكل) التي ساهمت عام ١٩٧٦ بعملية عنتيبة. هذا الجنرال الاسرائيلي، الذي قام بدورات تدريبية في مدرسة الكوماندوس التابعة للجيش الفرنسي، هو خبير في عملية التسلل والاستطلاع، وهو مجاز بالفيزياء والرياضيات. وفي عام ١٩٧٣، تخفّى في زي امرأة شقراء وذهب مع مجموعة كوماندوس تابعة للاستخبارات الاسرائيلية قامت بقتل ثلاثة مسؤولين فلسطينيين في أماكن تواجدهم في بيروت، لأنهم يحضرون اعمالاً ارهابية ضد اسرائيل. ان هذا الرجل المتحمس لتوازن الرعب وللحزم سيعطي بالتأكيد الضوء الأخضر لخطة سرية تمّ اعدادها قبل عشر سنوات من قبل مهندسي وزارة الدفاع الاسرائيلية. تقضي هذه الخطة بصناعة صاروخ بحري يمكن اطلاقه من غواصة. ان اسرائيل تمتلك ثلاث غواصات من صنع بريطاني وهي تفاوض الآن لشراء غواصتين جديدتين من المانيا الاتحادية. بانتظار ذلك، سوف تشارك اسرائيل بمفاوضات نزع السلاح النووي والبيولوجي والكيميائي والبالستيكي في المنطقة. لكنها سترى دائماً في أمنها مسألة تفوق كل اعتبار.

ايران: اللعبة الدقيقة

هل هناك لعبة ايرانية مزدوجة: ستار من دخان أم مظلة فارسية؟. كيف يستطيع محلل فرنسي من وزارة الخارجية الفرنسية تحديد معالم السياسة الايرانية طيلة الحرب السرية للخليج؟

أجابنا هذا المحلل بالقول: «الأمر بسيط. بسيط جداً. ان ايران تفضل الخليج الفارسي على الخليج العربي. بكل الأحوال، حاولت ايران، منذ غزو الكويت، ان تبيع غالباً موقفها الحيادي للغربيين. وكانت واشنطن ولندن وباريس تدرك منذ البداية أن ايران ليس لها مصلحة حقيقية في مساعدة صدام حسين. لكن الرئيس هاشمي رفسنجاني، الخاضع لضغوطات النواب الراديكاليين وعلى رأسهم علي أكبر محتشمي، وزير الداخلية السابق، اضطر أن يتصرف بحذر لا سيما وأن الوضع الاجتماعي في

ايران شديد السوء والمظاهرات تزداد منذ عدة أشهر للاحتجاج على نقص المواد الأساسية في عدد من المدن الايرانية. كما ان زيادة التوتر مع بغداد ستؤدي الى تقوية المتطرفين الذين يترقبون أي انفتاح سياسي صغير للرئيس الايراني على الغرب».

كان العراق يميل من جهته الى المصالحة مع خصم الأمس. لم يكن صدام حسين يريد أن يحارب على جبهتين: ايران في الشمال والتحالف في الجنوب.

وبتاريخ ٢ ابريل (نيسان) ١٩٩٠ بعث صدّام حسين رسالة الى رفسنجاني يدعوه فيها للقاء قمة في مكّة. كتب يقول:

«ألم يكن باستطاعة الكبار وضع حد لتلك الحرب التي استمرت ثماني سنوات بيننا؟ لقد فضلوا ترك العراق وايران يتمزقان فيما بينهما سنوات طويلة. قامت تلك المعارك الشرسة على بقعة من الأرض تحتوي على ٦٥٪ من الاحتياطي العالمي للنفط.

كانت المدافع تستطيع ان تتابع قصفها والمذابح تستمر طالما أن هذا الأمر لا يخلق مشاكل لهم. ان الايرانيين سيكتشفون عدداً من الحقائق. وقد اكتشفوا بعض المرّ منها، وسوف يكتشفون أكثر عندما يدركون مدى الاستغلال الذي وقع عليهم طيلة الحرب».

مع ذلك، رفض الرئيس الايراني مقابلة صدام حسين. لم يشأ الذهاب الى المدينة المقدسة واقترح الباكستان بديلاً عنها. عند ذلك لعبت منظمة التحرير الفلسطينية دور الوسيط بين البلدين. كان ابو خالد، مستشار ياسر عرفات، يحمل الرسائل بين طهران وبغداد.

كان اللقاء متوقعاً في شهر اغسطس (آب)، وسبقه في مطلع شهر يوليو (تموز) لقاء في جنيف بين وزير الخارجية العراقي طارق عزيز ونظيره الايراني علي أكبر ولايتي.

ناقش الوزيران اسعار النفط وتفاهما على فرض زيادة في سعره بمناسبة الاجتماع القادم لمنظمة الأوبك. لكن غزو الكويت شوّش الأوساط السياسية الايرانية الحاكمة. فما كان من ايران الا أن وفقت بين سياستها وسياسة المجموعة الدولية باتباعها اجراءات الحظر التي فرضتها الأمم المتحدة.

وقد وصفت صحيفة «كيهان»، وهي الناطقة باسم «الصقور» في النظام الايراني، صدام حسين بالقول: «لقد ارتد فرنكشتاين بغداد ضد صانعيه». إلا أن صدام

حسين كان بحاجة الى طهران فنادى الى الحرب المقدّسة واستجاب لكل مطالب طهران المتمثلة في انسحاب القوات العراقية من الأراضي الايرانية واطلاق سراح أسرى الحرب والاعتراف بالاتفاقيات الحدودية لعام ١٩٧٥ المتعلقة بشط العرب.

بتاريخ ٩ سبتمبر (ايلول)، هبطت طائرة بوينغ ٧٢٧ تابعة للخطوط الجوية العراقية ومعمَّدة باسم «صلاح الدين» القائد الاسلامي الذي سحق الصليبيين وحرر القدس عام ١١٨٧. كان على متن تلك الطائرة طارق عزيز وزير الخارجية العراقي، ورجل كل المهمات.

اثناء اللقاءات، تمَّ اقرار اتفاق سري حول علاقات ثنائية ثابتة حول أزمة الخليج بين نائب وزير الخارجية الايراني مانوشه متقّي وموظف كبير في وزارة الخارجية العراقية هو وسام الزهاوي. وتبادل هذان الدبلوماسيان الرسائل السرية حول تطور حرب الخليج على مدى أشهر عديدة.

ان ايران، وبالرغم من قبولها المساهمة في الحظر المفروض من المجموعة الدولية على العراق، قامت بخرقه بألف طريقة وطريقة من أجل زيادة مبيعاتها من المنتوجات الغذائية، على وجه الخصوص.

وعندما حطَّت الطائرات العراقية «الهاربة» في الأراضي الايرانية بتاريخ ٢٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١، بعد أن أذنت لها السلطات الايرانية بالهبوط الاضطراري، اختلط الأمر أكثر على الدبلوماسيات الغربية حول اللعبة المزدوجة بين بغداد وطهران. ولاحظ الخبراء أن جميع الطائرات التي حاولت الهبوط في ايران كانت من أكثر طائرات سلاح الجو العراقي تطوراً وتتمثل بطائرات ميغ - ٢٩ وميراج ف - ١ وطائرات سوخوي - ٢٤، وطائرات تزويد بالوقود بل وطائرات استطلاع مثل اليوشن ٧٦ وعدنان، الشبيهة بطائرات الأواكس لكنها أقل تطوراً منها.

لقد ذهبت اكثر من ١٣٠ طائرة للاحتماء تحت المظلة الفارسية فما كان من طهران إلا أن أخبرت واشنطن أولاً بأول بأن هذه الطائرات ستبقى جاثمة في مطارات ايران حتى نهاية النزاع. بل وارسل سفير ايران لدى هيئة الأمم المتحدة رسالة الى الأمين العام يحتج فيها على الهبوط غير الشرعي لتلك الطائرات العراقية في ايران.

ولا يزال هناك الكثير من الأطروحات المتناقضة حول قضية تلك الطائرات.

فالأجهزة السرية تعلم اليوم ان مفاوضات قد جرت في مدينة ساغيز الايرانية بغية الحصول على الإذن الايراني بهبوط طائرات مدنية عراقية في القواعد الجوية الواقعة في منطقة خوزستان. لم يكن الأمر يتعلق آنذاك بالطائرات العسكرية التي تمّ البحث بشأنها فيما بعد. وتقول الأجهزة الغربية أن العديد من طياري تلك الطائرات كانوا من الفارّين فعلاً وأن بعضهم طلب اللجوء السياسي من طهران. كما التحق قسم من الشيعة بينهم بالمعارضة الايرانية في المنفى بايران، وتحديداً بحزب الدعوة.

ومهما كان الأمر: هربٌ أم تراجع تكتيكي، فإن هذه القضية أثارت الكثير من النقاشات داخل قيادات الحلفاء. واعلن الاميرال، ستانلي ارتور، قائد العمليات البحرية الامريكية، قلقه. إذ فكّر بأن طائرات الميراج - ف ١ والطائرات العمودية العراقية فريلون اللاجئة الى طهران، تستطيع الوصول الى الخليج، عبر الأودية الايرانية، دون أن يتم كشفها أو لا يمكن كشفها إلا على مسافة ٦٥ كيلومتراً بينما يتم كشفها على مسافة تزيد عن الـ ٣٢٠ كيلومتر إذا انطلقت من العراق. كان هذا يعني ان سفن التحالف لا تملك سوى فترة انذار قصيرة جداً قبل ان تتعرض لهجوم مفاجىء. كانت الخشية من الأعمال الانتحارية كبيرة آنذاك. وجاء في تقرير للاميرال بعثه الى واشنطن ان هذه الطائرات تشكل خطراً أكبر من الخطر الذي تشكله الطائرات الموجودة في العراق. ولم يكن يؤيد الأطروحة القائلة بأن هذه الطائرات قد ذهبت الى ايران كي تبقى فيها. كما كان يشك بالتصريحات الايرانية حول حياد طهران وهو أول من طرح السؤال التالي الذي لا يزال غامضاً حتى اليوم: أين توجد الطائرات العمودية العراقية، وماذا تفعل؟.

رواية الاستخبارات البريطانية تقول بأن العراق وايران اتفقا قبل الحرب على قبول ايران للطائرات العراقية المدنية والعسكرية أيضاً بشرط واحد هو أن لا يتم استخدامها ضد السعوديين والغربيين ولكن ضد الاسرائيليين فقط.

وخشيت بعض اجهزة الاستخبارات في قيادات بلدان التحالف من امكانية قيام تلك الطائرات بغارات انتحارية وهي محمّلة بالقنابل الكيمياوية، بل من عمليات شبيهة تقوم بها الطائرات المدنية المحشوة بالمتفجرات.

في الوقت الذي كان الغربيون يفكرون فيه بصوت عالٍ، قامت اجهزة الاستخبارات في احدى الدول العربية بالاتصال بنظيرتها الايرانية.. واقترحت تدريب الطيارين الايرانيين على الطائرات السوفياتية اللاجئة الى ايران. واستفادت

طهران من وجود المدربين السري في قواعدها الجوية العسكرية. إذ بدأ هؤلاء المدربون باعداد الطيارين الايرانيين لقيادة الطائرات السوفياتية.

من جهة أخرى، استقبلت طهران فرق صيانة قادمة من دمشق بغية تدريب التقنيين الايرانيين. وطالب السوريون مقابل ذلك السماح لهم بتفحص طائرة الرادار العراقية اليوشن المعمّدة باسم العدنان.

بعد أيام من هذا الطلب، اقترحت ايران لقاءً سرياً على مبعوثين للملك فهد في سويسرة، وكانت تسعى بذلك الى تحسين موقعها لمفاوضات حرب خسرها العراق مسبقاً. وتمّت المفاوضات بالفعل بحضور وزير الخارجية الايراني الذي كان مصحوباً بسفير ايران في باريس السيد علي أهاني.

لعبة الروليت الروسية

«تتطلب عظمة روسيا أن تكون أول المتحدثين في كل مرّة يكون الرهان فيها هو مصير الشرق».

مثّلت هذه النصيحة المستنيرة التي قدمها المستشار الدبلوماسي نيسلرود لقيصر روسيا الأكبر نقولا الأول النهج الذي سارت عليه الدبلوماسية السوفياتية طيلة أزمة الخليج. إذ تابع الاتحاد السوفياتي تطبيع علاقاته مع اسرائيل وأقام علاقات دبلوماسية مع السعودية وقبل قروضاً مالية من مؤسسات سعودية وكويتية. كما حافظ في الوقت نفسه على اتصالات متميزة مع سوريا وحاول انقاذ صدام حسين حتى اللحظة الأخيرة. وبتاريخ ٢١ فبراير (شباط) ١٩٩١ عبّر وزير الخارجية الفرنسي رولان دوما عن مشاعره حول السياسة السوفياتية اثناء أزمة الخليج عندما قال: «كانت خطط السلام التي قدّمها غورباتشيف ترمي الى مراعاة المعارضة داخل الحزب الشيوعي، وداخل الجيش الأحمر. تلك المعارضة التي كانت تعيب عليه منذ عدة أشهر انحيازه أكثر مما يجب للولايات المتحدة الامريكية. ولم يكن حريصاً على إنقاذ صدام حسين بل على انقاذ العراق».

لقد وعت الدبلوماسية الامريكية الجهود التي بذلها الرئيس السوفياتي من أجل اختيار معسكر القانون، مع بعض التباينات بسبب التنافسات القائمة في موسكو بين المحافظين وبوريس يلتسين والجيش الأحمر وغورباتشيف.

ان الأمور سارت على ما يرام في لقاء قمة هلسنكي بين جورج بوش وميخائيل

غورباتشيف بتاريخ ٩ سبتمبر (ايلول) ١٩٩٠. واكتشفت وزارة الخارجية الامريكية بهذه المناسبة أن الاتحاد السوفياتي يمتلك مفاوضين ممتازين بالنسبة لمشاكل الشرق الأوسط وخاصة سيرجي تاراسنكو مستشار شفرنادزه لشؤون العالم العربي.

لكن المفاوض الأساسي للدبلوماسية السوفياتية طيلة حرب الخليج كان ايفغيني بريماكوف. وقد كثرت الأحاديث بأنه كان سيخلف شفرنادزة في وزارة الخارجية السوفياتية.

وُلد بريماكوف في مدينة كييف عام ١٩٢٧، وتابع دروس معهد الاستشراق. دخل جامعة موسكو والتقى اثناء دراسته بها بميخائيل غورباتشيف. ومنذ عام ١٩٦٢ أصبح معلقاً في صحيفة البرافدا حول قضايا افريقيا وآسيا، ثم غدا مراسلاً لها في الشرق الأوسط.

وما بين ١٩٧٠ و١٩٧٧ عمل مديراً مساعداً لمعهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية الذي تعلّم فيه عدد كبير من مسؤولي الدبلوماسية السوفياتية. وكان هذا المعهد على صلة بالدائرة الدولية للحزب الشيوعي السوفياتي، كما عمل معها في ميادين الدعاية والاعلام بل والتضليل الاعلامي في العلاقات الدولية.

قابل بريماكوف صدام حسين للمرة الأولى، في بغداد عام ١٩٦٩ بصفته مراسلاً لصحيفة البرافدا في الشرق الأوسط. وكان الرئيس العراقي آنذاك أحد الأشخاص المعدودين والصاعدين في بلاده. الأمر الذي تنبه له الخبير السوفياتي بسرعة. لقد قدّم بريماكوف، مبعوث موسكو اثناء حرب الخليج، صورة لحاكم بغداد في مقال له في صحيفة التايم البريطانية في أواخر شهر فبراير (شباط) ١٩٩١، إذ قال: «كان حازماً الى درجة القسوة غالباً صلب الارادة حتى العناد في أغلب الأحيان. تمتلكه رغبة جامحة في الوصول الى هدفه دون الاهتمام بعقبات الطريق أو بالثمن المطلوب دفعه ولديه أفكار مبالغ فيها حول مفاهيم مثل الشرف والكرامة. كان صدام حسين رجلاً عقلانياً نسبياً لكنه ذو ميل للتقلبات غير المتوقعة».

تقول مصادر غربية ان بريماكوف حاول خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من حرب الخليج ان يوحي لغورباتشيف بدفع طارق عزيز، وزير الخارجية العراقي، الى الأمام. الرجل الذي يعرفه السوفيات جيداً منذ لقائه الأول مع ليونيد بريجينيف.

هل كانت الأوراق السرية للسياسة السوفياتية في حرب الخليج مزيفة؟ لا تزال هناك بعض مناطق الظل حتى اليوم فيما يخص الموقف السوفياتي. فعلى سبيل المثال:

هل كان الاتحاد السوفياتي مطّلعاً على غزو العراق للكويت؟. لقد نُشر حديث يثير الفضول حول هذا الموضوع في صحيفة «روبتشايا تريبونا» بتاريخ ١٥ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٠.

يؤكد ذلك المقال أن الأجهزة السرية للاستخبارات العسكرية أخطرت وزير الدفاع بالتحضيرات العراقية لغزو الكويت قبل اسبوعين من الغزو. مع ذلك لم يستشف التقرير الموجَّه الى موسكو أن العراق سيقوم بضم الكويت كلها لكنه سيستولي فقط على المناطق الحدودية المتنازع عليها. الأمر الذي دعا وزير الدفاع الى اعتبار أن هذا التقرير غير كامل أعدَّه ضباط من الاستخبارات العسكرية بقصد تغطية أنفسهم فقط. ولم يكن ذلك التقرير يستحق الرفع لغورباتشيف. وتقول الصحيفة السوفياتية أن هذا الأخير عنَّف وزير الدفاع الجنرال ايازوف لأنه لم يتوقع الغزو العسكري العراقي.

وتتساءل أجهزة الاستخبارات الغربية اليوم إذا كانت هذه المعلومات صحيحة أم انها ترمي فقط الى تفسير سبب جهل الاتحاد السوفياتي بما كان يُعد، بالرغم من وجود مستشاريه العسكريين في العراق. وفي الواقع، كان قد تمَّ منذ أكثر من عام نشر المستشارين العسكريين السوفيات، الذين كان يترأسهم الجنرال اناتولي بانيكوف، على أفواج القوات العسكرية العراقية. وكان بين هؤلاء المستشارين عدد من ضباط الاستخبارات العسكرية السوفياتية فضلاً عن ضباط جهاز الاستخبارات السوفياتية العامة كا.جي.بي ومن جهة أخرى كان الضباط السوفيات قد اعادوا حديثاً تنظيم الأجهزة الخاصة العراقية.

هل كان المقال المذكور مناورة للتضليل ترمي الى اعفاء غورباتشيف من أية مسؤولية؟. تفسير آخر مفاده أن الأمر يتعلق بمناورة من الاستخبارات السوفياتية العامة كا.جي.بي. التي يرأسها فلاديمير كريوتشوف الغيور من المحادثات المستمرة بين الاستخبارات العسكرية السوفياتية وضباط من البنتاغون لتبادل المعلومات اثناء أزمة الخليج. وكان غورباتشيف قد رقّى حديثاً الجنرال فالدن ميخايلوف، رئيس الاستخبارات العسكرية، الى أعلى رتبة في الجيش السوفياتي بعد القائد الأعلى للقوات المسلحة. ولم تنظر قيادة الاستخبارات العامة بعين الرضا الى هذه الترقية التي تضع رئيس الاستخبارات العسكرية في مرتبة أعلى من رفاقه العشرة الآخرين في قيادة أركان الجيش.

وبتاريخ ١٢ فبراير (شباط) ١٩٩١، نشرت صحيفة «ليبراسيون» الفرنسية خبراً يقول بأن الحلفاء التقطوا منذ ثمانٍ واربعين ساعة محادثات باللغة الروسية على أمواج الترددات العسكرية العراقية. وأضافت الصحيفة الباريسية قولها: «لا تستبعد اجهزة الاستخبارات ان تكون تلك المحادثات صادرة عن الخبراء العسكريين السوفيات الذين بقوا في العراق». ويقول نفس المصدر أن الاتصالات المذكورة كانت ذات طبيعة عسكرية. كما أن محتواها وطبيعة شبكات الراديو التي تستخدمها تدعو لافتراض انها كانت بين افرادٍ من رتب عالية.

لم يؤكد البنتاغون هذه المعلومات. لكن ضباط قيادة الحلفاء يعترفون بطريقة شبه رسمية بأن تلك المحادثات كانت صادرة بالفعل عن عسكريين سوفيات. مع ذلك لم يجرِ أبداً التفكير باحراج ميخائيل غورباتشيف في مواجهة الجيش الأحمر الذي كان قد بدأ باصدار اشارات تدل على تململه من طول مدة النزاع في منطقة الخليج.

في الوقت نفسه التقطت أجهزة الاستخبارات الفرنسية محادثات باللغة الروسية على نفس الترددات التي يستخدمها العراقيون؛ كانت صادرة عن طيارين حربيين تكوَّنوا في الاتحاد السوفياتي حسب رأي مركز استثمار الاستعلام العسكري. كما يتم التساؤل أيضاً حول التقاط محادثات أخرى باللغة الروسية، لكن هذه المرَّة ليس من العراق ولكن من ايران. كانت تلك المحادثات تدور بين طيارين يقومون بتدريباتهم على طائرات ميغ برفقة مدرِّبين يتكلمون باللغة الروسية. سرٌ آخر. إذ أن ايران لا تمتلك طائرات سوفياتية. بعد فترة من الوقت، وبعد فرار أكثر من مائة طائرة مقاتلة عراقية أو تراجعها الاستراتيجي، أكَّدت مصادر معينة لوزارة الدفاع الفرنسية أن بعض الطائرات اللاجئة الى ايران ذهبت الى قاعدة سوفياتية في افغانستان من أجل صيانتها.

ولا تستبعد أجهزة الاستخبارات الغربية في الواقع أن الخبراء السوفيات قد ظَلّوا في مساحة المعركة أو قريباً منها من أجل تجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات ومن الأعتدة الغربية التي يمكن أن تسقط بين أيدي العراقيين. ويُذكر بهذا الصدد أن السوفيات قد حوَّلوا الى الاتحاد السوفياتي عند نهاية حكم شاه ايران طائرة ف ـ ١٤ تومكات تابعة لسلاح الجو الامريكي مع صواريخها المتقدمة من طراز سبارو. كما ذهب خبراء سوفيات، منذ بداية غزو الكويت، الى مدينة الكويت من أجل تفحص

صواريخ امريكية من طراز هوك كانت قد وقعت في أيدي الحرس الجمهوري العراقي. وساعد الخبراء السوفيات أيضاً الجنود العراقيين على نقل رادارات من طراز تيجر - اس كانت في مدينة الكويت.

تمَّ نقل هذه الرادارات الى بغداد حيث كان ينبغي ان يقوم مهندسون سوفياتيون وعراقيون بتكييفها من أجل تركيبها على طائرات اليوشن الضخمة التي تتحول بذلك الى طائرات استطلاع الكتروني من طراز اواكس.

سرٌ آخر يتمثل في السؤال التالي: هل يمتلك العراق صواريخ اس.اس - ١٢ لم يجرِ استخدامها؟. وهي صواريخ أرض - أرض يبلغ مداها ٩٠٠ كيلومتر ويمكنها اصابة أهداف في السعودية واسرائيل. وتستطيع حمل رؤوس كيميائية أو نووية تقليدية.

تقول معلومات أجهزة الاستخبارات البريطانية أنه يُفترض ان تكون موسكو قد حذفت هذه الصواريخ من ترسانتها العسكرية ضمن اطار ما آلت اليه المفاوضات الامريكية - السوفياتية عام ١٩٨٧ حول تدمير هذا النمط من الاسلحة. من هنا يبرز السؤال الذي تطرحه الأجهزة البريطانية على نفسها: هل قام السوفيات قبل غزو الكويت بايداع هذه الصواريخ في العراق من أجل الالتفاف على اتفاق نزع التسلح؟. وهل نصَّ بند سري على منع صدام حسين من استخدامها في حالة وقوع نزاع؟.

في عام ١٩٨٦ التمس العراقيون من الاتحاد السوفياتي الحصول على هذا النوع من الصواريخ، لكن موسكو رفضت ذلك واقترحت تسليم بغداد صواريخ سكود المشهورة. وبدأت عمليات التسليم في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٦. من جهة أخرى فرضت السلطات العسكرية للتحالف المضاد للعراق تعتيماً كاملاً على عمليات التفتيش التي قامت بها البحريات المتحالفة لعدة سفن سوفياتية كانت في طريقها الى العقبة وعلى متنها أعتدة عسكرية، وخاصة قطع تبديل لطائرات الميغ العراقية، خارقة بذلك قواعد الحظر المفروض على العراق.

لقد أبدى الجيش الأحمر السوفياتي تحفظات كبيرة طيلة مدة النزاع. إذ نقرأ في افتتاحية للصحيفة اليومية للجيش الأحمر مخصصة للحرب، بتاريخ ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١، ما مفاده: «بيَّنت الضربات الجماعية الكثيفة التي يقوم بها طيران التحالف المعادي للعراق على أن استخدام الاسلحة التقليدية يمكن أن يكون له قدرة تدميرية توازي قدرة الاسلحة النووية». فهم الملحقون العسكريون الغربيون في

موسكو مغزى هذا القول المبطَّن. وتساءل العسكريون عمّا إذا كان ينبغي متابعة المفاوضات الرامية الى تقليص عدد الأسلحة النظامية التقليدية في الجيش الأحمر.

وكان الجنرال جيورجي جيفتزا، معاون مدير عام مركز البحوث الاستراتيجية التابع للجيش الأحمر، قد تساءل عمَّا إذا كانت الاسلحة ذات القدرات الالكترونية العالية لا تتفوق على الأسلحة القديمة، خاصة السوفياتية منها، التي يمتلكها العراق. لا شك في ذلك؛ هذه هي النتيجة التي توصل اليها.

أمَّا المارشال سيرجي أخرومييف، المستشار العسكري لغورباتشيف فقد صرَح مرات عديدة بقوله: «لم تترك الولايات المتحدة الوقت الكافي للعقوبات كي تأخذ مفعولها».

لم يقبل الجيش الأحمر، في واقع الأمر، التخلي عن العراق. إذ أن ميثاقاً للتعاون كان يجمع بين موسكو وبغداد منذ عام ١٩٧٥. وقد ساعد آلاف المدرِّبين السوفيات الجيش العراقي بتعليمه، ليس استخدام الاسلحة الحديثة التي قدمها له الاتحاد السوفياتي فحسب، ولكن باعطائه النصائح في ميدان الاستراتيجية واستخدام أرض المعركة.

وتلقَّى جميع الجنرالات العراقيين الكتاب، الذي ألّفه الجنرالان ايڤانوف سافيليف وشيمانسكي؛ وعنوانه: «العناصر الأساسية للقيادة والسيطرة». وهو مأخوذ من دروس مخصصة لضباط القيادة في الاكاديمية العسكرية في فرونز بالاتحاد السوفياتي حيث تكوَّن معظم الجنرالات العراقيين. وقد يكون من الهام الاشارة الى أن تعاليم هذه الدراسة قد طُبِّقت بحذافيرها في غزو الكويت.

لكن يبدو ان الدروس الجيدة التي أعطاها الضباط الروس قد نُسيت منذ ذلك التاريخ. ويجب القول ان صدام حسين لم يترك لضباطه أية امكانية للمبادرة على أرض المعركة.. من هنا يأتي أيضاً بعض الاستياء الذي أبداه العسكريون خاصة حيال المعلومات المسرَّبة القائلة بأن الاتحاد السوفياتي أعطى الامريكيين معلومات حول الأسلحة التي سلمها للعراق. الأمر الذي انتفض امامه رئيس أركان الجيوش السوفياتية إذ كان يمكن أن يؤدي الى شرخٍ كبير في صداقة قديمة. وتوافد الجنرالات الى موسكو، طيلة نزاع الخليج، كي يحذِّروا من قطيعة في العلاقات مع الجيش العراقي.

وكتب الجنرال غيرام ستارودوبوف، مساعد رئيس الاركان السوفياتي، عدة

مقالات قال فيها أن الامريكيين كانوا يعتقدون ان صدام حسين سوف يستسلم بعد عمليات القصف الأولى. ان هذا يدل على سوء معرفة رجل خاض الحرب لمدة ثماني سنوات.

أمّا الجنرال سيرجي بغدانوف، رئيس مركز البحوث العملياتية للقوات المسلحة السوفياتية، فقد كتب في نشرة داخلية ما مؤداه: «ان انتصار الحلفاء ليس مؤكداً بالرغم من تفوقهم العددي. وما تزال القوة العسكرية العراقية كبيرة الى حد يسمح لها بايقاع خسائر كبيرة في العدو».. ثم اختتم مقاله قائلاً: «ليس هناك أي مبرر يسمح بالقول ان التكنولوجيا الغربية المتقدمة تتفوق على تكنولوجيتنا. ان أمريكا وبريطانيا تستخدمان أكثر اسلحتهما تطوراً اما التكنولوجيا السوفياتية التي يمتلكها العراق فهي أكثر قدماً، لكنها تقاوم وتصمد أمام العدو».

وكتب الجنرال ستانيسلاس بيتروف، رئيس الوحدات الكيماوية في الجيش السوفياتي، مقالاً في صحيفة الازفستيا جاء فيه: «يمتلك العراق كمية من المواد السامة المخزّنة في عشرة مواقع؛ يتراوح وزنها بين ٢٠٠٠ و٤٠٠٠ طن. كما يمتلك صدام حسين زيادة على ذلك قنابل تحتوي على ڤيروسات الكوليرا والجمرة الخبيثة والعصيّات السامة».

في بعض الأحيان، يوجه الجنرالات تهديدات تكاد تكون سافرة. إذ كتب الجنرال بوغدانوف: «لا يشكل تمركز القوات الامريكية أي خطر مباشر على الاتحاد السوفياتي حالياً لكن يمكن للمواجهة التي تدور على بعد مئات الكيلومترات أن تتطور. ينبغي الحذر لا سيما وأن الامريكيين يمتلكون ألف رأس نووي في المنطقة وسوف لن يترددوا باستخدامها إذا لجأ العراق الى السلاح الكيماوي».

وذهب جنرالٌ سوفياتي آخر، معروف جداً في موسكو، هو رئيس المنطقة العسكرية فولغا أورال، الى حد الايحاء سراً لقيادة الجيش السوفياتي بالضغط على غورباتشيف «كي يضع الجيش الأحمر في حالة تأهب». كانت تلك طريقة للضغط على الدبلوماسية الامريكية، لكنها بنفس الوقت للضغط على الرئيس السوفياتي كي يأخذ موقفاً أكثر صلابة.

وفي خلال ندوة عُقدت في موسكو بحضور سفير عراقي تهكّم الجنرال فكتور فيلالوف على الموقف السوفياتي الأكثر عجزاً في تاريخ الامبراطورية الروسية والاتحاد السوفياتي. بل ذهب هذا الجنرال، الذي يعمل مديراً لمجلة التاريخ العسكري

في موسكو، الى بغداد. وكتب تقريراً جاء فيه ان المدينة كانت تتعرض للقصف اليوم مثل لينيننغراد في زمن الحصار اثناء الحرب العالمية الثانية وألحَّ قائلاً: «ان العراقيين الذين قاموا بدراساتهم عندنا في لينيننغراد أكّدوا مشاعري الأولى عبر ترديدهم القول المشهور: لن نعطي أي شبر من الأرض إلا بارادة الله». كان يؤشر بذلك الى عبادة الفرد (ستالين) المطبَّقة أثناء الحصار على لينينغراد.

اننا نجد نفس اللهجة لدى الاستاذ ايفان كوروليف، مسؤول المعهد العسكري في وزارة الدفاع السوفياتية، حين يقول: «لقد أخلّ الاتحاد السوفياتي بمعاهدة الصداقة مع العراق والتي تنص على محاربة أي شكلٍ كان من الامبريالية ومن الصهيونية».

وذهب جنرال سوفياتي آخر هو ايغور اڤستافييف، الخبير بميدان الاسلحة الكيماوية والجرثومية لدى الأمم المتحدة، أبعد من ذلك. إذ اتهم واشنطن باثارة العراق عن عمد كي يستخدم الاسلحة الكيماوية بشكل يتم فيه تبرير القيام بهجوم نووي على بغداد. وقد كتب مقالاً في صحيفة «سوڤييتسكايا روسيا» بتاريخ ٨ فبراير (شباط) حول خطر الهجمات الامريكية على المنشآت الكيماوية العراقية. وجاء في المقال: «ان الامريكيين لا يقومون بحرب ضد السكان المدنيين فحسب، مع ما يتضمن هذا من خرقٍ لمعاهدات جنيف، لكنهم يبدأون في الواقع الحرب الكيميائية. وربما ان الحلفاء يفعلون ذلك عن عمد من أجل دفع العراق الى القيام بهجوم كيميائي على المدن، الأمر الذي يعطي الولايات المتحدة الحجة في استخدام الاسلحة النووية».

أخيراً، يمكن للمرء أن يقرأ في مطبوعات سوفياتية عديدة، مثل صحيفة «كوسمولسكايا براڤدا»، ما أسرَّ به الخبراء السوفيات الذين عملوا في العراق.

يروي المقدم سيرجي بيزليوندي قصته كما يلي:

«وصلت الى العراق عام ١٩٨٧ بصفة مستشار عسكري. كانت مهمتي تكمن في تدريب الطيارين العراقيين على قيادة طائرات ميغ - ٢٩ التي كان انتاجها قد بدأ في الاتحاد السوفياتي منذ عهد قريب».

ثم يجهد المقدَّم السوفياتي في مقاله في تدمير الاسطورة الغربية حول وجود تداخل كبير بين النموذجين العسكريين السوفياتي والعراقي. ويكتب: «كان الطيارون قد تلقوا تكوينهم في فرنسا، وكان تكتيك القتال الجوي عندهم مستوحىً مباشرة من نموذجهم الفرنسي، وبالتالي بعيداً جداً عن نموذجنا». ويقول أيضاً أن

صدام حسين رجل متدين جداً على عكس ما يقال في الصحافة.

يجب علينا التذكير أيضاً أن خطراً آخر قد ظهر هو خطر رد فعل مسلمي الاتحاد السوفياتي على الحرب. إذ كتب عشرة آلاف سوفياتي من الجمهوريات الاسلامية رسائل لسفارة العراق في موسكو يطلبون فيها رسمياً الذهاب الى الخليج للقتال الى جانب جنود صدام حسين.

أخيراً، آخر سرٍ وليس أقلّها أهمية: هل حدد العسكريون السوفيات لبغداد ساعة تحليق أقمار الاستطلاع الغربية فوق الشرق الأوسط وهل زوّدوها بالمعلومات حول الامكانيات التقنية لآلات التصوير المركَّبة عليها؟. ان ذلك قد يسمح لقوات صدام حسين بتمويه أفضل لمنصات اطلاق صواريخ سكود. ان العديد من الخبراء العسكريين الغربيين لديهم، في الواقع، القناعة بأن السوفيات قد سلّطوا بعض أقمارهم الصناعية على منطقة الخليج ونقلوا لبغداد جزءاً من المعلومات اثناء الشهر الأول للنزاع. على العكس، لم يقدم السوفيات لحلفائهم العراقيين صور المرحلة التي بدأ فيها الهجوم البري النهائي، بالرغم من أن اقمارهم الصناعية كانت قد كشفت استراتيجية الالتفاف على القوات المسلحة العرقية من ناحية الغرب وعلى الحرس الجمهوري في البصرة بشكل خاص. إذ أن اطلاع العراقيين على تلك الصور ربما كان قد سمح لهم بافشال مناورة القيادة المتحالفة.

ان شبكة هاتف الطوارىء الامريكية - السوفياتية (هولتن) أدَّت عملها على أحسن حال طيلة حرب الخليج. وهي نوع من الخط الأحمر المتطور جداً.

لقد تمّ تحسين هذه المنظومة في بداية عام ١٩٩٠، مما سمح بامكانيات الحوار ليس بين بوش وغورباتشيف فحسب، ولكن بين مسؤولي القيادة السوفياتية العليا ومسؤولي البنتاغون. وكان نقل الرسائل المتبادلة اثناء أزمة الخليج يتم بواسطة مركز اتصالات محمّي جداً في البنتاغون الذي يقوم ببرمجة رموزه (كوده). بعد ذلك كان يتم توجيه الرسائل الى محطة متحركة موجودة في منطقة الماريلاند التي ترسلها بواسطة الاقمار الصناعية الى مركز استقبال الجيش الأحمر في لڤيف. وكان يتم تحويلها من هناك الى مقر الاستخبارات العسكرية السوفياتية، بالقرب من موسكو، التي تقوم بايصالها الى الكرملين. كان مجمل الزمن الذي تتطلبه كل هذه التحويلات المرمَّزة أقل من دقيقة. كما تضاعفت قدرة هذا الخط اثناء أزمة الخليج كي يتثنّى للاخصائيين العسكرين في واشنطن وموسكو الحديث فيما بينهم وتبادل المعلومات.

وكان قد جرى التوقيع بتاريخ ١٥ سبتمبر (ايلول) ١٩٨٧ على اتفاق في العاصمة الامريكية حول انشاء مراكز لتقليص المخاطر، بحيث تكون هذه المراكز الموجودة في واشنطن وموسكو على اتصال مباشر مستمر مما يسمح لها مثلاً بالانذار عن عمليات اطلاق قد تجري خطأ أو عن انحرافات في مسارات الصواريخ البالستيكية أو النووية.

سمح هذا الاتفاق السري لكل من واشنطن وموسكو بالتواصل وتبادل الرسائل في كل لحظة من لحظات حرب الخليج. وتحددت الآلية السرية لذلك الخط الأحمر بواسطة بروتوكولات جرى التوقيع عليها على هامش اتفاق سبتمبر (ايلول) ١٩٨٧. إذ حدد البروتوكول الثاني الاجراءات التقنية المطلوبة لحماية المعلومات المتبادلة. اما الاقمار الصناعية العاملة في منظومة الاتصالات هذه فهي من طراز «انتلستات» على الجانب الامريكي ومن طراز «مولنيا» على الجانب السوفياتي.

وتنتمي أجهزة ارسال الوثائق المكتوبة واستقبالها (الفاكسات) الى المجموعة ٣ وتعمل بسرعة ٤٨٠٠ بود (وحدة السرعة في الاتصالات التلغرافية). وتبعث هذه الأجهزة رسائلها من موسكو الى واشنطن باللغة الروسية ومن واشنطن الى موسكو باللغة الانكليزية؛ لكن مجمل التجهيزات المستخدمة في هذه العملية هي من صنع امريكي، وكأن السوفيات لا يثقون تماماً بتكنولوجيتهم في ميدان حساس مثل اندلاع حرب نووية عن طريق حادث عَرَضي.

ان اختبار سلامة عمل هذا النظام يتكرر كل ساعة كاجراء احتياطي بالرغم من تجهيزاته المتطورة جداً والتي تنقل دون توقف الرسائل الأكثر غرابة والأكثر عادية والأكثر سلمية. فالامريكيون يرسلون غالباً تعليمات طريقة إعداد وجبات الطعام بينما يرسل السوفيات صفحات كاملة من كتاب دستوفسكي «الحرب والسلام» أو من كتاب غورباتشيف حول البرسترويكا.

لقد عمل ذلك الخط الأحمر بكل طاقته يوم ٢١ فبراير (شباط) ١٩٩١. وقد سمحت القيادة السوفياتية العليا بتسريب المعلومات التالية: «تلقت القوات الجوية السوفياتية الدفاعية الأوامر للتحرك في حالة خرق طائرات التحالف للمجال الجوي السوفياتي في منطقة القوقاز اثناء ملاحقتها للطائرات العراقية». يُفترض أن تلك التعليمات قد أعطيت للجنرال فلاديمير ليتغينوف. هل كان ذلك خداعاً أم حقيقة؟.

الفصل التاسع
السديم الارهابي

لم تفاجىء التهديدات، التي أطلقها وزير الخارجية العراقي طارق عزيز في مقابلة له مع صحيفة الفيغارو الفرنسية بتاريخ ٣١ اغسطس (آب) ١٩٩٠ الخاصّة باستخدام بغداد للارهاب، خبراء الارهاب التابعين لمجموعة «كيلوات» (وهذا هو الاسم الرمزي الذي يطلق منذ ١٩٨٦ على خبراء في الارهاب ينتمون الى ٢٠ بلد تقوم بتنسيق سياساتها المضادة للارهاب).

في فرنسا قامت أجهزة الاستخبارات المختلفة برصد الأماكن والجاليات التي يمكن أن تكون مراكز لتجنيد الارهابيين. وتمّ تحديد الأهداف المحتملة للارهاب. وذكرَ أحد المختصين بشؤون العراق وبارهاب الدولة بحادث احتجاز الرهائن في السفارة العراقية في باريس في شهر يوليو (تموز) ١٩٧٨ قبل أن يضيف: «لم يصب ارهاب الدولة منذ ذلك التاريخ فرنسا بينما ظهر مرّتان فقط في محاولتين فاشلتين في ڤيينا وبرلين عام ١٩٨٠ وأديا الى طرد دبلوماسيين كانا قد قدّما للفاعلين المتفجرات بقصد الاعتداء على مؤتمر القوميين الأكراد في المانيا وسفارة ايران في النمسا».

لوحظ ان اعمال الارهاب أصبحت في السنوات الأخيرة تستهدف العدو الخارجي أي ايران، أو العدو الداخلي أي الأكراد بشكل خاص. لكن هذا لا يمنع أن المخابرات العراقية استمرت بالاتصال مع مختلف القادة الارهابيين مثل كارلوس الذي يستخدم أحياناً جواز سفر عراقي باسم محمود البكر ويقطن في شقة في دمشق (قريبة من المطار).

وكان والد كارلوس قد صرّح في مقابلة له مع صحيفة «الناسيونال» الفنزويلية بتاريخ ٢٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٠ بأن ولده ذهب الى العراق.

وذهب كذلك الى بغداد جميع الارهابيين بحثاً عن المال والتعليمات. وكان العراق لفترة طويلة ملجأ المجموعات الارهابية الفلسطينية الهاربة من سيطرة م.ت.ف.

ضمن هذا السياق تمَّ استقبال مجموعة ابو نضال التي قامت بعدد كبير من الاعمال الارهابية خارج الشرق الأوسط مثل اغتيال عز الدين قلق في باريس ومسؤولين آخرين في م.ت.ف.

حاول العراق منذ عام ١٩٧٩ تحسين صورته في نظر البلدان الغربية واوقف دعمه، ظاهرياً على الأقل، للمجموعات الارهابية التي تسيء لسمعته.. في تلك الفترة ذهب ابو نضال الى سوريا ثم الى ليبيا. لكنه احتفظ مع ذلك بمكتب له في بغداد. ووضعت مجموعته اموالها للاستثمار في مؤسسة تجارية للاستيراد والتصدير مقرَّها العراق. وكانت أرباح العمليات التجارية مع الخارج خاصة في حقل تربية الدجاج تذهب لأبي نضال. ومنذ شهر ابريل (نيسان) الماضي يمتلك ابو نضال رسمياً مكتبين في قلب بغداد التي عاد اليها بعد مفاوضات اجراها معه عدي ابن صدام حسين. كان عدي قد «عاد للخدمة»، بعد عزله من مواقع السلطة عام ١٩٨٨ اثر قتله أحد حرس أبيه، واستلم أحد أجهزة الاستخبارات الخاصة. كما أرسل صدام حسين مبعوثيه الى ليبيا بعد الانقسام الذي حصل داخل مجموعة أبو نضال لتجنيد الاتجاه الأكثر تشدداً بواسطة مبالغ مالية كبيرة.

لقد تمّ فيما بعد تجميع مجموعات الكوماندوس التابعة لأبي نضال في معسكر سري بالقرب من الرمادي في ضواحي بغداد الغربية. كما ان وحدات خاصة بدأت بالتدريب مع أعضاء مجموعة ابي نضال على الارهاب الكيماوي والجرثومي. كانت هذه الوحدات قد تلقت تكوينها منذ عدة أشهر على يد خبراء المانيين شرقيين في عهد هونيكر. أمَّا معسكر التدريب فهو موجود في منطقة ابي علي في الصحراء، على بعد ٢٠٠ كيلومتر من بغداد.

ان استخدام مجموعة ابو نضال من قبل بغداد قد يكون خطيراً بسبب سهولة تمكنه من استخدام شبكاته بقصد خلق اضطرابات في مصر والمغرب والسعودية. وتمتلك المجموعة شبكات لها في الفلبين وتايلاند وتكوينات سرية في السويد والنرويج والدانمارك؛ اضافة الى بعض علاقاتها القديمة مع فرع الجيش الأحمر الالماني.

ويوجد في بغداد أيضاً قائد آخر هو ابو العباس رئيس جبهة التحرير الفلسطينية الذي كان وراء عملية اختطاف السفينة الايطالية اشيلي لاورو في شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٥. تمتلك مجموعة أبو العباس قاعدتين، إحداهما في ليبيا

بقيادة عبد غانم والأخرى في بغداد يرأسها ابو العباس نفسه.. ويُعتبر ابو العباس مسؤولاً عن محاولة انزال بحري فاشلة على الشاطىء الاسرائيلي في مطلع عام ١٩٩٠. يوجد معسكر تدريب جبهة التحرير الفلسطينية في أحد أحياء بغداد، وفتحت مكتباً للتجنيد في حمام الشط.

بتاريخ ٧ سبتمبر (ايلول) ١٩٩٠ حذرت وزارة الخارجية الامريكية العراق من القيام بأية أعمال ارهابية. واشارت الى أنه قد زاد دعمه في الاسابيع الأخيرة لعدة خلايا ارهابية كي تهاجم متى شاءت الامريكيين أو المصالح الامريكية في أوروبا والشرق الأوسط. وكانت الاقمار الصناعية للتنصت الالكتروني قد التقطت قبل أربعة أيام محادثات غريبة باللغة العربية جرت في عواصم اوروبية مختلفة. فزادت اجراءات الأمن لحماية الدبلوماسيين الامريكيين والبريطانيين والسعوديين والكويتيين. وتلقى الدبلوماسيون الامريكيون الذين يسافرون الى أوروبا تعليمات خاصة بالتعرف على الطرود أو الرسائل الملغومة. ودلّت معلومات جدية، من مصدر فلسطيني، على أن بغداد تقوم ببرمجة حملة من هذا النوع.

وكان ابو العباس قد أعدَّ خطة لخطف سفينة جديدة في البحر المتوسط. ونفذ، بتمويل عراقي، عملية فدائية ضد اسرائيل في شهر مايو (ايار) ١٩٩٠ كانت ستؤدي، في حال نجاحها، الى مقتل عدد من المدنيين الاسرائيليين على الشاطىء العمومي لتل أبيب.

اشتركت في اعداد تلك العملية ثلاثة اطراف تمثلت في الدعم اللوجستيكي الليبي والأموال العراقية ومجموعات الكوماندوس من جبهة التحرير الفلسطينية. كانت مكانة ابو العباس سترتفع لدى صدام حسين لو نجحت العملية كما كان الدعم لمنظمته سيزداد.

لقد بدأت عناصر تابعة لجبهة التحرير الفلسطينية (ج.ت.ف) تدريبها على العمليات العسكرية في شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٨. وتمّت عمليات التدريب منذ نهاية ذلك الشهر وحتى تنفيذ العملية في مواقع مختلفة في ليبيا، خاصة في احدى القواعد البحرية. وساهمت عناصر البحرية الليبية مباشرة في عمليات الاعداد العامة لتنفيذ الخطة.

كانت ليبيا تمتلك في ورشتها البحرية في بنغازي قوارب من النوع المستخدم في عملية ج.ت.ف. وقد تمَّ تعديل عدد من تلك القوارب التي يزيد طولها عن ثمانية

امتار وتصل سرعتها الى ٣٥ عقدة بحرية، في ليبيا كي يصبح بالامكان تزويدها برشاشات ثقيلة وبقاذفات صاروخية. وقد استولت اسرائيل على اثنين من تلك القوارب اثناء العملية.

في شهر ابريل (نيسان) ١٩٩٠ اشترت شركة يونانية سفينة تجارية اطلقت عليها اسم «ثيني ستار»، التي كان اسمها سابقاً «انغر - ام». وغادرت هذه السفينة قبرص بتاريخ ١٠ ابريل (نيسان) الى طرابلس في ليبيا. كان يُفترض أن تقل قوارب الهجوم وفدائيي ج.ت.ف الى مكان انطلاق العملية.

لقد ترافقت الحركات غير الاعتيادية لـ«ثيني ستار» في المياه الليبية بين نهاية ابريل (نيسان) ومنتصف يونيو (حزيران) مع نشاطات ج.ت.ف للاعداد لهجوم ٣٠ مايو (ايار)، ثم للأعمال التي نتجت عن فشلها. لقد شوهدت «ثيني ستار» في مطلع شهر مايو (ايار) في مرفأ طرابلس بليبيا. ثم ذهبت بتاريخ ٢٤ مايو (ايار) الى قاعدة بحرية شرق طرابلس حيث جرت عمليات تحميل قوارب الهجوم التي تمّ استخدامها في الهجوم. ومرّت السفينة بعد ذلك الى مرفأ رأس الهلال حيث صعد الى قمتها اعضاء ج.ت.ف. الذين ينبغي ان يشاركوا في الهجوم. كان عددهم ستة عشر شخصاً. توجهت السفينة بعد ذلك نحو نقطة الهجوم الواقعة غرب اسرائيل.

بعد أن تركت السفينة حمولتها من القوارب والرجال في البحر، ربما تكون قد توجهت باتجاه غرب جنوب غرب كي تندس بين مئات السفن التجارية القادمة من قناة السويس أو المتوجهة نحوها. ووصلت السفينة الى ميناء طبرق الليبي في منتصف يونيو (حزيران) قبل أن تعود الى طرابلس في آخر ذلك الشهر. ثم غادرت بعد شهر آخر طرابلس في طريقها الى مدينة «بيري» في اليونان حيث تقيم الشركة المالكة لها.

لقد صفّقت بغداد لهذا العمل الكبير، والذي أخفق لحسن الحظ.

ويتساءل بعض المسؤولين الفلسطينيين اليوم إذا لم تكن تلك العملية التي موّلتها بغداد ودعمتها ليبيا ترمي إلى إفشال الحوار الذي كان قد شُرع به منذ أشهر بين م.ت.ف والولايات المتحدة. ان ابا العباس، المولع بقراءة شكسبير، هو أحد أقرباء فاروق القدومي مستشار عرفات. انها قرابة عن طريق الزواج الثاني لأبي العباس.

هناك مجموعة فدائية أخرى مقرها بغداد هي مجموعة ١٥ مايو (ايار)، التي يرأسها حسين العمري، الملقب بـ«ابو ابراهيم». كان ابو ابراهيم قد أسس مجموعته

عام ١٩٧٨ بعد انشقاق داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وتقارب مع لبنانيين من الفروع اللبنانية الثورية المسلحة. وقد كونت هذه المنظمة عدة خبراء في الحقائب الملغومة. ودرَّب أحد أخصائيها هو ابو هواري عدة فدائيين مقيمين في ليبيا والعراق وسورية. كما ان القنابل التي فجرت طائرتي البانام الامريكية والسي دي ـ ١٠ التابعة لشركة النقل UTA كانت قد بيعت أو صنعت حسب تقنيات المجموعة المذكورة. وفي عام ١٩٨٥، استخدمت مجموعة ١٥ مايو (ايار) أحد التونسيين لتفجير مخزن مارك اندسبانسر في باريس.

وبتاريخ ٤ مارس (آذار) ١٩٨٧ القت الاستخبارات الفرنسية القبض على شبكة للمجموعة في باريس واستولت على ١٦ كيلوغرام من المتفجرات من نوع تروتيل (أحد مشتقات الـ ت.ن.ت). لكن الشك لم ينته إذ أن هذه المجموعة كانت قد اشترت اسلحة ومتفجرات أخرى.

وعززت بغداد صلاتها أيضاً مع مجموعة أخرى جيدة التنظيم مثل مجموعة طلعت يعقوب الذي توفي عام ١٩٨٨، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة الخاصة برئاسة ابو محمود، وحركة التحرر الشعبي العربي برئاسة ناجي علوش. وكذلك مع جبهة التحرير العربية المموّلة من قبل حزب البعث العراقي ويرأسها الجنرال عبد الرحيم أحمد، وجبهة النضال الشعبي بقيادة سمير غوشه التي تتواجد في شرق أفريقيا وخاصة في الصومال وجيبوتي. وتخشى الأجهزة الغربية من امكانية قيام عمليات من القرن الافريقي أو من مناطق أخرى من افريقيا حيث أمّن حضوراً هاماً له منذ عامين.

كما يراقب الفرنسيون باهتمام كبير المنظمات المستترة التي تشكلت بشكل سري جداً في بيروت، خاصة الحركة الاسلامية الثورية العالمية التي دعت الى قيام الاعتداءات ضد المصالح الغربية.. إذ أن هذا التكتيك يشابه الى حد كبير تكتيك حزب الله وحماته الايرانيين في فترة لجنة التضامن مع السجناء السياسيين العرب.

كانت استراتيجية تلك الحركات العابرة بسيطة وتتمثل في خلق حركات اسلامية مزعومة تخمد كستار من الدخان بعد كل عملية ارهابية. وكانت تهدف الى خلط الأوراق في أوروبا عبر الجمع بين التضليل الاعلامي والارهاب. هكذا قامت منظمة غريبة جديدة بارسال تهديدات الى معظم السفارات الغربية ـ فرنسا، انكلترا، ايطاليا، سويسرة، الولايات المتحدة ـ تهدد فيها بالحرب الارهابية الجرثومية

والكيماوية «منذ غداة الهجوم على العراق». واعلنت منظمة أخرى تدعى الحركة الاسلامية الثورية لتحرير الأرض المقدسة انها سوف تهاجم المصالح الغربية.

بالمقابل، كانت الأجهزة السرية العراقية قد خسرت، منذ أغسطس (اب)، احدى حلقات الحرب السرية في الخليج. إذ حاولت بغداد أن تضع يدها على المساجين اللبنانيين الشيعة الذين تمّ اعتقالهم منذ شهر مارس (آذار) ١٩٨٤ على اثر محاولة الاعتداء على سفارتي فرنسا والولايات المتحدة في الكويت؛ وكانت ترمي بذلك الى أن يكون لها كلمتها في موضوع الرهائن الغربيين في لبنان.

كان يوجد بين اولئك المساجين المدعو مصطفى بدر الدين المتزوج من شقيقة عماد مغنية أحد المسؤولين الاساسيين للجناح العسكري لحزب الله في لبنان؛ والمسؤول المباشر عن احتجاز الرهائن الغربيين في لبنان. وكان مغنية قد اشترط الافراج عن زوج شقيقته لاطلاق سراحهم. إذ كان حزب الله يريد استرداد بدر الدين باعتباره خبيراً في المتفجرات. كان اطلاق سراحه موضوعاً للمساومات مع السلطات الكويتية. وكانت عملية اختطاف طائرة البوينغ ٧٤٧ التابعة للخطوط الجوية الكويتية في شهر ابريل (نيسان) ١٩٨٨ التي دبَّرها حزب الله ترمي بالتحديد الى اطلاق سراح السجناء السبعة عشر المحتجزين في الكويت، ومن بينهم ابن عم مغنية.

حاولت الاجهزة العراقية وضع يدها، منذ بداية غزو الكويت، على هذه المجموعة الموجودة، كما يفترض، في السجن المركزي لمدينة الكويت؛ ثمَّ نقلها الى بغداد لاستعمالها اما كورقة مساومة مع حزب الله واما كوسيلة للضغط على مصير الرهائن الغربيين في لبنان.

لكن تلك المناورة باءت بالفشل. إذ روى احد اولئك المساجين الشيعة واسمه عبد العزيز كريم لصحيفة الحياة في بيروت ظروف هربه من السجن بصحبة زملائه ومغادرته الكويت بفضل وثائق رسمية زودتهم بها السفارة اللبنانية.

وقال انه بتاريخ ٢ اغسطس (آب)، وفي الساعة السادسة صباحاً أخبر أحد حرّاس السجن السجناء الشيعة ان العراق قد اجتاح الكويت، وان السجن يقع في المنطقة المحتلة. ونجح مساجين الحق العام البالغ عددهم ١٦٠٠ سجيناً في فتح احد ابواب السجن مساءً. فاطلق الحراس النار مما أدى الى سقوط عدة قتلى من السجناء الذين نجح بعضهم في صنع زجاجة مولوتوف حارقة واستخدموها لفتح باب آخر.

واستطاع اغلبية السجناء الشيعة الذهاب الى ايران والى لبنان بواسطة سفارتي هذين البلدين في البحرين وابو ظبي.

في مصر، نجحت اجهزة الأمن في كشف عشر شبكات ارهابية منذ بداية ازمة الخليج. كان اعضاء هذه الشبكات يمتلكون وسائل دعم هامة قادمة من الخارج، وخاصة من العراق. واستفاد بعض الارهابيين من تواطؤ بعض العناصر في الداخل حيث أمنّت لهم اسلحة وذخائر مصنوعة في مصر. كما عثرت الشرطة المصرية لدى احدى تلك المجموعات على مبلغ ٤٥٠٠٠ دولار وعلى قوائم باسماء شخصيات مسؤولة في مصر وبعناوين السفارات الأجنبية في القاهرة. وتمّ تقديم عشرة ارهابيين لمحكمة أمن الدولة؛ وأُلقي القبض في نهاية شهر سبتمبر (ايلول) على شبكة ارهابية في القاهرة تتألف من ثلاثة عراقيين كانوا قد اتخذوا من احدى البنايات مقراً لهم. وكان بحوذة هؤلاء جوازات سفر كويتية تمّ الحصول عليها بعد غزو الكويت.

وقُبض في الاسكندرية، في أواخر شهر سبتمبر (ايلول) على مجموعة كوماندوس قادمة من قبرص بحوذتها اسلحة ومتفجرات. واعترف اعضاؤها للأمن المصري ان الأجهزة السرية العراقية قد ارسلتهم بانتظار أوامر هامة جداً تقضي بالتأكيد باغتيال شخصية مصرية هامة.

بتاريخ ١٢ اكتوبر (تشرين الأول)، اغتيل رفعت المحجوب، رئيس البرلمان المصري. وكانت أجهزة مكافحة التجسس الغربية قد بدأت، منذ عدة اشهر، برصد نشاطات الأجهزة السرية العراقية.

كانت المجموعات الاسلامية تتحرك أيضاً بشكل خطير.

لقد حاولت الأجهزة السرية العراقية أن تجند بعض المتطوعين للقيام بعمليات ارهابية، اثناء انعقاد مؤتمر لمختلف الحركات العربية والاسلامية في عمّان بتاريخ ١٧ سبتمبر (ايلول). ودعا أحد المندوبين المقرّبين من العراق، الى القيام بعمليات انتحارية مذكّراً بالهجومات التي تعرّضت لها القيادات العامة للقوات الامريكية والفرنسية في بيروت عام ١٩٨٣.

ان الأجهزة السرية العراقية أعدّت عدة خطط لعمليات ارهابية لكنها لم تنفذها. كان الأمر يتعلق بمادة متفجرة لا توجد سوى لدى بعض الجيوش الغربية والجيش الاسرائيلي ولدى القوات السوفياتية الخاصة منذ عهد قريب. تدعى هذه المتفجرة الجديدة «متفجزة الرذاذ الجوي». وهي صعبة الاستخدام جداً. إذ يقول الخبراء انها

موجودة بشكل سائل وهي ذات اثر انفجاري كبير لكنه يتطلب تنفيذ سلسلة من الأعمال الدقيقة لا يمكن لأي شخص القيام بها . ويمكن تلخيص مراحل انفجارها بحدوث انفجارين حيث يوزع الانفجار الأول الرذاذ المتفجر على شكل غيمة متجانسة قطرها عشرين متراً، ثم يأتي الانفجار الموقوت بجزء من المائة من الثانية بالقرب منها بغية تأمين اشتعال الغيمة. تبرز عند ذلك كتلة من النار على شاكلة الفطر وكأنها انفجار نووي صغير. وتتسم آثارها الفيزيائية باحداث حروق من الدرجة الثالثة داخل دائرة قطرها ٥٠٠ متر.

وقد قال أحد خبراء عمليات حرب العصابات البحرية في الخليج ان «هذه العمليات أكثر فعالية بالتأكيد ضد السفن أو ضد طوربيد أو صاروخ أكزوسيت، لكن مجموعات الكوماندوس الانتحارية العراقية المحمولة على متن قوارب محشوة بذلك النوع الجديد من المتفجرات كانت تستطيع ايقاع خسائر جسيمة جداً. هذا بالاضافة الى ان انفجاراً من هذا النوع كان سيثير زوبعة من الهواء الحار في دائرة مساحتها حوالي هكتار من الامتار المربَّعة، مع التشويش على اتصالات الراديو في المنطقة كلها لعدة دقائق، أي لمدة الزمن الكافي لوصول الصاروخ العراقي الى هدفه». وربما كان ذلك هو الهدف المنشود. وكانت قد تمَّت أيضاً برمجة عمليات أخرى بواسطة استخدام الطائرات الشراعية المحشوَّة بالمتفجرات. لكن المرشحين للانتحار كانوا أقل مما كانت تتصوره الأجهزة العراقية التي كانت قد حاولت أن تجد الفرق الانتحارية في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

وفي المانيا، خشيت أجهزة الاستخبارات قيام عمليات ارهابية تنفذها عناصر فلسطينية كانت قد تواجدت في المانيا منذ فترة طويلة، وربما دخلت في اتصالات مع فرع الجيش الأحمر الالماني الموالي للقضايا العربية. واكتشف جهاز مكافحة التجسس السويدي شبكة ارهابية كان اعضاؤها يستعدون للدخول الى هولندة وبلجيكا وفرنسا. وألقت الشرطة اليونانية القبض على خمسة عشر عراقياً واردنياً كانوا يستعدون للقيام بأعمال تخريب في اليونان وتركيا. كما خبأ ارهابيون مواد متفجرة في ليماسول بقبرص بانتظار تمريرها الى اسبانيا وفرنسا.

لقد اعلنت منظمة ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني) اليونانية مسؤوليتها عن عدة أعمال ارهابية شهدتها اليونان مؤخراً. وتُعتبر هذه المنظمة أحد أخطر المنظمات في العالم، إذ أن الشرطة اليونانية لم تفلح في القاء القبض على أي عضو من اعضائها.

لقد سبق واغتالت هذه المنظمة عدداً من الدبلوماسيين الامريكيين، وخططت اثناء أزمة الخليج لاغتيال عدد من الدبلوماسيين في اثينا؛ الأمر الذي استدعى تشديد الحراسة حولهم. كما انكب عدد من المحللين النفسيين الأوروبيين على اعداد دراسات حول الدوافع النفسية للحركات الارهابية، وخاصة حركة ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني)، وقد جاء في احدى الدراسات حول هذه الحركة ما يلي:

«تقدم حركة ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني) الدليل، من وجهة نظر نفسية، على ذكاء فطري ومعرفة جيدة بالاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع. وتدل نشاطات هذه الحركة على ان اعضاءها قد اكتسبوا تكويناً عقائدياً ماركسياً من مستوى جامعي، كما تلقوا تدريبات عسكرية أو شبه عسكرية أولية. لذلك تبدو الأعمال الارهابية، في الواقع، وتصريحاتهم وكأنها صادرة عن هواة موهوبين وليس عن محترفين محكمي التدريب. وفي الوقت الذي ابدى فيه اعضاء المنظمة مرونة تكتيكية مخيفة في مجال نصب الكمائن والسرقات، فإنهم أظهروا قلة كفاءة مشهودة في السيطرة على المظاهر التكتيكية والتقنية لعمليات التفجير. ان تلك المرونة في التكتيك تتعارض الى حد كبير مع القساوة المفرطة التي تتسم بها بقية مظاهر سلوكهم. هذه القساوة هي السبب في الاغتراب التدريجي للقوى التقدمية في اليونان حالياً».

منظمة ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني)، بلزاك، نيتشه، دوستوفسكي.

ترجع منظمة ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني) في تصريحاتها غالباً الى مؤلفات بلزاك. إذ ربما أن قادة المنظمة قد قرأوها عندما كانوا في سن المراهقة، وأعجبتهم التعليقات الاجتماعية لذلك الكاتب. وكثيراً ما يشبه الارهابيون أو المجرمون انفسهم بعناصر ثقافية معروفة (كانت مجموعة شارل مانسون تجد تبرير أعمال القتل التي تقوم بها في اغاني فرقة البيتلز كما يجد الكثير من القتلة مرجعياتهم في الانجيل... الخ).. مهما يكن من أمر، ان منظمة ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني) اعلنت عن ميل نحو النخبوية من خلال اعتمادها على كاتب تمّت ترجمة مؤلفاته الى اللغة اليونانية حديثاً. ارادت المنظمة أن تلعب دوراً طليعياً مثل أولئك القادة الذين يجلبون الحقيقة من الخارج ويقدمونها لـ«الجماهير الكادحة». وبالرغم من أن المنظمة تزعم انها

تشكل جزءاً من «الكوميديا الانسانية» التي كتبها بلزاك، فإن اعضاءها قد يجدون انفسهم، لأسباب بسيكولوجية، أقرب منطقياً الى نيتشه أو في «الجريمة والعقاب»، تلك الرواية الجميلة التي كتبها فيودور دستوفسكي.

وكان الانذار بالخطر فعلياً في افريقيا إذ تلقى سفير السعودية في السنغال تهديدات بالقتل، كما تهددت مصالح فرنسا في الكاميرون ونيجيريا وموريتانيا. وقامت مجموعات كوماندوس بريطانية بحماية الدبلوماسيين الانكليز في السودان. إذ يتمتع ابو نضال بوجود مكتب له في الخرطوم وبوحدات مسلحة في قاعدة «وادي سنده» العسكرية؛ مسلّحة بـ«أسلحة كيماوية» حسب قناعة الأجهزة المصرية الخاصة.

كما ساد قلق كبير من التواجد العراقي الكبير في جيبوتي ومن تسليم العراق لهذا البلد قاذفات قنابل من صنع سوفياتي كانت قد طلبتها شركة شكلية مبهمة مقرّها النمسا واسمها «سكوربيون للخدمات». وجنّد العراق أيضاً عناصر في التشاد عندما قدّم اسلحة لجيش حسين حبري.

وفي آسيا، اقام ابو نضال والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش علاقات مع الجيش الأحمر الياباني ومع جبهة تحرير التاميل والجيش الشعبي الجديد في مانيلا ومع عناصر حرب العصابات التايلانديين. وفي منتصف شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٠ اتصل مسؤولون عراقيون بالجناح السياسي للحزب الشيوعي الفلبيني، أي الجبهة الوطنية الديمقراطية. وتمّ الاتفاق على مهاجمة المصالح الامريكية في الفلبين. ونفذ العمليات الجناح العسكري للحزب الشيوعي الفلبيني، أي جيش الشعب الجديد.

لقد أمر رئيس الشرطة التايلاندية بحراسة مستمرة لسفارات البلدان المتحالفة في حرب الخليج ضد العراق. الأمر الذي سمح بكشف شبكة هامة.

وبتاريخ ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٠، قُتل عراقي وجرح زميله اثناء محاولة وضع قنبلة تستهدف دبلوماسيين غربيين. وأوصل التحقيق الشرطة التايلاندية حتى سفارة العراق في بانكوك. فمسؤول العملية كان الملحق التجاري العراقي في تايلاند بعد أن كان قد طُرد من الولايات المتحدة في شهر اكتوبر (تشرين الأول). وكان يُفترض أن يستقبل خبيراً بالمتفجرات من مجموعة أبو نضال هو محمود المحمد. اما تمويل العملية فقد قامت به شركة «بابل للتجارة» في بانكوك. ووجد المحققون في

حديقة تلك الشركة وثائق تثبت أن أعمال عدوان أخرى كانت في سبيلها للتنفيذ في القارة الافريقية. كما ان الحكومة الفرنسية أجَّلت، كاجراء احتياطي، الاجتماع السنوي لسفراء فرنسا في افريقيا الذي كان يُفترض انعقاده في باريس بتاريخ ٢٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١. ونُصح السفراء بتجنب استخدام الطائرات في تنقلاتهم حتى اشعار آخر.

كانت الاخطار جدية، لا سيما وأن تقارير سرية للحلف الاطلسي قالت بأن عدة سفارات عراقية في أوروبا تحتوي على مخابىء للأسلحة والمتفجرات. كما خدمت شركات غريبة انشئت حديثاً باموال عراقية كغطاء لتلك المجموعات الارهابية.

وقد دلَّ تقرير سري (نشرته جزئياً مجلة الدفاع والتسليح الدولي في عددها لشهر يناير (كانون الثاني) ١٩٩١) على وجود خمسة مراكز أساسية لتنظيم الارهاب هي: اثينا وبرلين وجنيف وڤيينا ووارسو. وحدد التقرير قوله ان اثينا كانت مركزاً للنشاطات، ليس بالنسبة لسوريا فقط ولكن بالنسبة لقبرص أيضاً. وهي أحد أكبر المراكز في أوروبا حيث توجد عناصرٌ أساسية مثل عبد السطن ياسين ووليد عاصم محمد العاملين في السفارة العراقية.

في برلين جند العراقيون عملاء لهم بالاعتماد على الجالية العربية الفقيرة. وقد أشرف على العملية هيثم العاني الملحق الثقافي في السفارة العراقية في برلين الشرقية والذي كان متورطاً في عملية قطع المفاعل النووي الايطالي التي سرقها العراقيون خلال عامي ١٩٨٢ / ١٩٨٣. كما انه المسؤول العراقي عن الاتصال بالأجهزة السرية العربية في أوروبا.

في ڤيينا، يوجد مركز تجاري كبير للتعامل مع بغداد يديره سعد مجيد، العراقي العامل في السفارة، والذي يدير ايضاً العمليات ضد المعارضين العراقيين. وقد تمَّت «تصفية» ثلاثة عراقيين كانوا يعملون في مؤسسات تجارية عراقية في ڤيينا بسبب اكتشاف اختلاسهم مبالغ مالية وايداعهم لها في حساباتهم المصرفية الشخصية.

في وارسو، تشكلت خلية اتصال مع المنظمات الارهابية الفلسطينية العاملة في اوروبا الغربية. المشرف الرئيس على العملية هو عبد الملك العبيدي، السكرتير الأول في السفارة العراقية. وكانت باريس قد طردت سراً بتاريخ ١٦ سبتمبر (ايلول) عقيد عراقي هو بسيم الفتحه، الذي كان يشرف على تسيير شبكة ارهابية ويزودها بالعناصر من الطلبة المزيَّفين. وقد تلقت السفارة العراقية في فرنسا بعد اجتياح

الكويت بقليل مكالمات هاتفية من مناضلين يعرضون خدماتهم. كما اعدَّت لائحة باسماء المتطوعين من قبل دبلوماسيي السفارة الذين كانوا يذهبون سراً الى الضواحي الباريسية لتسجيل اسماء وعناوين المناضلين الاسلاميين أو العرب الذين اتصلوا بالسفارة أو حضروا اليها.

أمام هذا السيل من الشبكات الارهابية لاذت الحكومات الغربية الى السرية في العمل كي لا تثير هلع السكان. لكنها اتخذت في الوقت عينه اجراءات استثنائية.

لقد بدأت فرنسا منذ تاريخ ٢ يناير (كانون الثاني) تطبيق خطة «ڤيجيبرات»، المصنَّفة تحت خانة «سري خاص بالدفاع». وكانت نصوص هذه الخطة قد وُضعت بالأصل منذ عام ١٩٧٨ عندما كان ريمون بار رئيساً للوزراء. لكن رئيس الوزراء الحالي اراد احياءها وتطبيقها بقرار خاص منه حيث انها لم تطبَّق عام ١٩٧٨ بالرغم من اعداد مرسوم خاص بها بتاريخ ٧ فبراير (شباط) من تلك السنة، ويحمل الرقم ١٨٠ - ٧٨.

وفي الوقت نفسه، أخرج خبراء الأمانة العامة للدفاع الوطني خطط بيراتير (مراقبة خطف الطائرات) وبيراتوكس (مراقبة التهديدات الكيماوية) وبيراتوم (مراقبة الاخطار النووية). دخلت هذه الاجراءات المضادة للارهاب في البداية بأول مرحلة منها والمتمثلة في زيادة حماية المباني الرسمية وتشديد الاجراءات في المطارات خاصة بالنسبة للرحلات المسماة حساسة. وتطور تطبيق خطة ڤيجيبرات بمقدار تزايد خطر الارهاب. إذ تمَّ في مرحلة لاحقة تصعيد الرقابة على الحدود وفي محطات القطار والمترو والأماكن العامة.. كما تنص المرحلة القصوى من تلك الخطة على زيادة الرقابة على أكثر من نقطة حساسة داخل التراب الوطني الفرنسي مثل مستودعات المحروقات والمنشآت العسكرية ومستودعات تخزين التغذية والمياه والمفاعلات النووية. وكان يدير الخطة «دكران شيثيدجيان» أحد أفراد الشرطة الجنائية سابقاً وأحد أهم العارفين بالنضال ضد الارهاب.

وبُدِيء بالوقت نفسه باجراء تحقيق حول النشاطات الحقيقية للشبكات العراقية، اشترك فيه جهاز مراقبة التراب الوطني والاستخبارات العامة وشرطة الادارات العامة.

لم يكن طرد تسعة عشر عربياً من مختلف الجنسيات من فرنسا سوى احدى عمليات برنامج معدَّ لتجنب محاولات دفع مشاعر الجاليات العربية والاسلامية في فرنسا الى حد استخدام العنف. إذ كان المطرودون يقيمون شبكة حقيقية مع نقاط

ريط في ضواحي باريس. وكانت مهمة أحد المطرودين، وهو عبد الرحمن الحفيان، مسؤول الطلبة السوريين المعارضين للرئيس حافظ في فرنسا، هي تنظيم معارضي نظام دمشق القريبين من بغداد. كما كان على صلة مع معارض سوري آخر بقصد العمل على تنفيذ تلك المهمة، هو أحمد سليمان، الذي كان قد طُرد هو الآخر نحو بغداد في شهر سبتمبر (ايلول). وكان المنجِّد ومحمد جوجو ومحمد القطاوي، وثلاثتهم من المعارضين السوريين اللاجئين اليوم الى بغداد، أعضاءً في تلك الشبكة.

وكانت مهمة مطرود آخر جزائري الجنسية، هو عبد الملك كود تتمثَّل في تنظيم الجاليات الاسلامية في منطقة مرسيليا والشاطىء اللازوردي. وكان ينبغي أن يعد بيانات وكتيبات تدعو للتمرد وللدفاع عن صدام حسين. وكانت له صلة مستمرة مع بغداد التي أقام بها في الفترة الواقعة بين ١٠ و١٣ يناير (كانون الثاني). وهو أحد أعضاء الاتجاه المتشدد في جبهة الخلاص الاسلامي في الجزائر؛ أي الاتجاه الذي يقوده ابو أمين بن عزوز نائب رئيس تلك المنظمة.

وتمَّ أيضاً طرد طالبين عراقيين.. كان أحدهما قد استأجر شقة في ضاحية انيير الباريسية لكي تكون نقطة عبور للفلسطينيين من أعضاء المنظمات المتطرفة الراغبين في القدوم الى فرنسا لتحضير بعض العمليات. اما الثاني فقد كان أحد ممثلي شبيبة حزب البعث في فرنسا. وكان يبحث عن الاتصال مع مختلف الطلبة الفلسطينية؛ ويعمل بالتنسيق مع جبهة التحرير العربية. وكان قد قام بعدة رحلات بين باريس وبغداد التي كان يعود منها وبحوذته مبالغ مالية هامة مخصصة لطباعة مناشير وكراسات الدعاية العراقية.

وكان من بين المطرودين المدعو سمير خيري الذي كان يتصرف بمبالغ مالية هامة ويعيش حياة رفاهية وبذخ حيث كان مديراً لمجلة «كل العرب» التي هي اداة للدعاية العراقية. وكان مكلفاً بالاتصال مع عدد من المطابع من أجل نشر الصحف ذات الولاء العراقي والتي اغلقت ابوابها وتوقفت عن الصدور بسبب الديون الكبيرة المترتبة عليها لمالكي مقرَّاتها. اذ ان محكمة بوبيني حكمت على مطبعة عراقية في بانتان بدفع مبالغ مالية كبيرة لتسديد قيمة الايجارات المتخلفة لشركة «أتيك». لقد ازعج هذا القرار القضائي الدعاية العراقية في فرنسا لأن عملاء العراق في تلك المطبعة كانوا يستطيعون انتاج صحف الدعاية العراقية الأخرى مثل: الحوار واليسار العربي والرواق والجالية العربية.

كما كان من بين المطرودين شخص مغربي هو محمد بوطي، وهو عضو في جبهة الخلاص الاسلامي. كان دوره يتمثل في توزيع أشرطة التسجيل ومواد الدعاية في منطقة جنوب غرب فرنسا وفي انشاء مطبعة سرّية في بوردو.

أما ما يخص جبهة الخلاص الاسلامي، فلقد ذهب عدد من كوادر حزب الله اللبناني الى الجزائر بغية بناء الجهاز العسكري للمنظمة. الأمر الذي أثار القلق لأن اللجان التي تشكلت لدعم العراق، بمبادرة من جبهة الخلاص الاسلامي، استطاعت أن تجمع ٢٥٠٠ مقاتل في الجزائر وتونس. وقامت فرنسا بمنع بيع سلسلة من أشرطة التسجيل المحتوية على أغنية المطرب الجزائري محمد مازوني. وكان يُفترض ان يتم توزيعها داخل اطار المنظمات الاسلامية ومن قبل المسلمين في فرنسا وفي المغرب.

لقد سمح تطبيق خطة ڤيجيبيرات واثرها على القطاعات الاقتصادية والاستراتيجية والعسكرية في فرنسا باكتشاف بعض مواطن الضعف. وقد قال موظف كبير يعمل في حقل الدفاع: «لقد سمحت خطة ڤيجيبيرات خلال وقت قصير بتقدير أكثر موضوعية وأقل روتينية للتهديدات». مع ذلك يحافظ مسؤولو النضال ضد الارهاب على حذرهم إذ أن التهديدات لا تزال قائمة بعد نهاية حرب الخليج.

لم تعرف فرنسا موجة ارهاب شبيهة بتلك التي عرفتها عام ١٩٨٦. وهذا ما تفسره عدة عناصر. فالعراق لم يعد يمتلك المال والمنظمات الارهابية شرهة للمال. الأمر الذي دفع ابو نضال مثلاً الى تفضيله التقرب من بعض الوسطاء ورجال الأعمال المقرّبين من مسؤولي الخليج. كما لعبت الحرب النفسية دوراً كبيراً.. اذ نصح السوفيات صدام حسين مرات عديدة بعدم اللجوء الى الارهاب بل محاولة كسب الرأي العام باللعب على مسألة حساسية الرأي العام الغربي حيال مسألة الضحايا من المدنيين في العراق. وكان من الصعب على صدام حسين أن يلعب على الوجهين في الوقت نفسه والمتمثلين في اظهار صورٍ للضحايا المدنيين نتيجة للقصف من جهة، وتنظيم أعمال ارهابية عمياء تصيب اهدافاً مدنية في أوروبا من جهة أخرى. ولم يعط صدام حسين الضوء الأخضر لعمليات ارهابية في الولايات المتحدة مع ان برمجتها كانت قد تمّت للمرة الأولى. إذ وصلت اليه الكثير من الرسائل الواضحة التي تدل على أنه في حالة قيام عمليات اعتداء على المصالح الامريكية، خاصة فوق التراب الامريكي، فإن الامريكيين سيعملون على تقديمه امام محكمة دولية وبانهم سوف لن يترددوا في القيام بحملة تأديبية على ملجأه الخاص في بغداد.

كما إن المنظمات الارهابية الكلاسيكية لم تعد تستطيع الاعتماد على قواعد انكفاء، كما كان الأمر في الماضي، في بلدان أوروبا الوسطى وخاصة المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا. فقط هناك بعض المجموعات لا تزال تتمتع بوسائل للحركة في بلغاريا، حيث كان دبلوماسيون امريكيون على وشك أن يسقطوا ضحية للاغتيال، وفي يوغسلافيا. وضغطت بلدان تقوم تقليدياً بحماية مجموعات ارهابية، مثل سوريا واليمن، على تلك المجموعات كي تبقى حيادية. بكل الأحوال عقدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة التابعة لأحمد جبريل اتفاقيات مع الحكومة الايرانية.

لقد أدّت خطة ڤيجيبيرات الغرض المطلوب منها، كما يبدو، وقامت الشرطة الفرنسية بفترة لا تتعدى الشهر ونصف الشهر بمائة عملية ضد الارهاب في المنطقة الباريسية وحدها. وأجرت عمليات تفتيش واستجواب كلما استدعت المعلومات المتوفرة ذلك، طبقاً لقانون ١٩٨٦.

لكن يتوجب الحذر دائماً. فالارهاب طبقٌ من الطعام يؤكل بارداً، كما كان يردد ابو اياد، مساعد ياسر عرفات السابق والذي اغتيل بتاريخ ١٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١ في تونس.

مأساة منظمة التحرير الفلسطينية

ولد ابو اياد، واسمه الحقيقي صلاح خلف، في عام ١٩٣٣، وكان ينتمي مثل بقية مؤسسي حركة فتح الى البورجوزاية الفلسطينية الصغيرة؛ وعمل قبل دخوله في المقاومة النشيطة معلّماً في الكويت. وكان يمتلك مسكناً في امارة الكويت فتشه الجنود العراقيون وسلبوه بعد غزو الكويت. في عام ١٩٦٧، اصبح دوره رئيسياً داخل منظمة التحرير الفلسطينية إذ انيطت به مسؤولية مكافحة التجسس. كانت حساباته المصرفية وخزائنه فارغة. اما الأمر الذي كان يُقلق أكثر من غيره رئيس أجهزة استخبارات م.ت.ف فقد تمثل في هجرة المائتي الف فلسطيني من الكويت والذين لم يلقوا معاملة أفضل من الكويتيين. وجرى اعتقال العديد من الفلسطينيين الذين رفضوا الالتزام الى جانب القوات العراقية، وتعرّض آخرون للتعذيب فطلبت عائلات هؤلاء المساعدة من ابي اياد الذي تشكّى من الأمر مرّات عديدة لدى القادة

العراقيين. بل فكَّر بارسال بعض رجاله الى الكويت لاجراء تحقيق وحماية بعض الأسر. أدان صدام حسين هذه العملية شخصياً. ووجه سيد بغداد عدة رسائل قاسية الى قادة م.ت.ف أخبرهم فيها أن العراق لم يعد يقبل بالدعم الشفهي الذي تقدمه المنظمة له وهو يطالب باعمال حربية. كان يتوجب عليهم أن يفهموا أن المقصود هو أعمال ارهابية. واتخذ مجلس قيادة الثورة العراقية قرارات في هذا الاتجاه طالب فيها المنظمات الفلسطينية للاستعداد لجميع الاحتمالات. كان الأمر يتعلق بالقيام بأعمال ارهابية ضد البلدان الداخلة في التحالف ضد العراق وضد اسرائيل في أوروبا والولايات المتحدة. واقترحت الاجهزة السرية العراقية خمسين هدفاً تتضمن شخصيات كبيرة في العالم العربي، خاصة في السعودية والامارات ومصر أو اغتيال شخصيات من الحكومة الكويتية في المنفى، على سبيل المثال.

وحدثت ملاسنة عنيفة بين الشخصية الثانية في م.ت.ف وبين ابراهيم سبعاوي ابراهيم التكريتي رئيس أجهزة الاستخبارات العراقية وأخ صدام حسين الذي كان يعيب على ابو اياد مواقفه المعتدلة في أزمة الخليج. كان صدام حسين يفكر باجراء مصالحة بين ابو نضال وم.ت.ف. كتعبير عن رغبة بغداد في المحافظة على وحدة المنظمات الفلسطينية طيلة فترة ازمة الخليج على الأقل. فأجرت الأجهزة العراقية اتصالات للوساطة لكن أبا أياد رفض بشكل قاطع فكرة اللقاء مع رئيس فتح، المجلس الثوري. بعد عدة أيام من هذا الرفض اغتيل ابو أياد في تونس بتاريخ ١٤ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١، أي قبل ثلاثة أيام من اندلاع حرب الخليج.

كان ابو اياد موجوداً في غرفة بالطابق الأرضي في «الفيللا» التي يقطنها في قرطاج ابو الهول مسؤول الأمن الداخلي في م.ت.ف. كان معهما أيضاً فلسطيني ثالث هو فخري العمري. كان الثلاثة يناقشون الوضع في الخليج، إذ كان ابو الهول عائداً من بغداد؛ وأكدَّ انزعاج القادة العراقيين من الموقف الرخو جداً لأبي أياد ولقادة آخرين في م.ت.ف. وفي الساعة ٢٢,٥٠ دخل حارس «الفيللا» المدعو حمزة ابو زيد الى الغرفة التي كان القادة الثلاثة فيها، بحجة الاتصال الهاتفي ولتسليم رسالة ملحة الى ابي الهول، فقد كان أحد حرَّاسه الخاصين. دخل عليهم وأفرغ نصف الرصاصات الموجودة في ملقّم رشاشه على أبي اياد وفخري العمري. عندها نهض ابو الهول وحاول الحصول على السلاح فأرداه حارسه قتيلاً.

دلَّ تحقيق الشرطة التونسية وتحقيق اجهزة م.ت.ف أن القاتل تلقّى تدريباً على

الأعمال الارهابية في سوريا ويوغسلافيا، ثم التحق بفتح - المجلس الثوري في تونس في شهر أغسطس (آب) ١٩٨٤. بعد عامين، غادر م.ت.ف الى هنغاريا بجواز سفر اردني مزوَّر تحت اسم آصف المندي. كما أقام في قبرص قبل أن يتوجه الى بولونيا للاقامة عام ونصف العام. كان ابو نضال يمتلك في تلك الفترة شركة تجارية في وارسو اسمها «ساس». وفي نهاية شهر مايو (ايار) سافر الى يوغسلافيا حيث قابل أحد مسؤولي جهاز استخبارات فتح - المجلس الثوري، اسمه سمير، واقترح عليه هذا المسؤول التسلل الى م.ت.ف وخاصة الى جهاز الاستخبارات والأمن فيها.

عندما وصل الى تونس التقطه ابو الهول، المشهور بحذره، وعيَّنه أحد حرَّاسه الشخصيين وأسكنه في منزله.

لماذا اختير ابو اياد كهدف؟. أولاً بهدف تحميل المسؤولية لجهاز الموساد الاسرائيلي واثارة ردود فعل كبيرة في الأراضي المحتلة ثم للخلاص من شخصية فلسطينية مخلصة تتبنى سياسة لها أهدافها على المدى الطويل، كما سبق وتمّ استقبالها في الحلقات الأكثر ضيقاً على مستوى الدبلوماسية ومستوى الأجهزة السرية في البلدان العربية المعتدلة؛ والغربية أيضاً. وكان صدام حسين يعيب عليه دائماً ارادته في القضاء على المنظمات الفلسطينية المتطرفة مثل منظمة ابو نضال الذي كان اشتكى، لدى بغداد، خاصة من أن أبا أياد قد نجح في اختراق حركته واسترد الى تونس أهم سياسيي فتح - المجلس الثوري، مثل عاطف ابو بكر، المستشار السياسي السابق لأبي نضال. لقد عاد هذا الفلسطيني الى صفوف م.ت.ف والى معسكر ابي أياد. وهو أيضاً أحد أولئك الذين يعرفون حق المعرفة العلاقات المتقلبة لكن القوية بين العراق وابو نضال. وعندما قابلته في مكان ما من بلدان المغرب، برفقة دومينيك ناسبليز رئيس تحرير «صحيفة البرلمان»، كان القلق يبدو عليه. وقال: «لا يزال ابو نضال يستطيع أن يسبب أذىً كبيراً للقضية الفلسطينية. وأتأمل أن لا يدفعه العراقيون للقيام بعمليات ستعود ضدنا».

لقد تابع ابو بكر، الناطق الرسمي السابق باسم رئيس فتح - المجلس الثوري، دراساته في جامعة بغداد، والتحق بجماعة ابو نضال عام ١٩٨٥. وكان يلتقي معه مرّات عديدة في اليوم؛ وقد قبل هذا الشاهد المتميز أن يجيب على اسئلتنا. بعد قصف اسرائيل للمفاعل النووي العراقي، طلب صدام حسين من ابي نضال القيام بعمليات ضد اسرائيل والمصالح الغربية والمؤسسات اليهودية في اوروبا. وكان ممثلو

الأجهزة العراقية في كل سفارة للعراق يقدمون الدعم اللوجستيقي لضباطه. وكانت الاستخبارات العراقية هي التي تشرف على تكوين الكوادر العليا للمنظمة. كما تلقى أبو نضال في تلك الفترة أكثر من ١١ مليون دولار من العراق. وقد أودع القسم الأكبر من هذا المبلغ في بنوك سويسرية حيث تمَّت اعادة تدويره في اعمال العقارات أو في صفقات السلاح. ان ابا نضال أغنى ارهابي في العالم، بفضل العراق. إذ يمتلك في البنوك السويسرية ثروة تقدرها المصادر الفلسطينية بـ ٢٠٠ مليون دولار جاءت من تجارة السلاح وتهريب المخدرات وابتزاز الأموال. وقد ربح ابو نضال مبلغ ٤٠٠ مليون دولار من صفقة سلاح مع بولونيا في أواسط سني الثمانينات. وكان يبيع الى الجهتين المتحاربتين في حرب الخليج؛ الأمر الذي أضجر صدام حسين من سلوكه.

وخلال الصيف الماضي، قبل غزو الكويت، سافر عدي صدام حسين، ابن الرئيس العراقي، الى ليبيا سراً واقترح على رئيس فتح - المجلس الثوري صفقة جديدة يعود بموجبها الى بغداد حيث يفتح مكاتب ومعسكرات للتدريب ويزوِّد اعضاء مجموعته بجوازات سفر عراقية وتقدِّم لهم تسهيلات في السفارات العراقية. في الوقت نفسه حصل ابو نضال، بناءً على نصيحة الأجهزة العراقية، على مكتب له في الأردن. وكان ابن أخيه عبد الكريم البنَّا هو الشخص الذي ذهب الى عمَّان وفاوض رئيس أجهزة الاستخبارات الاردنية، مصطفى القيسي.

هل أقدم ياسر عرفات على مخاطرة، كما يخشى بعض القادة الفلسطينيين، عندما ربط بطريقة صريحة جداً مصير م.ت.ف مع مصير العراق؟ لكن هل كان له خيار آخر في الواقع؟. لقد ظهر صدام حسين افضل سند للفلسطينيين بعد خروجهم من بيروت عام ١٩٨٢ اثر الاجتياح الاسرائيلي للبنان. وتقاربت م.ت.ف أكثر فأكثر من بغداد مع المحافظة على العلاقة مع ملكيات الخليج الكبيرة؛ لكن مثيرة في الوقت عينه نقد سوريا الشديد. كانت ملكيات الخليج تقدم كل عام ١١٥ مليون دولار لـ م.ت.ف؛ منها ٨٧ من السعودية. لكن بعد غزو الكويت، كان فاروق القدومي في القاهرة كي يرأس مجلس وزراء الجامعة العربية، بصفته وزيراً لخارجية م.ت.ف فبذل جهوداً كبيرة من أجل تجنب اصدار ادانة قاسية للعراق بينما كانت البلدان الاعضاء في مجلس تعاون الخليج تحاول الاجتماع على انفراد كي تصيغ مشروع قرار اثار رئيس الوفد الفلسطيني. وقال: «لن يمر مشروع أي قرار من فوق رؤوسنا». لقد أغضب هذا الموقف ولي عهد الكويت ورئيس وزرائها الشيخ سعد. وتذكر تاريخ

٢٥ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ الذي أنقذ فيه حياة ياسر عرفات.

في تلك الفترة، كان الشيخ سعد أحد أعضاء وفد عربي جاء الى الاردن للتفاوض مع الملك حسين حول وقف العمليات العسكرية الجارية ضد الفلسطينيين. واستطاع رئيس م.ت.ف المحاصر آنذاك في العاصمة الأردنية، أن يلجأ الى مقر الوفد العربي المكلّف بالمفاوضات. وكان ينبغي خروج ياسر عرفات من الأردن الى مصر، كحل تمّ التوصل اليه اثر محادثات بين رئيس م.ت.ف والمبعوثين العرب. فما كان من الشيخ سعد إلا أن خلع ملابسه التقليدية واعطاها لياسر عرفات الذي استطاع الخروج بملابس ولي عهد الكويت التي خدعت حرّاسه وطار الى القاهرة.

ان أزمة الخليج تطرح على عرفات فضلاً عن مشاكل السياسة، مسألة ضميرية شخصية. انه يحب الحديث طويلاً عن الكويت، مثله في ذلك مثل ابو اياد. ففي عام ١٩٥٧، أقام في مدينة الكويت. وقد روى في مقابلة له مع شارل سان بروت، الخبير بشؤون العالم العربي قوله: «كنت استطيع أن أفعل بنفسي خلال السنوات السبع اللاحقة ما يثير أكبر اعجاب لدى الامريكيين ولدى كثير من الأوروبيين، وأقصد بذلك أن أكون مهندساً، مرَّة وللأبد. إذ كنت أدير أعمال شركتي المختصة بالأعمال العامة. كنت رجل أعمال ناجح. لقد جمعت ثروة في الكويت، وربما كنت أستطيع أن أصبح فيها مليونيراً مرّات عديدة، وبالدولار.

«اشتغلت عامين في وزارة الاشغال العامة ثم اسست مع بعض الشركاء مؤسستي الخاصة للأشغال العامة. وأصبح خليل الوزير وسليم الزعنون، اللذين ذهبا معي الى الكويت، معلماً بالنسبة للأول ومحامياً بالنسبة للثاني.

«كنت أملك أربع عربات - كنت أحب السرعة، وكنت أمضي أوقات عطلتي في اليونان وايطاليا وسويسرة وعلى الشاطىء اللازوردي وفي لبنان، الذي كان آنذاك مكاناً رائعاً للاصطياف. باختصار كنت أملك وسائل الحياة الجميلة.

«مع ذلك لا شيء يمكنه ان يجعلني أترك المعركة من أجل وطني. لا المال الذي لم أهتم به أبداً، ولا مهنة تستهويني وكنت أمارسها بحب، ولا منظور تأسيس منزل عائلي.

«على العكس، خلال تلك السنوات من العيش الرغيد ظاهرياً اتخذت قراري. وفهمت ان معركتنا ينبغي أن تبقى سرية وانها ستكون طويلة وشاقة وصعبة. كنت أحس أنه يتوجب على اولئك الذين يختارونها التخلي عن الأمل بحياة عادية بل

وربما التضحية بحياتهم. وكم من المرّات فيما بعد، وخلال الامتحانات التي تعرضت لها والاعتداءات التي نجوت منها، وعبر حياة التشرد التي يتوجب علي أن أعيشها، هنأت نفسي لأنني لم أفرض هذه الحياة على امرأة وأطفال. مع ذلك الشيء الذي آسف عليه، وربما الشيء الوحيد، هو انني بدون أطفال. إذ أنني أقابل بانفعال كبير دائماً أبناء وبنات أقاربي».

لقد تلقى ياسر عرفات، الهائم بين بلدان الخليج والعراق، عدة اهانات. كانت المرّة الأولى في ابوظبي عندما منعت سلطاتها، المتضايقة من موقفه الموالي للعراق، هبوط طائرته في أراضيها. واضطر الطيار الى القول بأنه يعاني من نقص المحروقات، حتى سمح الأمير للطائرة بالهبوط على أرض المطار شريطة أن تبقى ابوابها مغلقة. لكن وبالرغم من أن رئيس م.ت.ف قد تلقى اهانات أخرى، فإنه يبدو دائماً بمثابة الممثل الرسمي للفلسطينيين. هذا ما أكده رولان دوما، وزير الخارجية الفرنسي، رسمياً في مقابلة له مع صحيفة لوموند بتاريخ ١١ مارس (آذار) ١٩٩١. كما ذهب جيمس بيكر، وزير الخارجية الامريكي الى اسرائيل ورأى الفلسطينيون في الأراضي المحتلة أنه قد تم «الاعتراف» بممثليهم.

الفصل العاشر

نظام صدام

طالبت جميع الأجهزة السرية للحلفاء من علماء للنفس في بلدانها اجراء دراسات لشخصية صدام حسين. وقد خرجت احدى هذه الدراسات بالنتيجة التالية: «لا يمكن تطبيق أي معيار كلاسيكي للعقلانية عليه». وقال عنه تحليل آخر أنه يمتلك مزاج مَنْ يريد أن يحافظ على عشيرته مع إضعاف سلطتها إذا اقتضت الضرورة. وقد برزت شخصية صدام حسين، في الواقع، في احتكاره للسلطة بدون منازع وبدون رحمة. كما بينت دراسة كتبها باحث جامعي عراقي، هو سمير الخليل، بعنوان: «العراق؛ الآلة الجهنمية» الآلية التي خنق فيها سيد بغداد المؤسسات في نظامه قبل أن يخنق مبادىء حزب البعث عبر الميل الستاليني الكامن في نفسه لعبادة الفرد.

علينا أن لا ننسى أبداً أن السلطة الشخصية في الشرق الأوسط تنبثق عن تحالفات عائلية تتشابك وتتحلل. وفي بغداد ترتفع أسهم آل المجيد عندما تهبط أسهم آل الرشيد. مع أن هؤلاء واولئك تجمعهم نقطة مشتركة هو أنهم ينتمون الى تكريت، المدينة الصغيرة البائسة في شمال العراق. ورجال الرئيس هم حفنة من الخُلَّص متحدّين كأصابع اليد الواحدة، ويستأثرون لوحدهم بجميع السلطات في العراق. ويأتي تلاحمهم نتيجة لصراع السنوات الطويلة كما يأتي نتيجة لصلات القربى. ويسيطر صدام حسين شخصياً على جميع المفاتيح الأساسية للسلطة. فهو رئيس الجمهورية والأمين العام لحزب البعث ورئيس مجلس قيادة الثورة والقائد الأعلى للقوات المسلحة. وهناك عشرة أشخاص من حاشيته يمتلكون جزءاً بسيطاً من السلطة الظليلة.

هناك أولاً طه ياسين رمضان الشخصية الثانية الحقيقية في النظام والذي بلغ به وفاءه لصدام حسين أنه فقد ٤٠ كيلوغرام من وزنه (هبط وزنه من ١٢٠ كلغ الى ٨٠ كلغ)، بعد انذار صدام حسين بضرورة أن ينقص المسؤولون الكبار وزنهم؛ وُلد في

الموصل عام ١٩٣٩، لكنه لا يتحدث تقريباً عن أصله الكردي. وهو أحد المؤمنين بالقومية العربية. عمل سابقاً كمحاسب في بنك الرافدين. وذات يوم سأله أحد السلفيين الاسلاميين في الاردن عن الموقف الحقيقي لحزب البعث حيال الاسلام فقال: «يستطيع المسلمون ان يصلوا متى يشاؤون وكما يشاؤون، لكنهم إذا حاولوا الحاق الأذى بحزب البعث فإننا نسحق عظامهم». وهو مسؤول الجيش الشعبي الوطني.

الى جانب طه ياسين رمضان، هناك عزت ابراهيم الذي يحمل منذ احدى عشرة سنة لقب نائب قائد مجلس قيادة الثورة. يعاني غالباً من المرض. وكان مالكاً في السابق لمقهى واصبح وزيراً عدة مرّات. تزوج عدي صدام حسين احدى بناته. ويتندّر عليه ابناء بغداد بالرواية التالية: «تزدان شوارع بغداد بصور عملاقة لصدام حسين الذي يمتلك وحده هذا الامتياز. ذات مساء نصحته زوجته اثناء اجتماع عائلي ان يقلّد صدام حسين ويطلب من أحد الفنانين ان يرسم له صورة عملاقة. وبينما هو يقف في مكتبه امام الفنان الذي يقوم برسم صورته دخل صدام حسين فجأة وقال له: «ألا تعرف أنه من الممنوع رسم صور كبيرة للاشخاص في هذه المدينة - نعم أعرف ذلك... - إذا كنت تعرف فالمسألة أخطر قال صدام حسين، فأجاب عزت ابراهيم: كل ما في الأمر، انها صورة صغيرة للهوية الشخصية إذ سأذهب غداً لاستخراج جواز سفر جديد».

ان سعدون حمادي هو الأكبر سناً بين أفراد حاشية صدام حسين، عمره ٦٠ سنة. وهو من مواليد كربلاء، ثاني مدينة شيعية في العراق. تابع دراساته في الجامعة الامريكية ببيروت ثم في جامعة ويسكونسن. وزير نفط سابق. ومسؤول عن القسم الاقتصادي في حزب البعث. وهو أكثر اعتدالاً من البقية؛ ويقوم غالباً بمهمات للمصالحة في الخارج؛ كما حافظ على علاقات طيبة مع طهران.

أمّا طارق عزيز فهو دبلوماسي بكل ما تعني الكلمة. اسمه الحقيقي ميخائيل يوحنّا. انتسب الى حزب البعث عندما كان عمره ١٤ سنة. اخصائي بالأدب الانكليزي، وهو الوحيد بين أعضاء مجلس القيادة العراقية الذي يعرف الغرب جيداً. مسيحي في بلد أكثريته من المسلمين. صديق مخلص دائماً لصدام حسين. سمّى أحد ابنائه صدّام. يقدِّره السوفيات كثيراً، نصح صدام حسين، بعد وقف اطلاق النار في الكويت، باجراء اصلاح سياسي «برسترويكا سياسية» واقامة نظام تعددي وتشكيل حكومة وحدة وطنية.

هناك شخص آخر أقل شهرة هو لطيف جاسم، وزير الاعلام والثقافة، يعرفه جميع الصحفيين الذين غطوا أزمة الخليج من بغداد. كان مسؤولاً عن المسائل الزراعية في الحزب، بتاريخ ٢٢ فبراير (شباط) قال غيابياً لرولان دوما وزير الخارجية الفرنسي، في معرض نقده للسياسة الفرنسية، ما مؤداه: «ينبغي أن تكون آخر من يتحدث عن الهجوم الأرضي أو غيره نظراً لأنك لست سوى مجرد رجل خسيس تابع للامريكيين، وما عليك إلا أن تصمت أنت وأمثالك»، هذا قبل أن يصف الوزير الفرنسي بـ«غبي».

ويتولى حسين كامل، الرجل الاساسي في النظام، وصهر صدام حسين، المنصب الاستراتيجي المتمثل في وزارة التصنيع. وكان هو المسؤول عن برامج التسليح النووية والجرثومية والكيميائية.

ويوجد عدة أشخاص من رجال الرئيس غادروا مسرح السلطة سراً. ففي شهر ابريل (نيسان) ١٩٨٩ توفي عدنان خير الله، أخ زوجة الرئيس، اثر حادث هيلوكبتر مبهم. إذ جرفت عاصفة رملية طائرته كما قيل في بغداد.

ويحيط الغموض أيضاً بابعاد سعدون شاكر من مجلس قيادة الثورة في شهر اغسطس (آب) الماضي. وهو وزير سابق للداخلية وابن عم صدام حسين ومسؤول سابق عن الأجهزة الخاصة. استقال لـ «أسباب صحية». ساهم في التقارب السياسي والعسكري والاقتصادي بين فرنسا والعراق طيلة سنوات. له علاقات عديدة في أوساط التسلح في فرنسا ومع أجهزة استخبارات سابقة. تزامن ابعاده عن مواطن السلطة مع صعود نجم ابن عم الرئيس علي حسن المجيد حاكم كردستان ثم حاكم الكويت ثم وزير الداخلية الجديد.

يتولى جميع أخوة صدام حسين مراكز أساسية في الاستخبارات. فالسبعاوي ابراهيم التكريتي هو رئيس الادارة العامة للاستخبارات التي تترأس أجهزة الاستخبارات المدنية والخارجية التي تشمل مصالح المعارضين السياسيين والقضايا الداخلية والقضايا السياسية. مسؤول الاستخبارات الخارجية التابعة للأمن العسكري هو وطبان ابراهيم التكريتي. كما ان برزان ابراهيم التكريتي، مندوب العراق لدى الأمم المتحدة في جنيف، مسؤول في أجهزة الاستخبارات، وقد يكون المسؤول دائماً عن العمليات الخاصة في أوروبا. كما يدير بعض القضايا المالية في العاصمة السويسرية.

يسيطر التكارتة على جهاز الدولة. وأي دبلوماسي تكريتي في سفارات العراق في الخارج هو أقوى من السفير نفسه. وهناك جهاز شرطة يبلغ عدد افراده ما بين ١٠٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠، ومهمته هي المحافظة على نظام صدام. ويتقاضى هؤلاء الموظفون أعلى الأجور في الدولة؛ إذ يبلغ المرتب الشهري لكل منهم ما يعادل ٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ فرنك فرنسي مع علاوات وامتيازات عديدة. ويتقاضون ضعف ما يتقاضاه موظف عادي.

قبل عدة أيام فقط من غزو الكويت كان مسؤولون من وزارة الداخلية العراقية في زيارة لسويسرة من أجل اجراء مفاوضات حول شراء أجهزة تصنت هاتفي الكترونية بحيث لا تشمل أعمال التصنت بغداد فحسب، ولكن مدن العراق الكبرى الأخرى مثل الموصل والبصرة وكركوك.

وكان مسؤولو حزب البعث هم أكبر المستفيدين من سياسة تعميم الملكية الخاصة التي شُرع بها منذ عام ١٩٨٧. وهكذا حصلوا على كميات من أسهم الشركات التي تمَّ تحويلها الى شركات خاصة باسعار منخفضة ثم باعوها باسعار عالية لرجال الأعمال ورجال الصناعة محققين بذلك أرباحاً طائلة.

شجَّع صدام حسين هذا التسابق نحو جمع المال، إذ سمح الأمر بتكوين ملفات تدين الكثيرين. وتشكل العمولات على عقود السلاح التي تتراوح بين ١٠ الى ١٥٪ أكبر مصادر الغنى الشخصي. ويتم استخدام رجال أعمال لبنانيين وفلسطينيين لتغطية العمليات التجارية. ويقوم أخ حسين كامل، واسمه صدام كامل مجيد بمراقبة منتظمة على الشركات الشكلية التي تمَّ تأسيسها للتعمية.

ويتقاسم أفراد جماعة حسين المقرَّبين الاختصاصات في قطاعات العمل. إذ يسيطر عدي ابن صدام حسين مثلاً على كل ما يتعلق بالغذاء والمشروبات والماء والأثاث والقطع الكهربائية المنزلية والتلفزيونات وأجهزة الفاكس. بل وتم قبض عمولات على المصانع الكيميائية.

ولعلّ أن جماعة صدام قد وضعت يدها على ثروة كانت تزيد على ٥٥٠ مليون دولار وتعود خير الله طلفاح خال صدام حسين. وكان ابنه قد عُين وزيراً للدفاع عام ١٩٨٠. وقتل في حادث طائرة مشبوه في كردستان عام ١٩٨٩. كان يسيطر على ٢٠ شركة تمَّ الاستيلاء عليها كلها وأودع مديروها السجن بتهمة عدم الائتمان والفساد.

ويقول مسؤولو عدة بنوك عربية انه قبل غزو الكويت بيومين فقط طلب البنك المركزي العراقي من عدة مؤسسات مالية في الشرق الأوسط وأوروبا تحويل الأموال العراقية الى حساب في البنك المركزي الأردني. كما تلقى البنك العربي في لندن بتاريخ ٣ أغسطس (آب) ١٩٩٠ تعليمات تقضي بتحويل كميات كبيرة من حساب بنك الرافدين لدى الـ« ميدل بنك » الى البنك المركزي الأردني. وبتاريخ ٥ أغسطس (آب) تلقى البنك العربي الدولي في البحرين تعليمات من نفس النوع من أجل ايداع أموال في اتحاد البنوك السويسرية في زوريخ. كل هذه العمليات نظَّمها لحساب صدام حسين معاون المدير السابق لبنك « أوباف » السيد طارق القكمجي، الذي يعمل حالياً مديراً للبنك المركزي في العراق.

لا أحد يعرف بالضبط كمية الأموال التي تمَّ تحويلها في تلك الفترة. وتتراوح التقديرات بين ١٠٠ و ٤٠٠ مليون دولار. ويرى المحللون الماليون أن ذلك كان يمثل مرحلة في استراتيجية صدام حسين والمتمثلة في جمع أكبر مبلغ ممكن نقداً من أجل عمل آلة الحرب العراقية وآلة الاقتصاد المدني بالرغم من العقوبات الدولية. ويتفق جميع الاخصائيين على أن تلك الخطوة كانت ماهرة ولكنها لا تمنع الانهيار البطيء للاقتصاد العراقي.

وقد يكون الاختناق المالي للعراق بعد الحرب أكثر خطراً بالنسبة لصدام وأكثر مدعاة « لعدم الاستقرار » من حركات التمرد الشيعية والكردية وتشير مصادر عربية الى المحاولات المتكررة لصدام حسين من أجل « تبييض» الأموال العراقية بواسطة بنوك في الأردن أو في لبنان بل وفي بعض بنوك الخليج. كما أصدر الرئيس العراقي سندات حكومية وحاول ابتزاز أموال من مواطنيه كما التمس ياسر عرفات كي توافق م.ت.ف على مساعدة مالية للعراق. لكن م.ت.ف التي سقطت آمالها الآن بالدعم المالي لدول الخليج، تواجه عجزاً مقداره ٣٦٠ مليون دولار، مما يجعلها في وضع لا يسمح لها بمساعدة صدام حسين حتى ولو رغبت ذلك. الأموال التي يمتلكها الرئيس العراقي ليست كافية، فطلب ١٠٠ مليون دولار من الجزائر، لكن هذه لم ترد بشيء.

من الصعب جداً الحصول على معلومات دقيقة حول حقيقة الوضع المالي في العراق في ظل دولة بوليسية تعشش بالاسرار. ويعترف صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بالتوقف عن تقديم احصائيات عن العراق منذ عشر سنوات. وتسري شائعات في

الشرق الأوسط مفادها ان العراق يمتلك مبلغ أربعة مليارات دولار على شكل أوراق بنكنوت نقدية موجودة في غرفة محصنة تحت القصر الرئاسي بالاضافة الى عدة ملايين من الدولارات كـ«عمولات» موجودة في حسابات خاصة في سويسرة. المدهش في هذه القصة أن الجميع كانوا قد اتفقوا على القول في شهر يونيو (حزيران) ١٩٩٠ بأن العراق لم يعد يمتلك شيئاً.

كان الرئيس صدام حسين يفتخر، قبل غزوه ايران، بأن العراق يمتلك ٣٠ مليار دولار من الذهب والعملات الصعبة. بعد الحرب تبخَّرت هذه المليارات لتبلغ ديون العراق ٧٩ مليار دولار. اما بالنسبة للاموال النقدية التي استولت عليها القوات العراقية عند دخول الكويت فإن تقديرها يختلف من مصدر لآخر، لكن تقدَّر غالباً بـ ١,٢ مليار دولار بين أموال عامة وخاصة.

وكان من نتائج غزو الكويت تجميد حوالي ٤ مليار دولار من الأموال العراقية الموجودة في الخارج، هذا زيادة على خسائر الريع النفطي الذي تقدره وزارة الخارجية الامريكية بـ ١,٥ مليار دولار في الشهر. ويؤكد المصرفيون العرب على أن العراق تلقى دعماً مالياً من الاردن الذي قدّم رسائل اعتماد مصرفية لتأمين مقدار كافٍ من السيولة لجاره بغية شراء ما يحتاجه من أسلحة. لكن سرعان ما اضطر الاردن الى وقف مساعدته المالية نظراً لحالته الاقتصادية المتردية.

يعيش صدام حسين وجميع أفراد أسرته منذ ٢ اغسطس (آب) في الملجأ الرئاسي المحصَّن. وتتألف أسرته من زوجته ساجدة، وولديه عدي وقصي، وبناته رغد ورنا وهلا. ان صدام حسين مهووس بالأمن لذلك يفتش حتى وزراءه بشكل دقيق. بل وخضع لعملية التفتيش هذه منذ بداية الحرب كل من طارق عزيز وعزت ابراهيم وطه ياسين رمضان وجميع أعضاء مجلس قيادة الثورة. وكل شخص يكون على موعدٍ للقاء به يُطلب منه وضع جميع حاجاته الشخصية على باب الملجأ، ثم يغسل يديه قبل الدخول اليه. ويغسل صدام حسين يديه عدة مرَّات في اليوم. انه يخاف من التسمم عن طريق الجراثيم. لذلك أبعد من جهاز أمنه المدير المساعد للجهاز خليل شاكر المشهور في بغداد بميله لاستخدام السموم؛ خاصة التاليوم الذي تمَّ اكتشاف آثار منه على عدد من المعارضين وشخصيات النظام الذين تمَّت تصفيتهم. ويبلغ به الحذر درجة أنه لا يتذوق أي طعام قبل أن يقوم المسؤول عن تقديمه بتناول قسم صغير منه؛ والشخص المكلف بهذه المهمة الاستراتيجية ليس سوى ابن الطبَّاخ الذي

أعدَّ ذلك الطعام.

أما الطيار الذي يقود الهيلوكبتر الرئاسية فهو زوج شقيقة صدام حسين، وكان يستخدم طيلة حرب الخليج شخصاً يشابهه كي يأخذ مكانه في التنقل بعض المرَّات. وبالرغم من ثقة صدام حسين الكاملة بصديقه بريماكوف الموفد السوفياتي لغورباتشيف، فإنه تم اثناء زيارته لبغداد في شهر اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٠، اقتياده الى حجرة في الملجأ المحصن قبل أن يذهب برفقة موكب مهيب الى أحد المطاعم في قلب بغداد. يروي بريماكوف ذلك قائلاً: «فجأة ظهر صدام حسين مع أفراد قيادته، كان يلبس معطفاً عسكرياً. نحىَّ حزامه ومسدسه ووضعهما على الأرض. كان قد فقد عدة كيلوغرامات من وزنه وكان يبدو هادئاً».

ان صدام حسين لا يفارق مسدساته. مسدسه المفضّل هو من نوع ت.ت ـ ٣٣ توكاريف، من عيار ٧,٦٢ ومن صنع سوفياتي. انه مولع بالاسلحة وعنده مجموعة من البنادق. كما يقوم بالتدرب على بندقية من طراز القادسية، وهي مشتقة من بندقية دراغوتوف السوفياتية، لكن يتم تصنيعها في العراق. كان صدام حسين يسافر للصيد في رومانيا عندما كان شاوشيسكو في الحكم. لقد حذفت الرقابة في التلفزيون العراقي كل صور الثورة الرومانية وكان جميع الذين يتهورون بالحديث عن رومانيا امام الرئيس يعرفون المصير الذي ينتظرهم.

لقد نجا صدام حسين باعجوبة من عملية قصف للحلفاء بتاريخ ١١ مارس (آذار) ١٩٩١. ولم يكن الطيارون يعرفون أن الرئيس يوجد في احد عربات الرتل الذي قصفوه والذي كان يتألف من خمسين عربة. وبتاريخ ١٧ مارس (آذار) عرفت الاجهزة الغربية بواسطة معارضين عراقيين أن صدام حسين كان موجوداً ذلك اليوم ولكن عربته لم تصب بأذى. بينما جُرح أو قتل بعض الذين كانوا برفقته. وعندما اشارت الصحف الى أن أقمار التصنت الصناعية الامريكية قادرة على التقاط محادثات صدام حسين مع قياداته العسكرية، ضمن اطار العمليات المعمَّدة باسم «ياما موتو» (باسم طيار ياباني سقطت طائرته فوق المحيط الهادىء اثناء الحرب العالمية الثانية)، أوقف صدام حسين رسائل الراديو التي كان يبعث بها لجنرالاته.

كان صدام حسين يمتلك في ملجأه المصفَّح والمصمم لمقاومة أي هجوم، حتى ولو كان هجوماً نووياً، مخزوناً كبيراً من الماء وبئراً جوفياً على عمق ٤٠٠ متر. وكانت رقابة جهاز سحب الماء تتم بشكل دوري لتجنب أي هجوم بالغاز قد تقوم به

مجموعة كوماندوس بقصد تصفية الرئيس العراقي. ان ملجأ صدام الذي وصلت كلفته الى ٥٠٠ مليون دولار تمّ تصميمه من قبل عدة شركات أوروبية. ويقول مهندس كهربائي فرنسي أنه أشرف ما بين ١٩٨٠ و١٩٨٥ على مجمل شبكات الاتصالات والأنفورماتيك في الملجأ الرئاسي الذي يعادل بناية تتألف من ١٥ الى ١٦ طابق. كما ان جميع مداخله محميّة ولا يمكن فتحها الا عن طريق الرموز والبطاقات المغناطيسية ومجهّز بآلات تصوير تعمل بصورة مستمرة. أما الدخول إليه فيتم عبر مصاعد كهربائية بعد تجاوز بابين سميكين. كان صدام حسين يخشى قيام عمليات عسكرية ضد الملجأ، وخاصة استهدافه بصواريخ امريكية من طراز توماهاوك يجري اطلاقها من الغواصات، وهذا ما دفعه الى قضاء الليل في أحياء سكنية مكتظة بالسكان وخاصة في حي الكاظمية الشيعي، وربما نام في مستشفيات ومساجد حيث يحس انه بمنجاة من عمليات القصف الجوي.

ان صدام حسين ذا شخصية معقدة جداً وقد يكون مسكوناً بالتوق الى الشهادة. وينقل بيير موروا، السكرتير الأول للحزب الاشتراكي الفرنسي، عن ياسر عرفات رأياً قاله بخصوص صدام حسين، جاء فيه: «لا شك أن صدام حسين ينتشي بروائح الجنة». أمّا شارل دو شامبران، عضو حزب الجبهة الوطنية الفرنسي، ورئيس بلدية سان جيل في جنوب فرنسا، وأحد الفرنسيين القلائل الذين يخاطبون صدام حسين بلغة المفرد، فقد روى أن الرئيس العراقي قال له في لقاء معه في أوج أزمة الخليج، ما مؤداه: «إذا مت، فإن اسمي واسم أطفالي وذريتي سيبجله كل العرب حتى آخر القرون».

ان مدينة الكويت، المحافظة العراقية رقم ١٩، في ظل الاحتلال، اصبحت مدينة الكويت المحررة بعد جلاء قوات صدام حسين عنها على يد الحلفاء. وقد عبّر باحث كويتي، هو فيصل بالومان، عن فرحته بلقاء الجنود الفرنسيين والامريكيين بعد دخولهم الكويت بجملة بليغة جاء فيها: «لن نستطيع أن نكتب ما يكفي من رسائل الشكر لكم، ولو تحول البحر الى مداد». ومنذ ٢٧ فبراير (شباط) بدأت الفرحة بالحرية المستردة تتلاطم مع آلام الاحتلال العراقي.

هل ستعرف يوماً ما مدى المظالم المقترفة من قبل العراقيين في الكويت؟ لقد شهدت الكويت سياسة مرسومة من العنف ومن تخريب كل شيء. ان وحدات استخبارات الحلفاء عثرت اثناء تفتيشها مقر القيادة العامة للقوات العراقية (يرموك)

الذي أقيم في منزل الأمير مبارك الصباح، على بعض الوثائق المتروكة أو المحروقة الى منتصفها فقط. كانت تلك الوثائق تتعلق بالأوامر الصادرة الى رؤساء الوحدات العراقية، وتحمل تاريخ ١٧ و١٨ و١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٩١. كانت تنص على «احداث أكبر قدر ممكن من الخسائر وتدمير حقول النفط قبل كل شيء». ان هذه الوثائق التي خلفها وراءه جيش مهزوم سيكون لها وزنها الكبير عندما ستطلب الأمم المتحدة ذات يوم اصلاح اضرار الحرب.

فرانسوا ميتران على كل الجبهات.

طالب فرانسوا ميتران، اثناء مداخلته الاذاعية - التلفزيونية الثانية والعشرين منذ بداية النزاع، بضرورة استنباط العبر من الحرب. لقد سمح ذلك النزاع لرئيس الدولة بتجميع الرأي العام مع ضرورة «استنباط دروس من تلك التجربة المحزنة تتعلق بمستقبل جيوشنا التي اثبتت انها بصحة جيدة».

كانت خطط العمليات العسكرية الفرنسية لجميع عمليات الجيوش تُعدّ في مكاتب تبلغ مساحتها ٢٥٠٠ متر مربع وتقع في قبو وزارة الدفاع.

من هذا المركز، كانت تنطلق الأوامر الموجهة للجنرال ميشيل روكجوفر قائد عملية «داغيت» في الخليج. لقد نسّق الجنرال موريس شميت، رئيس هيئة أركان الجيوش الفرنسية، كل العمليات في هذا المركز، بالاتصال مع مركز «جوبيتر» الموجود في قبو قصر الاليزيه. وراقب رئيس الدولة جميع العمليات ليس السياسية فحسب، لكن العسكرية أيضاً. وكان هو الذي يختار كل يوم بالتنسيق مع القيادة في باريس وفي السعودية الأهداف المقترحة لطائرات «الجاغوار». وتعتمد قيادة الاتصالات في مركز عمليات الجيوش في عملها على شبكة معقدة من أجهزة الاستقبال والارسال الالكترونية تؤمن قدرا كبيرا من الحماية ضد التشويش. كما يتم استخدام منظومة الاتصالات العسكرية بواسطة القمر الصناعي «سراغوسة».

كما لعب مركز تحويل المعلومات الحكومي الموجود في بناء الأمانة العامة للدفاع الوطني دوره المطلوب طيلة فترة النزاع. وكانت مهمته تأمين الاتصالات الهاتفية بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء والامين العام للدفاع الوطني، وبين قيادة الجيوش وملحقي القوات المسلحة، والسلطات الفرنسية وسلطات الحلف الأطلسي.

كما تمّ تكليفه أيضاً باقامة الاتصالات الهاتفية الخاصة بين قصر الاليزيه والكرملين والبيت الأبيض، والحكومة الالمانية في بون والحكومة البريطانية.

يعمل في مركز الاتصال الحكومي ٢٣٠ شخصاً من أسلحة الجيش الثلاثي البرية والبحرية والجوية. ونقل في عام ١٩٩٠ أكثر من ١,٧٨٠,٠٠٠ رسالة. كان الرئيس الفرنسي على صلة مستمرة بالرئيس بوش. وهكذا عندما كان فرانسوا ميتران في قاعدة محاضرات فندق «فوروم» في براتيسلافا، بتاريخ ١٤ سبتمبر (ايلول) ١٩٩٠، بغية الرد على اسئلة الصحافة حول محادثاته الأخيرة مع الرئيس التشيكي ڤاكلاف هاڤل، دسّ له مساعده رسالة صغيرة مفادها ان الرئيس بوش يريد الحديث معه. كان الرئيس الامريكي يريد أن يدين بشدة خرق حصانة مقر اقامة السفير الفرنسي في الكويت من قبل القوات العراقية.

يستطيع فرانسوا ميتران أن يتحدث بأية لحظة ومن أي مكان على الكرة الأرضية مع أي رئيس. انه يمتلك لهذه الغاية على خط هاتفي متنقل يعمل بالرموز ويشرف على عمله خبير بالاتصالات العسكرية هو الجنرال ترويو. كذلك يستخدم الرئيس خطوطاً هاتفية ثابتة تعمل على دارات منفصلة ومرمّزة. وتمّ اتخاذ اجراءات خاصة طيلة أزمة الخليج كي يستطيع ميتران وبوش التحدث دون خطر امكانية الاطلاع على ما يقولانه. كذلك قام خبراء امريكيون بتركيب تجهيزات خاصة في مكتب السكرتارية الخاصة برئيس الجمهورية، يحتوي هذا المكتب على خط مباشر مع سفارة الولايات المتحدة في باريس.

لعب فرانسوا ميتران دور رئيس هيئة أركان حرب طيلة أزمة الخليج، بالاضافة الى كونه قائداً للجيوش. ففي كل صباح، وفي الساعة التاسعة، كان الأمين العام للاليزيه، جان لويس بيانكو، يعد خريطة الوضع العسكري مع العقيد ميشان من هيئة أركان الحرب الخاصة برئيس الجمهورية. وكان يتجمع في مواجهة الخريطة جيل ميناج مدير الرئاسة المكلّف بالعلاقة مع أجهزة الاستخبارات؛ وهوبرت ڤيدرين، الناطق الرسمي باسم رئيس الجمهورية؛ وجان بول هوشون، مدير مكتب ميشيل روكار، رئيس الوزراء؛ وكريستيان فيغورو، مدير مكتب وزير الداخلية؛ وفرانسوا نيكولو، مدير مكتب بيير جوكس، وزير الدفاع، وبرنار كيسيديان، مدير مكتب رولان دوما وزير الخارجية. وكانت تحضر الاجتماع أيضاً امرأة واحدة هي، آن لافورجون، الأمينة العامة المساعدة لرئاسة الجمهورية. على الخارطة، كانت تظهر

اهداف طائرات الجاغوار الفرنسية والأهداف التي اصابها التحالف العسكري ضد القوات العراقية.

وبعد أن يتم اعداد تقرير شامل لآراء هيئة أركان الحرب هذه يتم رفعه الى رئيس الجمهورية الذي يقوم بدراسته خلال النهار وكذلك دراسة جميع التقارير السرية بما في ذلك تلك الواردة من البيت الأبيض ولندن.

في الساعة ١٨ كان رئيس الدولة يترأس اجتماع الاستراتيجية اليومية الذي يحضره أيضاً وزراء الداخلية والدفاع والخارجية ورئيس أركان الجيوش وبالطبع رئيس الوزراء الذي يرافقه الجنرال مونو، رئيس هيئة أركانه الخاصة وكذلك الأميرال جاك لانكساد، رئيس الأركان الخاصة برئيس الجمهورية ورئيس أركان الجيوش القادم.

وفي يوم الجمعة ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٩١، في الساعة الثامنة كان معظم معاوني رئيس الدولة يتهيأون للعودة الى منازلهم. لكنهم عرفوا انه يمكن طلبهم في أية ساعة من تلك الليلة. كان المناوب حينذاك هو ميشيل جو، المدير المساعد لمكتب جيل ميناج، مدير مكتب رئيس الجمهورية. كان «جو» في مقر المناوبة لا يغمض له جفن.

اثناء الليل، اعلن الناطق الرسمي باسم ميخائيل غورباتشيف امام عدسات التصوير بأن بغداد قد قبلت اتفاقاً للسلام من ثماني نقاط؛ كان طارق عزيز حينئذ في موسكو. قفز ميشيل جو الى الهاتف واتصل مع جان لويس بيانكو، الأمين العام لرئاسة الجمهورية. فأخطر هذا الأخير رولان دوما. وتقرر حينئذ الاتصال بفرانسوا ميتران. كانت عقارب الساعة تشير الى الساعة الخامسة صباحاً. وفي الساعة الخامسة والنصف، كان الاميرال لانكساد وهوبرت ڤيدرين وبول موريل، المستشار الدبلوماسي لفرانسوا ميتران، يعقدون اجتماعاً في قصر الاليزيه.

ان الرئيس لا يأسف على أي شيء مما جرى حيال تلك الحرب. وقد قال لوزرائه فيما بعد: «لم يبحث صدام حسين في أية لحظة كانت عن فرصة حقيقية للسلام». كما نصح الرئيس اصدقاءه في الحزب الاشتراكي الذين اعترتهم الشكوك بـ«السيطرة على انفعالاتهم امام الحقيقة المخيفة للحرب، وفي مواجهة شخصية كصدام حسين الذي نعرفه لا بد من استخدام وسائل غير تقليدية».

بتاريخ ١٤ مارس (آذار) ١٩٩١ التقى جورج بوش وفرانسوا ميتران في جزيرة المارتينيك.. فبعد الأوراق السرية للحرب ينبغي سحب الأوراق السرية للسلام.

الملاحق

الملاحق

١ ـ وزارة خارجية الولايات المتحدة الامريكية
خطف الرهائن: الاعداد، التفادي، النجاة

٢ـ (وباء ستوكهولم)

٣ـ مكتوم

٤ ـ هيئة الستراتيجية المتكاملة بعيدة المدى
١١ كانون الثاني ١٩٨٨

ـ ا ـ

وزارة خارجية الولايات المتحدة الاميركية
خطف الرهائن: الإعداد، التفادي، النجاة

«حافظ على رباطة جأشك»

بعض المنظمات قد يلجأ أيضاً إلى محاولات اقناعك بصحّة أهدافه، وقد يهددك، أو يحاول اضطهادك بمعرفته عن نشاطاتك السابقة وأسلوب حياتك. لقد جرت العادة على ابقاء الرهائن في أجواء غير صحية، وتغييب هويتهم الانسانية باطلاق أرقام عليهم أو استخدام أوصاف أخرى للدلالة عليهم دون استخدام أسمائهم، وتوفير مرافق صحية غير مناسبة، والحرمان من النوم، وتقديم طعام بائس أو غير كافٍ.

النمط المحدد للمعاملة يمكن أن يتنوع على نحو دراماتيكي. ولكن ما هو نمطي دائماً هو حرمانك من حاجاتك، لأنهم جزئياً يحرصون على اشعارك بأنك لا تنتمي الى النوع البشري، فضلاً عن عدائهم لما تمثله. انهم يحرصون على جعل الحياة مقيتة بالنسبة اليك، لكنهم لن يقدموا على أي عمل يعرّض حياتك للخطر. إذا كنت ميتاً فلست مفيداً لهم. بمرور الوقت تستطيع الاستفادة من هذه الحقيقة. قد لا تعامل كما تشتهي أبداً، لكنك قد تصبح قادراً على ادخال تعديلات ما على سلوكهم.

خلال هذا الطور تابع جهودك لاستعادة رباطة جأشك والاحساس باحترام الذات. ينبغي أن تسعى أيضاً لتحسين بيئتك الجديدة وسلوك خاطفيك، وينبغي أن تركز على

حفظ صحتك البدنية والعقلية. من الجوهري في هذه العملية أن تفهم أن اطلاق سراحك قد لا يكون وشيكاً، خصوصاً في مواقف الاختطاف. الاتكال على افراج قريب قد يمنعك من القيام بهذه الأشياء الضرورية لنجاة بعيدة المدى، وقد تتسبب في فقدانك الأمل مع مرور الأيام.

حاول أداء أربع وظائف خلال هذا الوقت:

* بناء علاقات انسانية،
* تنظيم نفسك،
* تنظيم وقتك،
* تنظيم محيطك.

بناء العلاقات مع الخاطفين لا يعني موافقتك على فلسفتهم أو وسائلهم، انه ببساطة يعني العمل في سبيل تأسيس علاقة تتيح لك الاحتفاظ باحترام الذات في الوقت الذي تظهر فيه انك كائن بشري لا يشكل تهديداً أو خطراً. قدّم نفسك كشخص عقلاني وذكي، الاظهار المتسرع للعواطف، سواء انطوت على العدوان أم الرعب، سيدفع خاطفيك الى رؤية التهديد أو اعتبارك شخصاً جديراً بالازدراء فقط. إذا أعطيت اليك أوامر ما ...(*)

(*) هنا ينقطع النص الانكليزي في الكتاب، وينتقل جاكار من الصفحة ٢٥ الى الصفحة ٣١. (المترجم).

ـ٢ـ

(وباء ستوكهولم)

... قد يطلب منك، بالتالي، أن تخرج مرفوع اليدين إلى الأعلى أو وراء الرأس، وأن تخضع لاجراءات تفتيش وتعريف بالهوية. ينبغي أن تكون مستعداً لامكانية معاملة خشنة حتى يتضح الموقف. ذلك من أجل حمايتك وحماية الشرطة. خلال هذا الطور القاسي لا تقدم على أية حركات مفاجئة قد تسيء الشرطة فهمها.

احتمال آخر ممكن هو الهجوم. ويختلف تكنيك الهجوم تبعاً لتدريب وخبرة القوة المهاجمة. حين يبدأ الهجوم ابحث عن ملجأ أو مخبأ، وإذا لم يتوفر ذلك فانبطح أرضاً بعيداً عن الأبواب والنوافذ التي يمكن أن تستخدم كمداخل. إذا كنت داخل طائرة ويتعذر عليك الانبطاح أرضاً، احن رأسك ولا تقم بأية حركة. قد يطلق فريق الهجوم النار على أي شخص يقف أو يقوم بحركة مفاجئة يمكن اعتبارها مهدِّدة. ولا بد من جديد أن تتوقع معاملة خشنة في المراحل الأولى من الهجوم. خاطفو الرهائن حاولوا مراراً تفادي الاعتقال عن طريق الاختفاء بين الرهائن. في مناسبات عديدة سمح الرهائن للخاطفين بذلك، بسبب الرابطة العاطفية التي تنشأ أحياناً بين بعضهم البعض بسبب الفترة المطوّلة من الاحتكاك العاطفي الكثيف. القوة المهاجمة، بالتالي، ستعامل الجميع على أنهم متهمون حتى يتمّ التعرف على هوياتهم في نهاية الأمر.

ومن المهم والحيوي أن تقاوم اغراء الاسراع الى نجدة من يحاول انقاذك. وقبل كل شيء، لا تحاول نزع سلاح خاطفيك. ان فريق الهجوم يملك وقتاً محدوداً لتقرير ما إذا كان اطلاق النار ضرورياً أم لا. إذا وجدت والسلاح بيدك، قد تواجه الموت بسهولة وذلك قبل ان تمتلك فرصة شرح موقفك.

في المراحل الختامية تقع عادة ظاهرة عامة نسبياً ولكنها تمتلك أهمية خاصة. انها تلك التي تعرف شعبياً باسم «وباء ستوكهولم» أو «وباء التعرف على الرهائن». يختلط الرهائن عاطفياً بخاطفيهم، وذلك بالنظر الى التوتر الشديد للموقف واعتماد الرهائن على الخاطفين في النجاة. ويحدث أحياناً أن تلقى هذه العواطف أذناً صاغية من الخاطفين، وقد ينتج عنها الافراج عن بعض الرهائن. لسبب كهذا يعتبر المفاوضون «وباء ستوكهولم» قوة ايجابية دون أن تخلو من بعض الجوانب السلبية.

لقد طرأت من قبل حالات افراج عن رهائن ترددوا بعد ذلك في اعطاء أية معلومات يمكن استخدامها ضد الخاطفين، أو قدموا معلومات زائفة. في حالات أخرى خلال الهجوم، أطاع الرهائن بشكل غريزي تعليمات الخاطفين أكثر من فريق الانقاذ فعرّضوا حياتهم للخطر نتيجة ذلك. حتى لقد حدثت حالات... (*)

(*) النص الانكليزي ينقطع هنا من جديد. (المترجم).

-٣-

مكتوم

يحظر نشره قبل توزيعه من
لجنة الخدمات العسكرية في الكونغرس
بيان
الأدميرال توماس آ. برووكس، من سلاح البحرية الامريكية
مدير المخابرات البحرية
أمام اللجنة الفرعية للقوة البحرية والمعدات الدقيقة والستراتيجية التابعة للجنة الخدمات العسكرية في الكونغرس حول مسائل الاستخبارات
٢٢ شباط ١٩٨٩

مناطق القلق وانعدام الاستقرار في العالم

المواقف السياسية غير المستقرة، والعصيانات المحلية، والأزمات السياسية - العسكرية، والنشاطات المتصلة بالإرهاب والمخدرات في أرجاء العالم الثالث سوف تظل في حالة صراع مع مصالح الولايات المتحدة القومية، وتهدد أمن الأمريكيين. في عدة مناسبات راهنة استدعيت بحرية الولايات المتحدة لحماية المصالح القومية وتنفيذ السياسة الأمنية للولايات المتحدة في وجه تلك التحديات. أمثلة رئيسية على ذلك هي النشاط في الخليج العربي وشواطىء ليبيا والاشتراك في الحملات المضادة لانتشار المخدرات. وفي حين تظل بعض المناطق مثيرة للقلق (الأزمة اللبنانية، موقف الرهائن؛ باناما، نيكاراغوا، احتمال الانسحاب من بورما)، فالمناطق التالية هي التي طرأت عليها تغيرات هامة خلال العام المنصرم، وتستحق تسليط الأضواء.

الخليج العربي: رغم وقف اطلاق النار في الحرب الايرانية - العراقية، فان أياً من المسائل الحساسة البارزة التالية لم يناقش بفاعلية أو توضع له حلول: مسؤولية اشعال الحرب، مقدار وكيفية سداد التعويضات، النزاعات الحدودية. الخطوات التمهيدية مثل تبادل أسرى الحرب لم تنفذ على نحو تام. يضاف الى ذلك أن الفريقين المتحاربين ما يزالان يستخدمان المهلة التنفيذية لتحسين دفاعاتهما. على

سبيل المثال:

- في جنوب الخليج تواصل ايران تشييد مواقع صواريخ سيلكورم التي توسع تغطية ايران للمضيق الغربي وتضع معظم الامارات العربية المتحدة في المدى المجدي للأسلحة.

- العراق يعيد انشاء قواعد سيلكورم.

والعراق يتهم ايران بأنها لا تنوي التوصل الى تسوية شاملة، لكنها تستغل وقف اطلاق النار لاعادة التسلح. الموقف الداخلي في ايران - الذي يوشك على الانهيار اقتصادياً وعسكرياً، يظل غير مستقر. وما يسمى بالزعماء «المعتدلين» أو «البراغماتيين» الذين اقنعوا الخميني بقبول قرار مجلس الأمن ٥٩٨ ينبغي أن يفوزوا في مناوراتهم أو يتعاونوا أو يتغلبوا على «الراديكاليين»، (الحرس الثوري، رجال الدين المتطرفين، وسواهم ممن يظلّ في الصورة بقوة).

العراق من جهته يواجه العديد من المشاكل: اعادة بناء هائلة ودين ضخم وسكان أرهقتهم الحرب. لا تزال بغداد منشغلة بالمشكلة الكردية. لقد عقد العراق صلات اقليمية معقدة، وأوضح بجلاء أنه ما يزال يتطلع الى السيطرة - إذا لم نقل الاستيلاء، على جزيرتي وربا وبوبيان الستراتيجيتين الكويتيتين، وسيواصل الضغط حول هذه المسألة رغم ان الكويت زوّد العراق بمساعدة اقتصادية هائلة ودعم لوجستي خلال الحرب. فوق ذلك يمتلك العراق الآن بحرية قوية جديدة قامت ببنائها ايطاليا (٤ فرقاطات و٦ زوارق كبيرة) يمكن أن تغيّر التوازن البحري الخليجي جوهرياً. السفينة الحادية عشرة ترسو في ميناء الاسكندرية. ورغم ان الحكومة الايطالية رفعت الحظر عن هذه السفن في أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٨٩، فمن المحتمل أن لا تتلقى بغداد أياً منها في وقت قريب. ثمة أسئلة هامة حول تسديد النفقات وتدريب الأطقم وتجهيز الزوارق، وقد طلبت طهران من ايطاليا عدم تسليمها حتى ينسحب العراق من الأراضي الايرانية. ان حركة أياً من هذه المقاتلات في مضيق هرمز يمكن أن تثير مواجهة بحرية بين ايران المصرّة على حقها في اعاقة مرور المعدات العسكرية الى العراق، والأخير المصرّ على حرية الملاحة.

ان التزام الولايات المتحدة بدعم اصدقائها في الخليج، وأداء بحرية الولايات المتحدة في الاعوام الأخيرة حظي بثناء جماعي من مجلس التعاون الخليجي. تلك الدول تواقة للعودة الى الأوضاع القائمة قبل الحرب في المنطقة، لكنها لا تريد من

الولايات المتحدة أن تجري تغييرات عميقة دون التشاور معها.

بين النتائج الأكثر أهمية لدور البحرية في الخليج هي تلك المذكورة سابقاً. اليوم، لا ينظر الى الولايات المتحدة كشريك موثوق جدير بالاعتماد عليه، بل....

ـ ٤ ـ

هيئة الستراتيجية المتكاملة بعيدة المدى
١١ كانون الثاني ١٩٨٨

مذكرة الى :

وزير الدفاع

مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي

يسرّنا تقديم هذا التقرير النهائي عن أعمال لجنتنا. وبالاستناد الى تفويضكم السابق يقترح التقرير ادخال تعديلات على ستراتيجية الولايات المتحدة العسكرية بالنظر الى تبدّل المناخ الأمني في العقود القادمة.

لقد تلقت الهيئة خلال الأشهر الخمس عشرة الأخيرة نصحاً قيّماً من أعضاء الكونغرس، ورئيس هيئة الأركان المشتركة وقادة الصنوف والمستشار العلمي الرئيس واعضاء هيئة مجلس الأمن القومي واخصائيون عديدون في وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية، وآخرين خارج الحكومة ممن قدموا دعماً كبيراً. نحن أيضاً مدينون للجهد الشاق الذي بذله أفراد مكتب الهيئة.

ولقد ساند اللجنة بحماس مجموعات دراسة مختصة حللت العديد من المسائل كان بينها : المناخ الأمني خلال العشرين سنة القادمة، دور التكنولوجيا المتقدمة في الأنظمة العسكرية، التفاعل المتبادل بين الأنظمة الدفاعية والهجومية على تخوم الاتحاد السوفياتي، وموقع الولايات المتحدة في الصراعات الاقليمية حول العالم. خلال الاشهر القليلة القادمة سوف تنشر مجموعات الدراسة المشار اليها التقديرات الخاصة التي توصلت اليها.

برنامج عمل الهيئة ينتهي في تشرين الأول (اكتوبر). وحتى ذلك الوقت سيظل اعضاء الهيئة مستعدين لمزيد من التمحيص لجوانب هذا التقرير وما يتصل به من مسائل. جميع الأعضاء يقرّون نتائج هذا التقرير، وهم على استعداد للمشاركة في تطبيق تلك النتائج.

التواقيع

المحتويات

بمثابة تقديم ٥
الفصل الأول: عشرون ألف دولار ثمناً لأمير ٧
الفصل الثاني: نهب مدينة الكويت ٣٣
الفصل الثالث: الحرب والسلام ٤٩
الفصل الرابع: النسر والثعلب ٦٥
الفصل الخامس: العراق المعقل ٩١
الفصل السادس: في دهاليز الجهاز السري لصدام ١٠٧
الفصل الثامن: تل أبيب ـ طهران ـ موسكو ١٥٩
الفصل التاسع: السديم الارهابي ١٧٧
الفصل العاشر: نظام صدام ١٩٧

ملاحق: ٢٠٩
١ـ وزارة خارجية الولايات المتحدة خطف الرهائن: الاعداد، التفادي، النجاة ٢١١
٢ـ وباء استوكهولم ٢١٣
٣ـ مكتوم ٢١٥
٤ـ هيئة الاستراتيجية المتكاملة بعيدة المدى ٢١٨

دار الأرض للنشر
دار قرطبة للنشر والتوثيق والابحاث - ليماسول - قبرص

هذا الكتاب

لماذا لم «تتسامح» الولايات المتحدة والدول الغربية الكبرى مع الحل العسكري العراقي لمشكلة الحدود الكويتية - العراقية؟

ولماذا كان العنف المستخدم ضد العراق بهذا المستوى من القسوة والبربرية اللتين لم يشهد لهما التاريخ مثيلاً؟

كنا نتصور أن المحرّمات الغربية تجاه منطقتنا العربية تتعلّق فقط بالحدود الجغرافية للدول العربية الناجمة عن اتفاقيات سايكس - بيكو، والنفط واسرائيل، لكن ها نحن اليوم نكتشف محرّما رابعا ألا وهو ضرورة عدم حيازة العرب سر العلم والتكنولوجيا الراقية لا سيما منها التكنولوجيا التي تتيح للعرب ردع أعدائهم ودخولهم عصر الفضاء والقنبلة النووية والصواريخ البعيدة والمتوسطة المدى.

في هذا الكتاب الجديد، يجد القارىء معلومات لم تُنشر مسبقا عن مصادر تسليح الترسانة العسكرية العراقية، وخاصة المراحل التي وصل إليها تصنيع «القنبلة النووية العراقية». كما يتعرّض الكتاب لمواقف مختلف الدول الغربية والشرقية والاقليمية من حرب الخليج؛ وفي هذا السياق يولي المؤلف اهتماما خاصا بتحليل موقف «اسرائيل» وايران من هذه الحرب، باعتبار أن لهما صلة مباشرة و«حاسمة» تمسّ مستقبلهما السياسي.

باختصار، يميط المؤلف اللثام عن الملفات السرية لحرب الخليج في جوانبها العسكرية والأمنية والسياسية مستقيا معلوماته من مختلف الأجهزة السرية الغربية وخاصة الفرنسية منها. وهو يمثل إلى حد كبير وجهة نظر تلك المصادر بخلفيات حرب الخليج وأسبابها ونتائجها اللاحقة. هذا ما يشكّل موطن تحيّز الكتاب، لكن أهميته بالوقت نفسه.

الناشر

دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث — شركة الأرض للنشر المحدودة